الخلافة الراشدة

عبد المنعم الهاشمي

دار ابن حزم

الخلافة الراشدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة على رسول الله، ورضي الله عن الخلفاء الراشدين المبشرين بالجنة...

أما بعد...

فإن تاريخ الخلافة هو من أمر المسلمين ويهم كل المسلمين، ولما نظرنا فيه وجدنا طوراً شامخاً من الأحداث والعبر، والقيم والبطولات، والكر والفرّ، والاجتهاد والصبر والجهاد، ونحن إذ نهتف بصفحات منه لا نأخذ شيئاً من التاريخ وأصحابه ومؤرخيه، بل نعطي لأنفسنا ما أعطاه لنا التاريخ من حضارة لديننا وإسلامنا، وصدق وقدوة لخلفائنا الراشدين. ولا ندّعي لأنفسنا مهنة التأريخ، ولكن نحسب أننا نحب أيامنا في القرون الماضية، أيامنا في قرن الرسول ﷺ، وهو خير قرن، تحية لهذه الأيام التي عشناها على صفحات الكتب عسى أن نعيش شيئاً منها في هذه الأيام، فينتصر الإسلام في الدنيا كما هو منصور في الآخرة.

عبدالمنعم الهاشمي

القاهرة ت/٦٣٣٨٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أبو بكر الصديق

١ ـ ملامح شخصيته

كان أبو بكر الصديق من أول المقتدين بمحمد ﷺ، وكان الصديق رضي الله عنه نموذجاً للاقتداء بالرسول ﷺ.

وكان حب أبي بكر لشخص النبي محمد ﷺ بما تجلى به من خصال كريمة محمودة، هو الذي هداه إلى الإيمان بنبوته.

وكان أبو بكر رضي الله عنه صاحباً للنبي ﷺ، آمن بصاحبه الذي يطمئن إليه ويحمد خصاله، وكان يطيع محمداً فيفهم القرآن.

وكان أبو بكر نموذجاً للقوة في الرجل الدقيق البنية الرقيق الخلق الحليم.

وقد كان أبو بكر رضي الله عنه هادىء الطبع رقيق المزاج، ولطالما روض نفسه وراضها على التهدئة والترويض.

ففيما ثار عمر رضي الله عنه ثورة عارمة أفقدته بعضاً من صوابه حينما علم بوفاة حبيبه وصاحبه محمد ﷺ، حتى قال: من قال إن محمداً قد مات قطعت عنقه.

جاء أبو بكر رضي الله عنه الذي كان يحب محمداً كما يحبه عمر، ويأسى لفراقه كما يأسى، ويرفعه ويجله كما يجله عمر، وقال كلمته المدوية بعد أن هدأ من روع عمر قائلاً له: على رسلك يا عمر، ثم توجه بالحديث إلى الناس قائلاً: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فوالله لكأن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة..

أما عمر، فقد وقع على الأرض مغشياً عليه، حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقًّا..!! ولم يكن أبو بكر مغلق الذهن، ولا وصفه أحد بهذه الصفة من محبيه أو شانئيه الذين يبغضوه، بل كان مشهوراً بالذكاء والفطنة، يلمح اللحن البعيد فيدركه ويسبق الحاضرين إلى فهمه، والفطنة لموضع الإشارة فيه، كما حدث غير مرّة والنبي عليه السلام يتحدث أو يعظ الناس.

ولم يكن مغامساً للشهوات، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من ذوي الأقذار والأخطار، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدنس ولم يشتهر قط بوصمة يعيبه بها من أسرعوا إلى معاتبته يوم هجر الأصنام وعقيدة الجاهلية وجنح إلى عقيدة الإسلام.

ولم يكن أبو بكر متعصباً للجاهلية وعبادتها، بل لعله كان مزدرياً لها مستخفاً بالأصنام وبأحلام عابديها، «فهو لم يسجد لصنم قط»[1].

هذه ملامح من بعيد، فلنقترب من شخص أبي بكر رضي الله عنه قبل الخلافة.

---

(١) انظر: أنباء نجباء الأبناء.

شخصية أبي بكر

١ ـ من هو أبو بكر الصديق؟

هو عبدالله بن أبي قحافة ـ عثمان ـ بن عامر بن عمرو القرشي التيمي، ويلتقي مع رسول الله ﷺ في مُرَّةَ وهو الجد السادس للنبي ﷺ، واتفقوا على أن اسمه عبدالله بن عثمان[١].

وقد لُقِّب أبو بكر بلقب «عتيق»، قيل: لعتاقة وجهه[٢] ـ أي لجماله ـ. وقيل: لقبه عتيق لقدمه في الخير ولعتاقة نسبه ـ أي طهارته ـ، إذ لم يكن في نسبه شيء يعاب به.

وقيل: سمي عتيق لأن أُمه كانت لا يعيش لها ولد فلما ولدته استقبلت به البيت العتيق، ثم قالت: اللهم إن هذا عتيق من الموت فهبه لي.

وقد أجمعت الأمة على تسميته بالصديق لأنه بادر بتصديق الرسول ﷺ، ولازم الصدق. وكان الصديق يلقب به في الجاهلية، لما عُرِف عنه من الصدق، وأول ما اشتهر به من التصديق صبيحة إسراء النبي ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: جاء المشركون إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: لقد صدق، إني لأصدقه بأبعد من ذلك، بخبر السماء غدوة وروحة، فلذلك سمي الصديق[٣].

وُلِدَ أبو بكر بعد الرسول ﷺ بسنتين وأشهر، ونشأ بمكة، وكان لا يغادرها إلا للتجارة، وكان من رؤساء قريش وأهل مشورتهم في

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية.

(٢) قاله: الليث بن سعد، وأحمد بن حنبل، وابن معين وغيرهم، انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٢ ط دار المعرفة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، وإسناده جيد، وقد ورد ذلك من حديث أنس وأبي هريرة، أسندهما ابن عساكر، وأم هانىء، أخرجه الطبراني.

الجاهلية، ومن المعروف عنه ـ رضي الله عنه ـ أنّه ترك الخمر في الجاهلية، ولما سئل: هل شربت الخمر في الجاهلية؟

قال: أعوذ بالله.

فقيل: ولم؟

قال: كنت أصون وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيعاً في عرضه ومروءته، قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صدق أبو بكر، صدق أبو بكر**» مرتين[١].

صفاته

كان أبو بكر في جملة ما وصفوه به أبيض تخالطهُ صفرة، وسيماً، غزير شعر الرأس، خفيف العارضين، ناتىء الجبهة، غائر العينين معروق الوجه، نحيفاً ـ ومن شدة نحفه كان إزاره يسترخي عن حقويه[٢] ـ حمش الساقين[٣] ممحوص[٤] الفخذين، خفيف اللحم في سائر جسمه.

وكان أجنى ـ أي منحني القامة ـ وقيل في وصف آخر: أنّه حسن القامة لا يلحظ عليه انحناء، ولعله كان كذلك أيام الشباب، ولم يرد في أخباره وصف قاطع عن الطول أو القصر، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل إلى القصر، ولا سيما أخبار الهجرة مع النبي عليه السلام، فقد جاء في خبر الهجرة أن النبي عليه السلام كان على بعير، وأبو بكر على بعير، وعامر بن فهيرة على بعير، فكان رسول الله ﷺ يثقل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبي بكر، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر ويتحول عامر إلى بعير رسول الله ﷺ...

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٢ ط المعرفة.

(٢) الحقو: موضع شد الإزار وهو الخاصرة.

(٣) دقيق الساقين.

(٤) ممحوص: شديد الفتل.

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ كما علمنا من وصفه ربعة في الرجال فوق القصير ودون الطويل، ولم يكن بيّن الامتلاء أو بيّن النحافة، بل كان معتدلاً بين ذلك، فلو كان أبو بكر رضي الله عنه أطول من الربعة لما كان أخف كثيراً من رسول الله ﷺ، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة، بحيث يظهر الفرق بينه وبينهما في حركة البعير الذي يتعاقبون ركوبه[(١)].

وكان رضي الله عنه أبيض الشعر يخضب بالحناء والكتم.

أما صفاته الخلقية فقد أجمع أهل السنة أن أفضل النّاس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل البيعة، ثم باقي الصحابة.

وقد اتفقت أقوال واصفيه، ودلائل أعماله في الجاهلية والإسلام، فكان أليفاً ودوداً حسن المعاشرة، وكان مطبوعاً على أفضل الصفات التي تتآلف له الناس فيألفونه، ومنها: التواضع ولين الجانب، فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا في إسلامه، وكان في خلافته أظهر تواضعاً منه قبل ولايته الخلافة، فإذا مدحه مادح قال: اللهم أنت أعلم مني بنفسي، وإذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل عنها ليأخذه ولمْ يأمر أحداً بمناولته إيّاه، وبلغ من بغضه للخيلاء أنه كان يبغضها حتى حيث يغتفرها الناس من ربات الحجال، فدخل يوماً على عائشة رضي الله عنها وهي تمشي وتنظر إلى ذيل ثوبها فقال: يا عائشة! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن؟

قالت: ومم ذاك؟

قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربّه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة؟

---

(١) العقاد في عبقرية الصديق ص ٣٤، ولكن لا نعتقد أن الوزن الخفيف له علاقة بالطول والقصر فقد يكون طويلاً نحيفاً خفيف الوزن.

فلما نزعت تلك الزينة التي أعجبتها فتصدقت بها قال: عسى ذلك يكفر عنك.

وقد أوجز رجل يقال له: «ابن الدغنة» صفات أبي بكر حينما همَّ أبو بكر أن يهجر بلده فقال: أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل[1]، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟

فهو ودود كريم لا يضن بماله وجاهه في سبيل الكرم والسخاء.

ومع هذه المودة والألفة كانت فيه حدّة يغالبها ولا يستعصي عليه أن يكبح جماحها.. ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس إليه وأصدقهم في وصفه.. فقال في خطبة من أوائل خُطَبِهِ بعد مبايعته: « ..واعلموا أن لي شيطاناً يعتريني، فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني».

وقال عمر بن الخطاب حينما تكلم عن سقيفة بني ساعدة: وكنت أداري منه بعض الحد ـ أي الحدّة ـ وذلك حين أعد كلاماً يقوله في سقيفة بني ساعدة، مخافة أن يحتد أبو بكر في ذلك المقام.

شجاعته

ومن صفاته: الشجاعة، فعندما بُلِّغ محمد ﷺ بالرسالة، انطلق يدعو النّاس إلى التوحيد، ويبين لهم ما هم فيه من ضلال وفساد، ويدعوهم بالحجة والبرهان بأن هذه الأصنام لا تسمن ولا تغني من جوع، وأن الله باسط النعم، خالق كل شيء، وهو ربهم الأعلى.

وكان أبو بكر يسمع قول رسول الله ﷺ فيقول: صدقت، حتى قال عليه السلام: «**إن الله بعثني إليكم فقلت: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله**»[2].

---

(١) الكل: اليتيم أو الضعيف.

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة.

ومما يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في شجاعة أبي بكر الصديق رضوان الله عليه قوله:

قلت للناس: أخبروني من أشجع الناس؟

قالوا: أنت.

قلت: أما إنّي ما بارزت أحداً إلا انتصفتُ منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟

قالوا: لا نعلم، فمن أشجع النّاس في رأيك؟

قال علي: أبو بكر، إنه لما كان في يوم بدر، جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحدٌ من المشركين؟

فوالله ما دنا منا من أحدٍ إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوي إليه أحد إلاّ هوى إليه، فهو أشجع الناس.

قال علي رضي الله عنه: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يجباه وهذا يتلته، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً!!

ويستطرد علي قائلاً: فوالله ما دنا منا أحد واقترب إلاّ أبو بكر، يضرب هذا ويمنع هذا وهو يقول: ويلكم!!! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع عليّ بُردْةٌ كانت عليه، فبكى بكاءاً شديداً وقال: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم.

فقال علي: ألا تجيبوني؟

فقال علي: مؤمن آل فرعون رجل يكتم إيمانه وأبو بكر رجل أعلن إيمانه[١].

هذه شهادة علي بن أبي طالب على شجاعة أبي بكر الصديق.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤، ٤٥.

وفي رواية عروة بن الزبير قال: سألت عبدالله بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟؟

فقال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه، فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟[1].

جوده وكرمه

كان أبو بكر الصديق جواداً كريماً، فقد ذكره القرآن بما يدل على كرمه فقال عز وجل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

وكان أبو بكر سبّاقاً في التصدق بماله، وذلك ما تحدث به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: اليوم أسبقُ أبا بكر، أن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي.

فقال رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك؟»**.

قلت: مثله ـ أي مثل ما أعطاه ـ.

وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟»**.

فقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله.

فقال عمر: لا أسبقك في شيء أبداً[2].

حدث هذا الموقف العظيم يوم تجهز جيش تبوك، جيش العسرة.

---

(١) رواه البخاري عن عروة بن الزبير.

(٢) أبو داود والترمذي عن ابن عمر، وهو حديث حسن صحيح.

وقد تحدّث الرسول ﷺ عن كرم وجود أبي بكر في مواطن كثيرة، فقال عنه صلوات الله وسلامه عليه: **«ما أحد عندي أعظم يداً من أبي بكر، واساني بنفسه وماله، وأنكحني ابنته»**[1].

وفي موقف آخر يقول عليه السلام: **«ما لأحد عندنا يدٌ إلاّ وقد كافأناه، إلاّ أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئهُ الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحدٍ قطُ ما نفعني مالُ أبي بكر»**[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن كرم والدها وجوده: إن أبا بكر رضي الله عنه أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار، أو أربعون ألف درهم، فأنفقها على رسول الله ﷺ[3].

شمائل وفضائل أخرى

وكان أبو بكر يكره أن يسيء إلى أحدٍ لأنه بالمقابل يكره أن يساء إليه، ويعلم ما توقعه الإساءة في النفس من ألم يغلبها على الحلم والأناة حتى في المحضر الذي تراضى فيه على غاية الحلم وغاية الأناة.

بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فآذاه، فصمت عنه، ثم آذاه الثانية فصمت عنه، ثم آذاه الثالثة فانتصر منه، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر، فقال: أوجدت علي يا رسول الله؟

فقال رسول الله: **«نزل ملك من المساء يكذبه بما قال، فلما انتصرت وقع الشيطان»**.

وكان لأبي بكر حظ وافر من يقظة الضمير. ومناط الضمير أن يرعى الإنسان حق غيره، وأن يحسن ولا يسيء، وهي خصلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن

(١) ابن عساكر عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة.
(٣) ابن عساكر عن عائشة.

الشر، ويدعو إلى اتباع الحق واجتناب الباطل، فلما جاء هذا الدين بنى منه على أساس قديم، وبلغت به نفسه قصارى ما تبلغه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس: ومن كلف[1] بالخيرات وسخط على الشرور.

قال ربيعة الأسلمي: جرى بيني وبين أبي بكر كلام، فقال لي كلمة كرهتها وندم، فقال: يا ربيعة! ردّ علي مثلها حتى يكون قصاصاً.

قلت: لا أفعل!

قال: لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ.

فقلت: ما أنا بفاعل، فانطلق أبو بكر وجاء أُناس من أسلم فقالوا لي: رحم الله أبا بكر، في أي شيء يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال؟

فقلت: أتدرون من هذا؟؟ هذا أبو بكر الصديق؟ ثاني اثنين في الغار، وهذا ذو شيبة في الإسلام، إياكم!! لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة.

وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله ﷺ، فحدّثه الحديث كما كان، فرفع إلي رأسه فقال: «**يا ربيعة! ما لك والصديق؟**».

فقلت: يا رسول الله: كان كذا وكذا، فقال لي كلمة كرهتها، فقال لي: قل كما قلت حتى يكون قصاصاً فأبيت.

فقال رسول الله ﷺ: «**أجل لا ترد عليه، ولكن قل: قد غفر الله لك يا أبا بكر**».

وكان من عادة النبي ﷺ أن يسأل أصحابه حيناً بعد حين عما ابتدروه من الخيرات، فلا يكتموه شيئاً لأنه يسأل ويريد أن يجاب، ليتبع جوابهم عظة من العظات، أو يعقبه بحديث يؤثرونه عنه.

---

(١) الكلف: المحبة الشديدة، انظر عبقرية الصديق للعقاد ص ٣٨.

صلى النبي ﷺ ذات صباح فلما انتهى من صلاته سأل: أيكم أصبح اليوم صائماً؟

قال عمر: أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أُحدّث نفسي بالصوم، وأصبحت مفطراً.

وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله بت الليلة وأنا أُحدِّث نفسي بالصوم، فأصبحت صائماً.

ثم سأل النبي ﷺ: **«أيكم عاد اليوم مريضاً؟»**.

قال عمر: إنما صلينا الساعة ولم نبرح، فكيف نعود المريض؟

وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، أخبروني أن أخي عبدالرحمن بن عوف مريض وَجِع، فجعلت طريقي عليه، فسألت عنه، ثم أتيت المسجد.

ثم قال النبي ﷺ: **«فأيكم تصدق اليوم بصدقة؟»**.

قال عمر: يا رسول الله، ما برحنا معك، قد صلينا فكيف نتصدق!

وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، دخلت المسجد، فإذا سائل يسأل وابن لعبدالرحمن بن أبي بكر معه كسرة خبز، فأخذتها فأعطيتها السائل.

فقال النبي ﷺ: **«فأبشر بالجنة، أبشر بالجنة»**.

إذن فلا غرابة في أن يقول عمر: ما سبقت أبا بكر إلى خير قط إلاّ سبقني إليه.

ولا جرم أن يقول علي: هو السباق، والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر.

إسلام أبي بكر

ذكرت المصادر أن أبا بكر كان في رحلة الصيف إلى الشام في الوقت الذي بدأ الوحي في النزول على محمد ﷺ، وما إن عاد إلى مكة ولقيه أبو جهل فقال له: أو حدَّثوك عن صاحبك يا عتيق ـ وكان أبو بكر قبل إسلامه يُسمّى عتيقاً ـ.

أجابه أبو بكر: تعني محمداً الأمين..

قال أبو جهل: نعم، أعني يتيم بني عبدالمطلب..!!

فقال أبو بكر: أسمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام..؟

فقال أبو جهل: نعم، سمعته، وسمعه النّاس جميعاً.

فقال أبو بكر: وماذا قال..؟

فقال أبو جهل: يقول: إن في السماء إلهاً، أرسله إلينا لنعبده ونذر ما كان يعبد آباؤنا..!!

قال أبو بكر: أو قال أن الله أوحى إليه..؟؟

قال أبو جهل: أجل.

قال أبو بكر: ألم يقل كيف كلمه ربه..؟؟

فقال: قال: إن جبريل أتاه في غار حراء.

فعلت وجه أبي بكر ابتسامة ثم قال: إن كان قال، فقد صدق.

وروى ابن عساكر في سبب إسلام أبي بكر قال: قال أبو بكر الصديق: كنت جالساً بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً، فمر به أُمية بن أبي الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟

قال: بخير.

قال: وهل وجدت.

قال: لا.

فقال:

كل وفي يوم القيامة إلا ما قضى الله في الحقيقة بور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم؟

قال أبو بكر: ولم أكن قبل ذلك سمعت بنبي ينتظر ويبعث، قال:

فخرجت إلى ورقة بن نوفل وكان كثير النظر في السماء، كثير همهمات الصدر، فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث.

فقال: نعم يا ابن أخي، إنا أهل الكتب والعلوم، إلاّ أن النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسباً ـ ولي علم بالنسب ـ وقومك أوسط العرب نسباً.

قلت: يا عم، وما يقول النبي؟

قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم ولا يُظلم ولا يظالم، فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته[1].

والروايات في توجيه الدعوة إليه مختلفات: منها ما يؤخذ منه أن النبي عليه السلام قصد النّاس في المسجد بالدعوة العامة فوصل الخبر إلى أبي بكر فجاءه يسأله: يا أبا القاسم، ما الذي بلغني عنك؟

فسأله النبي ﷺ: **«وما بلغك عني يا أبا بكر؟»**.

قال: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله.

قال: **«نعم يا أبا بكر، إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى النّاس جميعاً»**.

فما أبطأ أبو بكر أن قال: والله ما جربت عليك كذباً، وإنَّك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك وحسن فعالك، مد يدك فإني مبايعك.

وكان الصديق أول رجل من شرفاء العرب دان بدين الإسلام بعد نبيه ﷺ، دان بدين الإسلام وبمحمد سريعاً، وكُتِبَ له في اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي ﷺ هو أول الاثنين، فكان ثاني اثنين في الإسلام، وثاني اثنين في غار الهجرة، وثاني اثنين في عريش النبي ﷺ

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٤، ٣٥.

في غزوة بدر، وثاني اثنين في كل غزوة من الغزوات بين المسلمين والمشركين.

وكان الصديق رضي الله عنه أقرب صاحب إلى النبي ﷺ في شدّة الإسلام ورخائه، وفي سره وجهره، وفي شؤون نفسه وشؤون المسلمين.

ومنذ لحظة إسلامه الأُولى وهب أبو بكر للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب إنساناً من نفسه وآله وبنيه، فأخذ أُمه إلى النبي ﷺ لتسلم على يديه وهي بين الحياة والموت، وجاء بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد جلله الشيب وابيض رأسه، وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة النبي ﷺ يؤثر به الدين على الآل والبنين(١).

وأصبح الإسلام منذ تلك اللحظة ديناً عند أبي بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات، أصبح عنده غنيمة يفتدي بها بكل غنيمة، يضن بها المرء من حياة أو آل أو ذرية أو مال.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه وفياً لصاحبه محمد ﷺ إلى حد تقديم النفس فداءً له.

كان المسلمون في ذلك الوقت أقل من الأربعين يوم أشار على صاحبه النبي ﷺ أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدعوة، فلما وقف بينهم في المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم إهانة من الضرب والإيذاء، وتصدى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى ورم وجهه، وتسامع أهله من بني تيم فأقبلوا يتعادون ويجلون المشركين عنه، ثم حملوه في ثوب إلى بيته وما يشكون في موته، وصاح منهم صائحون في المسجد: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنّ عتبة.

ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب، فكان أول ما نطق به وهو في تلك الحال: ما فعل رسول الله؟

---

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول والثاني، وتاريخ الطبري، وتاريخ الإسلام للذهبي والمغازي للواقدي، بتصرف.

فلاموه وعنَّفوه، وسألوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئاً يرد إليه نفسه، فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله.

قالت: والله ما أعلم بصاحبك.

قال: فاذهبي إلى بنت الخطاب(١) فاسأليها عنه.

فلما جاءت إلى فاطمة بنت الخطاب أنكرتها وأشفقت أن تكون جاسوساً من جواسيس المشركين عليها وعلى رسول الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله.

ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن إلى مقاله، فوجدته صريعاً مريضاً يلازم المرض قد برح به الألم، فغلبها الإشفاق فأعلنت بالصياح وهي تقول: إن قوماً نالوا منك لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك.

فما زاد على أبي بكر إلا أن كرر سؤاله الذي لزمه مذ أفاق من غشيته.

فقالت فاطمة بنت الخطاب وهي لا تزال حذرة من أمه: هذه أمك تسمع.

قال: لا عين عليك منها.

قالت: سالم صالح (عن النبي ﷺ).

فلم يكتف بذلك، بل أراد أن يرى رسول الله ﷺ بعينه، وسألها: أين هو؟

فأعلمته بمكانه من دار الأرقم بن أبي الأرقم، وأحب أن يذهب إليه، وكأنه أحس من أُمه ممانعة في خروجه وهو بتلك الحال، حتى يتبلغ بشيء ويذوق شراباً يرويه ويقويه، فأقسم لا يذوقن طعاماً ولا شراباً أو يرى رسول الله ﷺ.

---

(١) هي أخت عمر وهي فاطمة بنت الخطاب التي أسلمت من قبل.

وأكبرت المرأتان العطوفتان (أُمه، وفاطمة بنت الخطاب) حبه لصديقه ونبيه محمد ﷺ، فأمهلتاهُ حتى يهدأ الرجال ويسكن الناس ويخل الطريق من المارة، وخرجتا به يتكىء عليهما ولا يقدر على حمل نفسه، ثم دخلتا به على رسول الله ﷺ وهو بتلك الحال، فانكبّ عليه يقبله، ورق الرسول ﷺ لصديقه وصفيه رقّة شديدة.

فقال الصديق الصفي: بأبي أنت وأُمي! ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أُمي برة بوالديها فادعها إلى الله! وادع لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار. ولما أَذن له النبي ﷺ في الهجرة إلى الحبشة بعدما ابتلي به من عنت المشركين غضب لهجرته وخروجه الأكرمون من القوم، ولحق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدغنة فقال له: إن مثلك يا أبا بكر لا يُخَرَّجُ ولا يَخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك في دارك..!!

وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش يبلغهم أنه أجار أبا بكر، فعرفوا له جواره وقالوا له: مره فليعبد ربّه في داره يصلي فيها ويقرأ ما يشاء، ولا يؤذينا ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

بيعة أبي بكر

بويع أبو بكر في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله ﷺ، فلم يكد رسول الله ﷺ يودع الدنيا منتقلاً إلى جوار ربه حتى اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالقرب من دار سعد بن عبادة، وتشاوروا فيما بينهم لاختيار خليفة يرعى شؤونهم ويسوس أُمورهم.

وقد تحدث عمر بن الخطاب عن يوم سقيفة بني ساعدة بعد مبايعته بالخلافة فقال: وقد بلغني أن قائلاً يقول: «لو مات عمر بايعت فلاناً» فلا يغترن امرؤ أن يقول: كانت بيعة أبي بكر فلتة، وليس منكم من تُقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، وإنه كان من خيرنا حين توفي رسول الله ﷺ،

اجتمع المهاجرون، وتخلف علي والزبير في بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وتخلف الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فقلت: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم، فلقينا رجلان صالحان من الأنصار فقالا: لا عليكم أن لا تأتوهم وأبْرِموا أمركم.

فقلت: والله لنأتينهم، فأتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون على رجل مزمل[(١)] بالثياب فقلت: من هذا؟

قالوا: سعد بن عبادة مريض.

فجلسنا، وقام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد.. فنحن الأنصار وكتيبة الإيمان، وأنتم معشر المهاجرين رهط منا، وقد دنت إليكم دافة[(٢)]، يريدون أن يختزلونا[(٣)] من أصلنا ويحصنونا[(٤)] من الأمر.

قال عمر: فلما سكت أردت أن أتكلم بمقالةٍ قد كانت أعجبتني بين يدي أبي بكر.

فقال أبو بكر: على رسلك، وكنت أعرف منه الجدّ فكرهت أن أغضبه، وهو كان خيراً مني وأوفر وأوقر، ثم تكلم، فوالله ما ترك كلمة أعجبتني إلاّ قد قالها وأفضل منها حتى سكت، ثم قال: أما بعد... ما ذكرتم من خير فهو فيكم معشر الأنصار، وأنتم أهله وأفضل منه، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح.

قال ـ أي عمر ـ: فما كرهت شيئاً ممّا قاله غيرها، كان والله أن أُقَدَّم

---

(١) مزمل: ملتف في كساء أو غيره.

(٢) الدافة: القوم يسيرون جماعة سيراً ليس بالشديد.

(٣) يختزلونا: يقطعونا.

(٤) يحتضنونا: يخرجونا.

فتضرب عنقي لا يقرّبني ذلك إلى إثم أحبَّ إلي من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر، إلاّ تتغير نفسي عند الموت.

فقال رجل من الأنصار ـ هو الحباب بن المنذر ـ: أنا جذيلها المحكك[1]، وعُذَيْقُها المُرَجَّب[2]، منا أمير ومنكم أمير معشر المهاجرين.

قال ـ أي عمر ـ: وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف، فقلنا: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون وبايعه الأنصار، ونزوا[3] عن سعد بن عبادة، فوالله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً أوفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن نحن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما خالفناهم فيكون فساد[4].

وقد ورد الحديث عن الزهري بطوله، فزاد فيه، قال عمر: فلا يعتزل امرؤ أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتَةً فتمَّت، فإنها قد كانت كذلك إلاّ أن الله وقى شرها، فمن بايع رجلاً من غير مشورةٍ فإنه لا يتابع هو ولا الذي بايعه تَغِرَّة أن يقتلا» ـ متفق عليه.

وبعد دفن جثمان الرسول ﷺ، وفي اليوم التالي ليوم السقيفة وقف

(١) أي صاحب الرأي الأول.

(٢) المرجب: أي ورجلهم الشريف.

(٣) تركوه.

(٤) أخرجه البخاري بشرح السندي ٢/٢٩٠، ٢٩١ ولكن من غير طريق الزهري، وأحمد في المسند ١/٥٥، ٥٦ وكذلك ابن هشام في السيرة ٤/٢٦١، ٢٦٢ برواية ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي بكير، عن ابن شهاب الزهري عن عبيد اللّه بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن عبدالله بن عباس، عن عبدالرحمن بن عوف.
ورواه الطبري في تاريخه ٣/٢٠٥، ٢٠٦ عن الزهري عن عبدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس، والبلاذري في أنساب الأشراف ١/٥٨٣، ٥٨٤، واليعقوبي في تاريخه ٢/١٢٣، والنويري في نهاية الأرب ١٩/٢٩ ـ ٣٣، وابن كثير في البداية والنهاية ١/٢٤٥، ٢٤٦، والسيوطي في تاريخ الخلفاء ٦٧ ـ ٦٨، ومناقب عمر لابن الجوزي.

أبو بكر يعلن سياسته، ويبين للناس طريقه الصحيح ليكونوا منها على بينة، فخطب قائلاً: أحمد الله وأثني عليه، أيُّها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم(١).

ومنذ ذلك اليوم نشأت نظرية الخلافة عند المسلمين.

وفي شأن الخلافة، اختلفت الأقوال، وتحدث المغرضون، وقالوا أقوالاً كثيرة، واتخذوا بعض الروايات بل أشهر الروايات عن مرض النبي ﷺ واستخلاف أبي بكر، اتخذوها غرضاً وعرضاً للمحاولة في فت عضد الإسلام والمسلمين.

فيقول أحد الذين اهتموا بتحليل هذه الروايات(٢): ففي رواية من أشهر الروايات عن مرض النبي ﷺ أن مؤذنه بلالاً جاء يوماً وقد اشتد به المرض، فقال عليه السلام: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إنّ أبا بكر رجل أسيف(٣)، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع النّاس، فلو أَمرت عمر؟

فقال عليه السلام مرة أخرى: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

فعادت عائشة تقول لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر؟

فأعادت حفصة رضي الله عنها ما قالته لها عائشة.

وضجر عليه السلام من هذه المراجعة، فقال: «**إنكن أنتن صواحب يوسف**».

---

(١) تاريخ الطبري ٢٠٦/٣، ٢٠٧.
(٢) العقاد في عبقرية الصديق.
(٣) حزين.

ثم قال لثالث مرة: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»**.

وروي عن عبدالله بن زمعة أنّه خرج من عند النبي ﷺ، فإذا عمر في المسجد وأبو بكر غائب، فقال: يا عمر قم فصل بالنّاس.

فتقدم فكبر وكان رجلاً جهوري الصوت، فلما سمع رسول الله ﷺ صوته سأل: **«فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون»**.

ولام عمر رضي الله عنه عبدالله بن زمعة قائلاً: ويحك، ما صنعت بي يا ابن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلاّ أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالنّاس.

قال ابن زمعة: والله ما أمرني رسول الله ﷺ بشيء، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالنّاس.

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي ﷺ بإقامة أبيها مقامه في الصلاة، وقد ذكر الأمر أكثر من مرة.

فهذا التردد عجيب من وجوه:

- عجيب أن تتردد في تبليغ أمر محمد عليه السلام، وهو الزوج المحبوب والنبي المطاع.

- وعجيب أن تتردد في تبليغه، وهو تشريف لأبيها بمقام كريم تتطاول إليه الرقاب.

- ويزيده عجباً أن يحدث في شدة المرض والنبي مجهد يطلب الراحة، وهي أشد نسائه سهراً عليه في مرضه، وأرعاهم له بما يريحه، ويخفف الجهد عنه.

نعم إن عائشة رضي الله عنها كانت أكثر الناس دالة على النبي وأجرأهم على مراجعته، والتلطف في إبلاغه بما يتهيب القوم أن يبلغوه،

فلئن كانت هي أولى النّاس أن تطيعه وتبلغ أمره، لقد كانت كذلك تعلم من مكانتها عنده ما يبيح لها أن تراجعه وتأمن غضبه، لدالتها عليه وثقتها من مضمر حبها له وامتثالها لأمره.

إلا أنها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله ﷺ بما لها من صفات كثيرة غير الصباحة والجمال، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير.

وما نحسب أن شيئاً حفظته الروايات التاريخية لنا عن ذكاء السيدة عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء، كما دل عليه ترددها في إبلاغ أبي بكر في ذلك اليوم العصيب[١].

ويتناول العقاد يوم السقيفة بتحليل هو أقرب للواقع فيقول: يكفي أن نستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبي عليه السلام لنعلم مبلغ ذلك الذكاء العجيب في مقتبل الشباب، ونكبر ذلك النظر الثاقب إلى أبعد العواقب، ونلتمس لعائشة القدر الذي يجمل بامرأة أحبها محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الإعزاز.

فقد قيل في الخلافة بعد النبي الكثير:

قيل فيها ما يخطر على بال الأكثرين، وما يخطر على بال الأقلين، وما لا يخطر على بال أحد أن يجمع به التعنت والاعتساف أغرب حجاج.

قيل: إن وصول الخلافة إلى أبي بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة وأبيها.

وقيل: إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على ما تآمروا فيه، بما كان لها من الحظوة عند رسول الله، وكان هؤلاء الرجال على زعم أولئك القائلين: أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح، وهم الذين أسرعوا - من المهاجرين - إلى سقيفة بني ساعدة ليدركوا الأنصار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله ﷺ.

---

(١) عبقرية الصديق - العقاد.

وقيل: إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقب الحكم واحداً بعد واحد: أبو بكر فعمر فأبو عبيدة، ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة: لو كان أبو عبيدة حيًّا لعهدت إليه لأنه أمين الأُمة، كما قال فيه رسول الله ﷺ.

وهذا زعم روّجه بعض المستشرقين، ولقي بين القراء الأوروبيين كثيراً من القبول، لأنه شبيه بما عهدوه في أمثال هذه المواقف من أحاديث التدبير والتمهيد، وروايات التواطؤ والائتمار.

فالسيدة عائشة مسعودة الحظ لا مراء، لأنها لم تخالف محمداً قط في أمر من أخطر الأمور، وحين خالفته أو ترددت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأمور، كان هذا التردد في: «**مروا أبا بكر فليصل بالنّاس**».

كان هذا التردد أدل على مكانتها وفضلها وعلى استحقاقها لمنزلة الإيثار في ذلك القلب العظيم.

فهي ترددت لتبرىء نفسها من القالة، وتبرىء ذلك الموقف الخطير من المظنة، وتبرىء الخلافة من أسباب الادعاء، وقد يكون فيها أضغان وإيذاء، وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير: حفصة بنت عمر رضي الله عنها. فإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله ﷺ مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصل بالناس، فقد علمت ذلك من هي أحق بعلمه من سائر الأمهات ـ أمهات المسلمين ـ، إذ كان عمر رضي الله عنه أحد اثنين في حق الخلافة لا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر، كما ظهر ذلك من واقع الأمور، أو كما ظهر من قول عبدالله بن زمعة لعمر: «حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس».

فتردد عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع، وكان أنفع من إسراعها بالتبليغ، وأول ما نفع به أنه أظهر رغبة النبي ﷺ إظهاراً لا مجال للظّنَّة فيه، فكان ذلك من أدعى دواعي الاتفاق على الاختيار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق.

ويواصل العقاد تحليله الرائع فيقول[1]: نعم إن رواية من الروايات

---

(١) المصدر السابق.

تزعم لنا أن السيدة عائشة رضي الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشفقت أن يتشاءم الناس برؤية أبيها في مقام يذكرهم بالخطر على أحب النّاس. إليهم في ذلك المقام، وتلك سانحة يجوز أن تسنح لها وهي أشد الناس إحساساً بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين، ولكننا إذا سلمنا أنها رضي الله عنها قد تعمدت الإبطاء في التبليغ، فالسبب الذي أومأنا إليه آنفاً أولى وأليق بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم.

لأنها لا تجهد النبي ﷺ في مرضه، ولا تفوت على أبيها شرف الخلافة حذراً من التشاؤم وحده، ثم هي لا تدعو حفصة إلى تعريض عمر لموقف تصون عنه أباها، فإن كان تعمد للإبطاء في التبليغ فذلك السبب الذي أومأنا إليه آنفاً أحق الأسباب أن يرجح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء، فهو أدعى أن يبطل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يقترن بغيره من الأسباب.

ويقل العجب من تردد السيدة عائشة، كلما ازداد العجب من تلك الفروض والأقاويل التي خاض فيها من خاض عن ما يسمى «بمؤامرة» الخلافة المزعومة، وليس لها سند في التاريخ، ولا من التفكير القويم، ولا من المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عزيت إليهم تلك المؤامرة بغير بينة قاطعة ولا ظن راجح.

فليس في شيء رواه الرواة عن الخلافة بعد النبي عليه السلام كلمة واحدة ترجح تلك الفروض والأقاويل، سواء كان قائلها ممن أسرعوا إلى بيعة الصديق أو تباطؤوا في بيعته، أو قضوا حياتهم ولم يبايعوه.

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة التي عهدها الناس منهم في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته ما يأذن لمتوهم أن يتوهم فيهم التآمر على خلافته وهو على قيد الحياة، دون أن يطلعوه على جليلة أو دقيقة مما يفكرون فيه.

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن وليا الخلافة ما ينم على طمع في السطوة، وحرص على زهد الملك، يغريهما باستباحة ثقة النبي ﷺ في

حياته بما لا يليق، وهو عندهما بمكان من التجلة والحب لا تتطرق إليه الشكوك ولا ترتفع إليه الشبهات.

وعلى نقيض ذلك تدل الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع منهم جميعاً موقع المفاجأة التي لم يتدبروا فيها إلاّ بعد وقوعها، ولم يبرموا فيها الرأي على نحو من الأنحاء قبل اجتماع الأنصار بسقيفة بني ساعدة.

فالأقوال تتفق ـ أو تكاد تتفق ـ على أن أبا بكر لم يكن قريباً من النبي عليه السلام يوم أمر النبي ﷺ بلالاً أن يدعوه إلى الصلاة بالناس، ولو كان بينه وبين السيدة عائشة اتفاق في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي ﷺ في تلك اللحظة لازماً كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق، وإلا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين.

وقد توفي النبي عليه السلام وليس من أصحابه الأقربين من كان يتوقع وفاته، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول: يا نبي الله! إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب، واليوم يوم بنت خارجة[1]، أفآتيها؟

فأذن له النبي ﷺ في الانصراف، وخرج أبو بكر إلى «السنح» حيث كان يقيم.

أما عمر فقد دهش لنعي النبي ﷺ تلك الدهشة التي لم يكن لها على أهبة، ولو كان على أهبة لها لقد كان الأحرى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها، تمهيداً لذلك الاتفاق المزعوم الذي سيتلوها.

وبلغ أبا بكر وعمر أن الأنصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة منهم، فخرجا إلى السقيفة على غير اتفاق بينهما، أيهما الذي يخاطب القوم، فكان عمر يخشى حِدَّة أبي بكر يهيء في نفسه كلاماً يقوله، وكان أبو بكر يخشى حدة عمر فيستمهله ويخاطب القوم قبله، وليس في ذلك دليل اتفاق قديم.

وكان لقاؤهما أبا عبيدة يومئذٍ لقاء مصادفة في الطريق، وجاء في رواية

(١) يقصد زوجته التي تزوجها بالمدينة غير أم رومان وكان سكنها منطقة بأطراف المدينة هي «السنح».

مشهورة أن عمر فاتح أبا عبيدة قبل ذلك فقال له: ابسط يدك فلأبايعك، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ.

فقال له أبو عبيدة: ما رأيت لك زلّة قبلها منذ أسلمت، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين!

فإذا صحت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبي بكر وتعاقب الخلافة بعده، وقد يكون عمر فاتح أبا عبيدة عازماً على مبايعته، أو فاتحه لاستطلاع ما عنده من الرأي والرغبة، فعلى كلتا الحالتين لا تفاهم من قبل على ذلك الرأي ولا اتفاق.

هكذا تلقى الصحاب الأجلاء نعي النبي ﷺ، وهكذا كانوا في أثناء شدة المرض عليه، فمتى كان التفاهم المزعوم؟

أقبل أن يمرض؟ أقبل أن يمرض رسول الله يعقل عاقل أن يجتمع صفوة أصحابه والمؤمنين برسالته للتآمر على وراثته واغتنامه موته؟ إن جاز من عقل عاقل هذا، فمن أدراهم إذن أن القرآن الكريم لا يوحي برأي في الخلافة غير الذي رأوه؟ ومن أدراهم إذن ـ سلفاً ـ أن النبي ﷺ يفارق هذه الدنيا ولا يوصي في الخلافة بوصاة يشهدها الناس عامة وتخالف ما اتفقوا عليه؟

إن الأمر لم يكن قابلاً لأن يحصل فيه غير ما حصل، بعد حسبان كل حساب، واستقصاء كل فرض، وتمحيص كل رواية.

ولم يكن فيه اتفاق مدبر على صورة من الصور، وإنما هو كما قال عمر رضي الله عنه: ـ «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة.. ألا وإن الله وقى شرها».

وما حاجة الأمر إلى تمهيد وقد كان في غنىً عن التمهيد؟

لقد كان اختيار أبي بكر للخلافة «خيرة» الواقع الذي لا يحتاج إلى تدبير، بل يقاوم كل تدبير.

فَمَنْ غير أبي بكر كانت تجتمع له الشرائط كما اجتمعت له، وتتلاقى عنده الوجهات كما تلاقت عنده؟

كانت تجتمع له شرائط السن، والسبق إلى الإسلام والصحبة، والمودة المرعية بين أجلاء الصحابة، ومعظمهم ممن دخلوا الدين على يديه[1].

وكانت أمارات استخلاف أبي بكر ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبي عليه السلام بسنوات، فكان أول أمير للحج بعث به النبي عليه السلام وهو بالمدينة، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، واتفق في طريقه أنه دعا إلى صلاة الصبح فسمع رغوة ناقة وراء ظهره، فوقف عن التكبير وقال: هذه رغوة ناقة النبي ﷺ ـ الجدعاء ـ فلعله أن يكون رسول الله فنصلي معه، فإذا علي بن أبي طالب على الناقة.

فسأله أبو بكر: أمير أم رسول؟

قال: لا، بل رسول، أرسلني رسول الله ﷺ ببراءة[2] أقرؤها على الناس.

فلما قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدثاً عن المناسك، وقرأ علي سورة براءة حتى ختمها، ثم كان يوم عرفة فخطب أبو بكر وقرأ علي السورة، وهكذا انتهت المناسك.

وأثبت البخاري عن جبير بن مطعم أن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك... كأنها تريد الموت.

قال: «**إن لم تجديني فأتي أبا بكر**».

ذلك وغيره ما يدل على صدق استخلاف الصديق رضوان الله عليه.

مصدر قوته رضي الله عنه

بدأ أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ يمارس مهامه كخليفة تولى أمر المسلمين، ولم يكن بد للصديق من السعي لرزق عياله، وخاصة بعد أن

---

(١) عبقرية الصديق ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) سورة براءة «التوبة»، انظر: سيرة ابن هشام جـ ٤ حج أبي بكر، وكذلك الرحيق المختوم، وتاريخ الإسلام للذهبي جزء «عهد الخلفاء الراشدين».

أنفق كل ما يملك في سبيل الله، فذهب إلى السوق يبيع ويشتري، فلقيه عمر وأبو عبيدة فراجعاه في ذلك وذكّراه بأن مهمته تستوجب التفرغ الكامل لمصالح المسلمين، وبالتالي فإن من واجب المسلمين أن يؤمنوا له رزقه ورزق عياله.

وقد سكن الصديق رضوان الله عليه في منطقة بالمدينة تسمى «السنح» ستة أشهر بعد استخلافِهِ، يغدو على رجليه أو راكباً إلى المدينة فيصلي بالنّاس، ويغدو إلى السوق كل يوم فيبيع ويبتاعُ، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح، ثم نزل إلى المدينة، فأقام بها، ونظر في أمره فقال: لا والله ما يصلح أمر النّاس بالتجارة، وما يصلح لهم إلا التفرغ.

ولكن لا بد لعياله مما يصلحهم، فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم.

هكذا كانت بداية الخلافة لأبي بكر الصديق إجماعاً على بيعته، وتفرغاً لأمر المسلمين فبدأ خلافته في جهاد المرتدين ممن ضعف إيمانهم بعد وفاة النبي ﷺ فارتدوا عن الإسلام.

بعث جيش أسامة بن زيد

ما إن مات رسول الله ﷺ، حتى أطل النفاق برأسه من مكة والمدينة، وقد أصبح المسلمون وكأنهم طير اهتزت أعشاشها من الريح العاصف والمطر الهاطل لفقد نبيهم، وقلة عددهم، وكثرة أعداء الإسلام، وقد تسابقت القبائل على الارتداد بعضُها أو كُلُّها.

كل هذه الأحداث شخصت واشرأبت أعناقها، بينما كان أسامة يستعد للخروج، وقد أعد جيشه بأمر رسول الله ﷺ، ولكن الأحداث التي ظهرت عقب وفاة الرسول ﷺ جعلت الآراء والأصوات تتعالى بالقول: إن حماية المدينة الآن أصبح لضرب النفاق وأصحاب القلوب المريضة، فكان بعض الصحابة من الأنصار على هذا الرأي، ووسطوا عمر بن الخطاب عند الصديق كي يأخذ بهذا الرأي، ويفاجأ عمر بردٍّ عنيف من صاحبه أبي بكر،

فقد وثب من مجلسه وأخذ بلحية الفاروق وهو يقول له: ثكلتك أُمك يا ابن الخطاب!! استعمله رسول الله وتأمرني أن أنزعه!!

وكان أسامة موضع اعتراض أيضاً كقائد لجيش المسلمين ولصغر سنه، مما حدا بأبي بكر أن يقول كلماته التي قالها.

ولكي يؤكد الصديق إصراره على تنفيذ ما أراده رسول الله ﷺ، خرج إلى منطقة تسمى الجرف خارج المدينة ليشيع المجاهدين، فأتى معهم ماشياً، وأسامة راكباً دابته، فألح أسامة على الخليفة بالركوب فأبى، وهمّ أُسامة بالنزول ليساوي بينه وبين الصديق، فأقسم الصديق أنّه لن يركب وأن أسامة لن ينزل، ثم جعل يوصيه قائلاً: يا أسامة، اصنع ما أمرك نبي الله ببلاد قضاعة، ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ.

ثم وقف خطيباً في الجيش كله فقال: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً، وإذا لقيتم قوماً محضوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما محضوا عنه(١).

استبقى الصديق عمر بن الخطاب معه ليعاونه في شؤون الدولة مستأذناً أسامة بحكم قيادته للجيش وتأميره عليه.

أليس في هذه الوقعة الالتزام الشديد من خليفة رسول الله بما أمر به رسول الله ﷺ.

وانطلق جيش أُسامة وقد بلغ سبعمائة مقاتل من المجاهدين، وبذلك أنفذ الصديق أمر رسول الله ﷺ، وحققت هذه المهمة نتائج عظيمة جعلت هؤلاء الذين في قلوبهم مرض يفكرون جيداً قبل ارتدادهم.

ومشى جيش أسامة قرابة السبعين يوماً، فهزم مرتدي قضاعة وغيرهم،

---

(١) الكامل في التاريخ جـ ٣، تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين، مشاهد من حياة الصديق، محمد المجذوب، دار المعرفة ط ٢ سنة ١٩٧٦ ص ١٥١، ١٥٢.

وقد كانت النتيجة رائعة لإنفاذ هذا الجيش، فقد ألقى الرعب في قلوب هؤلاء الذين ظنوا أن وفاة الرسول ﷺ قد أنهت المسلمين، وتثبيت تلك الهيبة العظيمة التي اكتسبها المسلمون في معاركهم العظيمة يوم بدر وأُحدٍ وغيرها من المشاهد العظيمة.

ولم يخسر المسلمون شهيداً في هذه الرحلة المباركة، وعادوا سالمين غانمين، وأصبحت المدينة موضع مهابة واحترام كما كانت في حياة النبي صلوات الله وسلامه عليه.

ولكن النفوس المريضة من القبائل والأعراب هنا وهناك اشرأبت أعناقها، وظنت أنه بإمكانها الانقضاض على المدينة، واقتلاع جذور الإسلام على حد زعمهم والتوقف عن دفع الزكاة وإقامة حدود الله التي حدّدها لهم الشرع ورسول الله ﷺ.

أبو بكر والرّدة

بعد أن مات رسول الله ﷺ، ولم يكد أبو بكر يتولى أمر المسلمين بعد انعقاد البيعة له حتى واجهته ردّة عاتية، وانتفضت جزيرة العرب تناهض المسلمين وتعلن خروجها عن دين الإسلام، وظهر المتنبئون والتف حولهم رجال من ذوي المصالح الشخصية المليئة بالحقد على الإسلام والمسلمين، كل ذلك طمعاً في الجاه والسلطان.

وممن تنبأوا طليحة الأسدي في بني أسد، وانضمت إليه غطفان ومن والاها، وطليحة الأسدي كان واحداً من وفد بني تميم الذين قدموا على النبي ﷺ؛ أسلم هو وأخوه سلمة، ثم ادَّعى النبوة، ترى ما هي قصة طليحة الأسدي؟

يوم ذي القصّة

اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة بن خويلد الأسدي[1] إلا ما

(١) انظر هذه الأحداث في: تاريخ الطبري ٢٢٧/٣، وابن خلدون ٦٥/٢.

كان من بعض خواصّهم، واجتمعت أسد بسميراء وهو موضع في طريق مكة، وغطفان بجنوب المدينة، وطيء على حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من عبس ومرة بالأبرق من الربذة، واجتمع إليهم ناس من هنا وهناك، وافترقوا فرقتين: أقامت فرقة منهم بأبرق الربذة وهو موضع قرب المدينة، وسارت الأخرى إلى ذي القصة[١]، وأمدهم طليحة الأسدي بابن أخيه ابن سلمة بن خويلد وجعله أميراً عليهم، وهناك أرسلوا وفداً منهم إلى المدينة، ونزلوا على وجوه الناس، ثم تحملوا بهم واتجهوا بهم إلى أبي بكر، وحمل وفدهم شرطاً لأبي بكر جاء فيه: أن يقيموا الصلاة، على ألا يأتوا الزكاة، فرفض أبو بكر شروطهم وقال: والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه.

فرجع القوم إلى أقوامهم بذي القصة، وأخبروهم برأي أبي بكر وقالَته فيمن يمنع الزكاة، وحدّثوهم عن قِلّةِ المسلمين بالمدينة، وأطمعوهم فيهم.

أما أبو بكر فإنه توجس شرّاً منهم فأَعدَّ العدّة لِغدرهم، وجعل على طرقات المدينة رجالاً منهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد اللّه، وعبداللّه بن مسعود، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، وقال لهم: إنَّ القوم رَأَوْا منكم قِلّة، وإنكم لا تدرون أليلاً تُؤْتَون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد (أي على مسافة اثنا عشر ميلاً) وقد كانوا يأملون أن نقبل منهم[٢] ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عَهْدَهم فاستعدوا وأعدوا.

ولم يكن إلا ثلاث ليال من عود الوفد حتى طوق القوم المدينة مع الليل، وخلّفوا بعضهم بذي حسا وهي بالقرب من ديارهم (وذو حسا موضع بنجد)، ليكونوا لهم عوناً ومدداً، وكان الذين على الأنقاب قد بثّوا عيونهم حتى لا يؤخذوا على غِرَّة، فلما عرف هؤلاء خبر القوم نبهوا من على

---

(١) موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً.

(٢) كانوا يريدون أن يقبل منهم أبو بكر إقام الصلاة والامتناع عن الزكاة.

الأنقاب، فأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، فأرسل إليهم أبو بكر؛ أَنْ الزموا أماكِنكم، ففعلوا.

وخرج في أهل المسجد على الإبل، فتقهقر العدو، فأتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حسا فخرج عليهم رجال المدد والعون ومعهم قرب قد نفخوها وربطوها بالحبال ودحرجوها بأرجلهم في وجوه الإبل، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها، ولا تنفر الإبل من شيء نِفارها من القرب المنفوخة، فرجعت بهم، ولم يستطع المسلمون أن يوقفوا إبلهم الخائفة حتى دخلت بهم المدينة، من غير أن يصاب أحدٌ من المسلمين أو يصرع، ولكن هؤلاء الأعداء المرتدين ظنوا أن بالمسلمين ضعفاً، وأنه قد أصابهم وهن فعلاً، وأنهم حقاً في موقف ضعيف كما جاءتهم الأخبار حتى أن شاعرهم أنشد يقول:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا	فيا لعباد الله ما لأبي بكر!
أيورثُنا بكر إذا مات بعده!	وتلك لعمر الله قاصِمةُ الظهر!
فهلا رددتم وفدنا بزمانه	وهلا خشيتم حسَّ راغبةِ البكر!
وإن التي سألوكم فمنعتم	لكالتمر أو أحلى إلي من التَمْرِ

ثم أرسلوا لأقوامهم بالخبر، فقدموا إليهم لنجدتهم.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه بات ليلته يتهيأ، فعبَّأ الناس وجهز رجاله، ثم خرج وعلى ميمنته النعمان بن مقرن المزني، وعلى ميسرته عبداللّه بن مقرن المزني، وعلى مؤخرة جيشه سويد بن مقرن، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد يتقاتلون، فاقتتلوا، وما إن طلعت الشمس حتى ولى العدو الأدبار، وقتل حبال بن سلمة ابن شقيق طليحة الأسدي، وتبعهم أبو بكر ورجاله حتى نزل بذي القصة، فتركوها وولوا منهزمين، ورجع أبو بكر إلى المدينة، فكان أول الفتح وفاتحة الجهاد مع المرتدين.

ولم يكد أبو بكر يذهب إلى المدينة حتى وثب المرتدون من عبس

وذبيان على من فيهم من المسلمين، فقتلوهم، ولما علم أبو بكر بفعلتهم حلف ليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة.

وكان لهذه الوقعة ـ وقعة ذي القصة ـ أثرها، إذ هرع بعدها فريق من المسلمين يؤدون الزكاة، وطرقوا المدينة بالصدقات، وكان فيمن طرقوا المدينة بالزكاة والصدقات: صفوان بن أمية، والزبرقان من رؤساء بني تميم، وعدي بن حاتم عن قبيلة طيء[1].

حروب الردة

يوم بزاخة

عاد أسامة بن زيد من غزوته، وما إن وصل المدينة حتى استخلفه أبو بكر عليها وقال له ولجنده: أريحوا، وأريحوا ظهركم[2]، ثم خرج إلى ذي القصة؛ فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرّض نفسك، فإنَّك إن تُصَبْ لم يكن للناس نِظَامٌ، ومقامُك أشدُّ على العدو، فابعث رجلاً، فإن أُصيب أمَّرت آخر.

فقال: لا والله لا أفعل، ولَأُواسينكم بنفسي، ومضى حتى انتهى إلى موضع قرب المدينة يقال له: الربذة، فلقي بني عبس وذُبيان وجماعة من بني عبد مناة من كنانة، فقاتلهم وهزمهم، وأجلاهم عن مواقعهم، ثم رجع إلى المدينة.

ولكن هؤلاء المنهزمين لم يتوبوا إلى رشدهم، ولم يرجعوا لإيمانهم، بل انحازوا إلى طليحة بن خويلد المتنبىء في بني أسد، وقد اعتصم ببزاخة يدعو الناس إليه.

ولما اطمأن أبو بكر إلى أنَّ أُسامة وجنده استراحوا وأراحوا ظهرهم، خرج بهم إلى ذي القصة، ووزع الجند، وجعل على كل لواءٍ أميراً:

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٢٣ وما بعدها.

(٢) الظهر: الدابة من خيل وإبل.

- فعقد لخالد بن الوليد اللواء الأول، وأَمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح (وهي ماء بديار بني أسد) إن أقام له.

- وعقد لعكرمة بن أبي جهل لواءً، وأمره بمسيلمة الكذاب باليمامة.

- وعقد للمهاجر بن أمية، وأمره بقتال الأسود العنسي بصنعاء اليمن، وأن يمضي إلى كِندة بحضرموت.

- وعقد لواءً لخالد بن سعيد ووجهه إلى الشام.

- وجعل اللواء الخامس لعمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة.

- وجعل اللواء السادس لحذيفة بن محصن الفلغاني وأمره بالتوجه إلى أهل دبا بعمان.

- واللواء السابع للعلاء بن الحضرمي وأمره بالتوجه إلى البحرين.

- واللواء الثامن لسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن.

- واللواء التاسع لشرحبيل بن حسنة وبعثه في أثر عكرمة بن أبي جهل ليساعده في اليمامة، وقال له أبو بكر: إذا فرغت من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك.

- واللواء العاشر لطريفة بن حاجر ووجَّهه إلى بني سُلَيم ومن معهم من هوازن.

- واللواء الحادي عشر لعرفجة بن هرثمة ووجهه إلى أهل مُهَرة.

ثم كتب لكل منهم، أي لكل قائد جيش من الجيوش الأحد عشر كتاباً وعهداً، هذا نصه: هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه؛ لقتال من رجع عن الإسلام؛ وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله، سره وعلانيته، وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يُعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شَنَّ غارته عليهم حتى يَقِرُّوا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما

عليهم ويعطيهم الذي لهم، لا ينظرهم (أي لا يؤخرهم)، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل، وأقر له؛ قبل ذلك منه، وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإن أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب داعية الله قُتِلَ وقوتِل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه، وأقرَّ قبلَ منه، ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله قَتَل منهم من قَتلَهُ بالسلاح والنيران، ثم قسَّم ما أفاء الله عليه، إلاّ الخمس فإنه يبلِّغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألاّ يدخل فيهم حَشْواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السَّير والمنزل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم على بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول(١).

هذا ما كتبه أبو بكر لقادة جيوشه، فأوصاهم فيها وأمرهم بأخلاق الإسلام في التعامل مع الأعداء.

أما المرتدين أنفسهم فقد كتب لهم كتاباً مطوّلاً جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه.

سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، نُقِرُّ بما جاء به، ونُكَفِّرُ من أبى ونجاهده.

أما بعد.. فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خَلْقِه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسِراجاً منيراً، لينذر من كان حيًا ويحق

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٦٦/٣، والطبري ٢٢٥/٣٢ وما بعدها.

الحقَّ على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً.

وقد توفي رسول الله ﷺ، وقد نَفَّذ أمر الله، ونصح لأُمته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بيَّن له ذلك، ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له، فإن الله له بالمرصاد، حي قيوم لا يموت، لا تأخذه سِنَة ولا نَوم، حافظاً لأمره، منتقم من عدوِّه يخزيه، وإني أوصيكم بتقوى الله وحظِّكم ونصيبكم من الله، وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهُداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضالٌّ، وكلُّ من لم يُعافِه مُبْتَلَى، وكل من لم يعنه مخذول، فمن هداه الله كان مهتدياً، ومن أضله كان ضالاً، قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، ولم يقبل منه في الدنيا عمل، حتى يقربه، ولم يقبل منه في الآخرة صرف[1] ولا عدل.

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغتراراً، وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار، والتابعين

---

(١) الصرف: التوبة، والعدل. الفدية.

بإحسان، وأمرته ألاً يقاتل أحداً ولا يقتله، حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر، وكفّ وعمل صالحاً قَبِلَ منه، وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يُحَرِّقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يَسْبِيَ النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن اتبعه فهو خيرٌ له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإن أَذَّن المسلمون فأذنوا كفُّوا عنهم، وإن لم يؤذِّنوا عاجَلوهم، وإن أَذَّنوا سألوهم ما عليهم، فإن أَبوْا عاجَلوهم، وإن أقرُّوا قَبل منهم وحَملهم على ما ينبغي لهم.

ثم سبقت الرسل بهذا الكتاب أمام الجنود، وخرج أمراء الجيوش ومعهم العهد الذي كتبه أبو بكر لهم، يبين لهم كيفية التعامل مع المرتدين وأصولها قبل بدء معارك الردة، فبين الأمر لقادة جيوشه ولعامة الناس.

وكان طليحة الأسدي هذا قد ارتد في حياة الرسول ﷺ، وادعى النبوة، فوجه النبي ﷺ ضرار بن الأزور إلى عُمّالِه على بني أسد يأمرهم بالقيام على كل مُرتد، فخرج هؤلاء المسلمون مع ضِرار، ونزلوا بموضع قرب مكة يقال له: «واردات» ونزل طليحة ومن معه سميراء، وما زال المسلمون في نماء وتكاثر، والمشركون في نقصان، وضعف أمر طليحة، حتى لم يبق إلا أَخْذُهُ، فضربه ضِرارُ بالسيف فلم يصنع فيه شيئاً، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه، وكثر الناس حوله.

ومات النبي ﷺ وهم على ذلك، فكان طليحة يقول: إن جبريل يأتيني، وأخذ يسجع بالأكاذيب، وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول: إن الله لا يصنع وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئاً، اذكروا الله واعبدوه قياماً، فتبعه من العرب كثير، بعضهم عن غفلة، وبعضهم عن عَصَبيَّة، ولذلك كَثُر أتباعُه من أَسَد، وأحلافهم في طيىء وغطفان، وقام عيينة بن حصن الفزاري يقول: لأن نتبع نبيًا من الحليفين: أسد وطيء، أَحَبُّ إلينا من أن نتبع نبيًا من قريش.

وقد رُوي أنه كان بين أسد وغطفان وطيىء حلف في الجاهلية، فلما كان مبعث النبي ﷺ اجتمعت غطفان وأسد على طيىء فأزاحوها عن دارها في الجاهلية؛ غوثها وجديلتها، ثم عادوا بعد ذلك إلى حلفهم[1].

فلما كان يوم القصة، وهُزِمَتْ غطفان، وكانوا قد قتلوا المسلمين غدراً، خافوا على أنفسهم، فذهبوا إلى البُزاحة، حيث انضموا مع إخوانهم إلى طليحة.

فلما أحس طليحة بمقدم خالد أرسل إلى جديلة والغوث من طيىء يأمرهم باللحاق به، فتعجل إليه بعضهم، وأمروا قومهم باللحاق بهم.

وكان أبو بكر قد بعث عدي بن حاتم الطائي قبل مسير خالد إلى قومه، وقال له: أدركهم وخَذِّلهم عن طليحة.

فذهب إلى الغوث وأخذ يخذلهم، ويدعوهم إلى الجماعة، فقالوا: لا نبايع أبا بكر أبداً.

فقال: لقد أتاكم قوم ليبيحُنَّ حَريمَكم، ولتكُنُّنه بالفحل الأكبر، فشأنكم به.

فقالوا له: فاستقبل جيش أبي بكر فنهنه عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاحة مِنّا، فإنّا إن خالفنا طُليحة وهم في يديه قتلهم أو أخذهم رهائن.

فاستقبل عدي بن حاتم الطائي خالداً وهو بالسنح قرابة منزل أبي بكر بالمدينة، فقال: يا خالد؛ أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوّك، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار، وتتشاغل بهم، ففعل خالد واستجاب له.

فعاد عدي إليهم، وقد أرسلوا إخوانهم إليهم، فآتوهم من بزاحة كالمدد لهم، وعاد عديّ بإسلامهم إلى خالد.

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣.

وأَعدَّ خالد نفسه ليرتحل إلى جديلة بماء لطيىء قرب الجبلين يسمى الأنسر، فقال له عدي: إن طيئاً كالطائر، وإن جَديلة أحدُ جناحي طيىء، فأجِّلْنِي أياماً، لعلَّ الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث، ففعل، فأتاهم عديّ، فلم يزل بهم حتى بايعوه، وَدَعوا قومهم من البزاحة، وجاء عديّ إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألفُ راكب، فكان عدي خير مولود وُلِدَ في أرض طيىء، وأعظمهم عليهم بركة(١).

وسار خالد بالنّاس، حتى إذا دنا من القوم بعث عكاشة بن مِحْصَن، وثابت بن أقرم طليعة، فلقيا حِبالاً أخا طليحة، فقتلاه، فلما بلغ مقتله طليحة خرج مع أخيه الآخر ينظران ويسألان، فأم سلمة فلم يمهل ثابتاً حين رآه أن قتَلَه، وثبت عكاشة لطليحة، فلما رأى طليحة أنّ أخاه فرغ من ثابت، استعان به على عكاشة فقتلاه ثم رجعا.

وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلاً، فكبر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعاً، فجزع لذلك المسلمون وقالوا: سيدان من سادات المسلمين، وفارسان من فرسانهم.

ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع، فآثر ألاَّ يواجه بهم عدَّوهم حتى تطمئن نفوسهم، فسأل عديًا: ما الرأي؟

فقال: الرأي أن تسير إليّ فتقيم عندي أياماً في طيىء، حتى أبعث إلى كل قبائلها، فأجمع لهم منهم أكثر مما معك، ثم أصحبك إلى عدوّك.

فانصرف معه حتى أقام بطيىء أياماً، ثم خرج إلى قتال طُليحة وقومه من بني أسد وأحلافه من غطفان.

قال له رجال من طيىء: نحن نكفيك غَطَفَان، فإنَّ أسداً من أحلافنا.

فقال خالد: والله ما بغطفان بأوهن، اصمدُوا إلى أي القبيلتين أحببتم.

---

(١) المصدر السابق.

فقال عدي بن حاتم: لو ترك هذا الدين أُسرتي، الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه، فأنا أمتنع من جهاد بني أسد لحلفهم! لا لعمر الله، لا أفعل.

فقال له خالد: إن جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك، امض إلى أحد الفريقين، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط.

واقتتل الجيشان، وكان عيينة بن حصن هو الذي يقود المعركة في جيش طليحة، في سبعمائة من بني فزارة، في الوقت الذي كان طليحة فيه يقيم متلففاً في كساء له بفناء بيت من الشعر يتنبأ لهم والناس يقتتلون، فلما هزَّت عيينة الحرب، واشتد عليه القتال، كر على طليحة في خيمته وقال له: هل جاءك جبريل بعد؟!

قال طليحة: لا.

فرجع عيينة بن حصن فقاتل حتى طحنه القتال، واشتدت عليه الحرب، ثم كر عليه فقال: لا أبا لك، أما جاءك جبريل بعد!

قال: لا والله.

قال عيينة: حتى متى: قد والله بلِغَ منا!

ثم رجع إلى ميدان القتال فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه، فرجع إلى طليحة فزعاً يكرر عليه: هل جاءك جبريل بعد؟!

قال: نعم.

قال: فماذا قال لك؟

قال: إن لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه.

قال عيينة بن حصن: أظن أن قد علم الله أنّه سيكون حديث لا تنساه! انصرفوا يا بني فزارة، فهذا والله كذاب!

فانصرفوا، وانهزم الناس وجاؤوا لطليحة يقولون: ماذا تأمرنا؟

فوثب على فرسه، وحمل امرأته النوار، وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت، وينجو بأهله فليفعل، ثم لحق بالشام.

وقد روي أن عيينة بن حصن أسر وقدم به إلى المدينة، فحقن أبو بكر دمه، وخلَّ سبيله، وقال بعضهم: إنه دخل حياً فاغتسل، وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة، ومضى إلى مكة وجاء مسلماً[١].

وأقام طليحة في بني كلب في الشام، ثم عاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائل التي ارتدت وبايعته قد عادت إلى الإسلام وإلى الدين القيم والشريعة السمحة.

وخرج بعد ذلك معتمراً في خلافة أبي بكر الصديق، فمر بجنبات المدينة، فذكر بعض المسلمين لأبي بكر مكانه.

فقال أبو بكر: ما أصنع به، خَلُّوا عنه، فقد هداه الله للإسلام[٢].

ارتداد مالك بن نويرة وبطون بني تميم[٣]

جعل رسول الله ﷺ على بطون بني تميم أمراء فرّقهم فيهم، فمثلاً جعل على الرِّباب وعدن والأنبار جعل عليهم الزبرقان بن بدر أميراً، وجعل قيس بن عاصم أميراً على مقاعس والبطون من بني تميم، وجعل على بني حنظلة وهي بطن من بطون بني تميم، جعل عليهم أمراء هم: صفوان بن صفوان، وسبْرة بن عمرو، وعلي بن عمرو وهم بطن من حنظلة من بني تميم أيضاً، أما حنظلة فكان عليها مالك بن نويرة، ووكيع بن مالك.

---

(١) ياقوت في معجم البلدان.

(٢) ولما استخلف عمر جاء طليحة ليبايعه ولكن عمر رفض قبول البيعة منه، وقال له: أنت قاتل عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما تقول في رجلين أكرمهما الله على يدي أَيَهنّي بأيديهما، فسكنت ثائرته وقبل بيعته وعاد طليحة فاقام في قومه حتى خرج من حروب العراق مع المسلمين وأبلىٰ بلاءً حسناً.

(٣) انظر هذه الأحداث في تاريخ الطبري ٢٤١/٣، والكامل لابن الأثير ١٧٣/٣، البداية والنهاية ٣٢٢/٦، الإصابة ٤٠/٦.

ولما مات النبي ﷺ ووُلّي أبو بكر اختلف هؤلاء حول الزكاة، فهل يؤدون الزكاة لأبي بكر كما كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ؟؟ أم يقسمونها في الناس؟

وكان فيمن أدى الزكاة لأبي بكر الصديق كما كان يؤديها لرسول الله ﷺ صفوان بن صفوان.

أما مالك بن نويرة[١] فقد منعها في قومه بني يربوع، وهم بطن في حنظلة من تميم.

وبينما القوم في اختلافهم حول الزكاة فجأتهم سجاح بنت الحارث، قد أقبلت من الجزيرة، وكانت سجاح تميمية من بني يربوع، وأخوالها من تغلب من العراق، وقد تزوجت فيهم وأقامت بينهم، ثم تنصّرت فيمن تنصَّر منهم، وكانت تدّعي الكهانة، وتعرف كيف تقود الرجال، فقد كانت صاحبة شخصية قوية، فلما علمت بوفاة النبي ﷺ ادَّعت النبوة، وقدمت إلى قومها من تميم، تريد أن تغزو المدينة، وأن تقاتل أبا بكر.

فلما رأى بنو تميم ـ وهم على اختلافهم ـ لما رأوا عزمها على قتال أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ازدادوا بين الردّة والإسلام اضطراباً؛ ووقفت سجاح في جندها على حدود بني يربوع، وأرسلت إلى زعيمهم مالك بن نويرة تطلب الموادعة، وأنبأته بعزمها على غزو المدينة، فأجابهم مالك بن نويرة إلى الموادعة والمسالمة، ولكنه صرفها عن غزو المدينة، وحرّضها على قتال من اختلف معه من أحياء بني تميم، واقتنعت سجاح برأيه وقالت: نعم، فشأنك بمن رأيت، فإنّي إنما أنا امرأة من بني يربوع، وإن كان مُلْك فالملك ملككم[٢]، ثم أرسلت إلى بني مالك بن حنظلة

(١) مالك بن نويرة: كان رجلاً نبيلاً يشبه الملوك، وكان فارساً مطاعاً في قومه بني يربوع، وكان فيه خيلاء وكبر، قدم على رسول الله ﷺ فأسلم، ثم ولاّه الصدقات في بني يربوع وبعد وفاة النبي ﷺ امتنع عن دفع الزكاة، حتى قتله ضرار بن الأزور وقال فيه أخوه ما قال.

(٢) تاريخ الطبري ٢٤٢/٣.

تدعوهم إلى الموادعة والمسالمة، فأبوا، ورفضوا السلام معها، ثم أرسلت إلى وكيع بن مالك فأجابها كما أجاب به مالك بن نويرة.

انقسم بنو تميم إلى فريقين فريق يضم مالك بن نويرة ووكيع وسَجاح، وقسم آخر، ودارت بينهم الحرب، واقتتل القوم، ومات من الجانبين عدد كبير، وبعد الحرب تصالحوا وعاد السلام إلى بني تميم، ولما رأت سجاح أن أمرها لن يتم في بني تميم اتجهت إلى اليمامة لغزو بني حنيفة ومسيلمة الكذاب، ولكنها عندما لقيت مسيلمة تزوجته.

ولما رأى مالك بن نويرة ما صنعت سجاح ندم وتحيَّر في أمره، وعرف وكيع وغيره من رؤساء بني تميم قبح ما صنعوا، فرجعوا رجوعاً حسناً، وأخرجوا الصدقات، واستقبلوا بها خالد بن الوليد، ولم يَبْقَ في بني تميم إلاّ مالك بن نويرة؛ فقد اعتصم بالبُطاح.

علم خالد بن الوليد بأمر مالك بن نويرة، فعزم على المسير إليه، فتردد الأنصار وتخلفوا عنه وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إن الخليفة عَهِد إلينا، إن نحن فرغنا من البزاحةِ، واستبرأنا بلادَ القوم، أن نقيم حتى يكتب إلينا.

فأجابهم خالد: إن يكن عَهِد إليكم هذا، فقد عَهِدَ إليَّ أن أمضي وأنا الأمير، وإلى أن تنتهي الأخبار، ولو أنه لم يأتني كتابٌ ولا أمر، ثم رأيت فُرصة، فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك لو ابتُلينا بأَمر لم يُعْهَدْ لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا أقصد إليه، ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أُكْرِهُكُمْ(١).

تحدّث خالد بحديثه هذا إلى الأنصار، ثم مضى إلى مالك بن نويرة. وشعر الأنصار بالندم، وقالوا: إن أصاب القوم خيرٌ فإنّه خير حُرِمْناه، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنّكم الناس.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/١٧٣، تاريخ الطبري ٣/٢٤٢ وما بعدها.

فلذا قرر الأنصار وأجمعوا اللحاق بخالد، وجردوا إليه رسولاً، فأقام ينتظرهم، حتى لحقوا به وانضموا إليه وسار الجيش الإسلامي من مهاجرين وأنصار حتى وصلوا البُطاح، فلم يجدوا بها أحداً ووجدوا مالك بن نويرة قد فرقهم في أموالهم، ونهاهم عن الاجتماع حين اضطرب عليه أمره، وقال: يا بني يربوع؛ إنا قد كنَّا عصينا أمراءَنا إذ دعْونا إلى هذا الدّين، وبطَّأنا النّاس عنه فلم نُفْلح ولم ننجح، وإني قد نظرت في هذا الأمر، فوجدت الأمر يتأتّى للقوم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه النّاس، فإياكم ومناوأةَ قومٍ قد صُنِعَ لهم، فتفرقوا في دياركم، وادخلوا في هذا الأمر. ونصح لهمْ بالرجوع إلى الإسلام، والتفرق في الديار، ورجع هو إلى منزله.

وبث خالد السرايا بالبطاح، وأمرهم بداعية الإسلام، وأن يأتوه بكل من لم يُجب، وأن يقتلوه إن امتنع، وكان مما أوصى به أبو بكر: «إذا نزلتم منزلاً فَأَذِّنوا وأقيموا؛ فإن أَذَّن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة؛ وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائِلوهم، فإن أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة!»[1].

ولم يلبث أن جاءت الخيل بمالك بن نويرة في نفر من قومه بني يربوع، واختلف رؤساء جند المسلمين الذين جاؤوا بمالك ومن معه فيما بينهم، أأقرَّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان، أم أنكروا وتنكروا؟

وكان من رؤساء جند المسلمين أبو قتادة الأنصاري[2]، ولما سئل قال: إنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل، فأخذ القوم السلاح، فقلنا: إنّا المسلمون.

---

(١) من رسالة أبي بكر لقادة الجيوش، انظر: تاريخ الطبري ج ٣.

(٢) هو الحارث بن ربعي.

فقالوا: ونحن المسلمون.

قلنا: فما بال السلاح معكم؟

قالوا لنا: فما بال السلاح معكم؟

قال أبو قتادة: فقلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوه، ثم صلّينا وصلّوا.

وقال البعض غير أبي قتادة: إنهم ما زالوا على رِدّتهم.

ولما رأى خالد اختلاف القوم في شأن مالك بن نويرة وأصحابه أمر بحبسهم حتى ينظر في أمرهم، وكان ذلك في ليلة باردة، ثم أمر خالدٌ منادياً فنادى: دافئوا أسراكم ـ وهي في لغة كنانة معناها القتل، أي اقتلوا أسراكم ـ وكان الحراس من بني كنانة ففهموا كلمة دافئوا بمعنى القتل، وكان القصد منها الدفء من البرد، فوقع الحراس على الأسرى قتلاً، فقتلوهم، وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة.

وسمع خالد الصراخ، فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه.

ولما علم أبو قتادة بمقتل مالك قال لخالد: هذا عَمَلُك! فزجره خالد.

فغضب أبو قتادة وعاهد الله ألاّ يشهد حرباً بعدها مع خالد. ومضى حتى أتى أبا بكر في المدينة، فقصَّ عليه أمر خالد وقَتْله مالكاً، وأقسم ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد، فغضب منه أبو بكر، لأنه كان معجباً بخالد وانتصاراته، وكلّمه فيه عمر فلم يرض إلاّ أن يرجع إلى خالد، فرجع إليه وبَقي معه حتى قدِم معه المدينة.

ثم تزوج خالد أم تميم، ابنة المنهال زوج مالك، وكانت العرب تكره النساء في الحروب.

ولما علم عمر بمقتل مالك، وما حام حوله من الريب، وبخاصة حينما

سمع بزواج خالد من أم تميم بنت المنهال زوج مالك عمد إلى أبي بكر وقال: إن في سيف خالد رَهَقاً[1]، فإن لم يكن هذا حقاً حق عليك أن تقيده، ثم عادَ إليه فأكثر الكلام وقال: عدوُّ الله عَدَا على امرىء مسلم فقتله، ثم نزا على امرأته، وكان أبو بكر لا يُقيد - أي لا يقتل - من عُمّاله ولا وَزَعته.

فقال أبو بكر: هيه يا عمر، تأول فأخطأ[2]، فارفع لسانك عن خالد، فلم أكن لأُغمد سيفاً سله الله على الكافرين، ودفع دية مالك بن نويرة، وكتب إلى خالد بن الوليد أن يأتي إليه.

وأقبل خالد بن الوليد عائداً حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وعليه قُبَاء، عليه صدأُ الحديد، ملتفاً بعمامة على رأسه، قد غرز فيها أسهماً، فلمّا أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها، ثم قال: أَرِئاء! قتلت امرأً مسلماً، ثم نزوت على امرأته؛ والله لأرجمنّك بأحجارك!

لم يرد خالد بكلمة، وظنَّ أنَّ رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه، ثم دخل على أبي بكر، وأخبره الخبر، فعذره أبو بكر وتجاوز عما كان في حربه تلك.

ولم تمض إلا أيام حتى قدم متمم بن نويرة[3]، أخو مالك بن نويرة إلى المدينة، وشهد مع أبي بكر صلاة الصبح ثم أنشد:

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت ... تحت الإزار قَتَلْتَ يا ابن الأزور
أدعوته بالله ثم قتلته ... لو هُو دعاك بذمَّةٍ لم يغدر

---

(١) رهقاً: الرهق السّفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم.

(٢) يقصد خالد.

(٣) متمم بن نويرة: أخو مالك القتيل، وله أبلغ المراثي فيه، وقد روى الأصمعي: قدم متمم بن نويرة العراق، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى عليه؛ فقيل له: يموت أخوك بالملأ، وتبكي أنت على قبر بالعراق فقال:

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السّوافِكِ
فقال أتبكي كل قبر رَأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدَّكادك
فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا ... فدعني فهذا كلُّهُ قبر مالك!
ألم تره فينا يقسّم ماله ... تأوي إليه مرملات أضرائك!

فقال أبو بكر: والله ما دعوته ولا قتلته.

ثم قال متمم:

لا يضمر الفحشاء تحت ردائه حُلوٌ شمائله عفيف المِئْزرِ
ولنعم حشو الدّرع أنت وحاسراً ولنعم مأوَى الطارِق المتنور

ثم بكى حتى سالت دموعه، ثم وقع مغشياً عليه، وطلب دية أخية فوَدَاه، وتحدث إليه في رَدِّ سَبْي قومه، فكتب بردّ سَبْيِهم، وأقام بالمدينة، لا ترقأ له دمعة على أخِيه مالك.

حول مقتل مالك بن نويرة

تحدث المؤرخون في قضية مقتل مالك بن نويرة، فيروي ابن كثير أن الأسرى باتوا ليلتهم مكبلين وكانت الليلة شديدة البرد، فأمر خالد بإدفاء الأسرى، فنادى مناديه (دافئوا أسراكم) فظن الحراس أن خالداً يريد قتلهم فقتلوهم، وسمع خالد صياح القوم فخرج لدى الخبر فوجدهم قد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه.

ويروي ابن كثير[1] هذه الرواية بصيغة تدل على ضعف الرواية وعدم الاعتماد عليها.

والحق يقال: لئن صحت هذه الرواية فإن خالداً لا دخل له في قتل القوم، ويكون قتلهم وقع خطأً ليس فيه قصد القتل، لا من الحراس الذين قتلوا ولا من خالد الذي نادى مناديه بمقولة (دافئوا أسراكم)، وعلى هذا يمكن القول بأن زواج خالد من امرأة مالك إنما أراد به تعويضها عمن فقدت، فيكون لها فيه عزاء كما فعل سعد بن أبي وقاص مع زوجة المثنى بن حارثة رضي الله عنهما[2].

ويقول ابن خلكان[3]: إن خالداً سأل مالكاً عن منع الزكاة.

---

(١) البداية والنهاية ٦/٣٢٢.

(٢) وإن كان المثنى لم يقتل وإنما مات في فراشه متأثراً بجراحه يوم الجسر.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٣ (حروب الردة).

فقال مالك: إني آتي الصلاة دون الزكاة.

قال خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأُخرى؟

فقال مالك: قد كان صاحبكم ـ (يقصد رسول الله ﷺ) ـ يقول ذلك.

قال خالد: أو ما تراه لك صاحباً؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك.

وتجادل خالد ومالك، وأطالا الجدال حتى قال خالد: إني قاتلك.

فأجابه مالك بصلف: أو بذلك أمرك صاحبك؟

فقال خالد: والله لأقتلنك، وأمر بقتله.

وقد ذكر العلماء أن كثيراً من المؤرخين يرجحون هذه الرواية ولكنهم يرونها عند هذا الحد ناقصة، فهم يزعمون أن قتل مالك بن نويرة من خالد إنما كان من أجل أن يتزوج بامرأته، ومنهم:

اليعقوبي في تاريخه فيزعم ويقول: إن خالداً قتل مالكاً ليتزوج امرأته.

أما الأصفهاني[1] فإنه يزيد الأمر سوءاً فيزعم ويقول: إن خالداً كان يهواها في الجاهلية، وإنه قتل مالكاً ليحصل على زوجته.

وعلل اليعقوبي روايته بأن خالداً قتل مالكاً ليتزوج امرأته بقوله: إن تصرف خالد على هذا النحو يناقض تصرفه مع: قرة بن هبيرة، وعلقمة بن علاّثة، وعيينة بن حصن، وغيرهم من زعماء الأسرى، فقد بعث بهم إلى المدينة ليرى فيهم الخليفة أبو بكر الصديق رأيه، فلهذا قتل مالكاً ولم يقتل غيره[2]؟!

ويقول هؤلاء معللين صحة قولهم بأن خالداً تزوج ليلى فعلاً رغم ما سببته له من المتاعب، وهذا أمر ثابت في التاريخ، لم يختلف عليه أحد.

---

(١) انظر: الأغاني للأصفهاني.

(٢) اليعقوبي في تاريخه.

ويقول الباحثون[1]: إن المحقق المدقق سيجد فرقاً بعيداً بين موضوع مالك بن نويرة وموضوع غيره من الزعماء الذين ساندوا المرتدين وظاهروهم على المسلمين؛ ذلك أن هؤلاء جميعاً قد ندموا على ما كان منهم وعادوا إلى الإسلام، وحتى زعماء بني تميم من أمثال عطارد بن حاجب ووكيع بن مالك لما ندموا على ما فعلوا ودفعوا الزكاة، لم يصبهم أذى من المسلمين، وعاشوا في قومهم آمنين.

وأما مالك فقد ظلَّ مضطرباً في تفكيره حائراً في مصيره، ماذا يفعل؟؟ أيظل على ردّته ويصر على منع الزكاة؟ أم يعود إلى ما كان عليه قبل تلك الفتنة؟.

إن مالكاً بموقفه المضطرب، وفكره الحائر يعرض نفسه للسؤال الذي ينبغي الجواب عنه واضحاً لا يحتمل التأويل، ولكنه بقي على موقفه المتردد، ولم يقطع في الموضوع برأي، مما جعل خالداً يحضره بين يديه ويسأله ليجيب بالوضوح المطلوب، فهل أجاب مالك بوضوح؟

إننا نلاحظ أن مالكاً كان واضحاً من موضوع الصلاة، ولكنه كان متردداً من موضوع الزكاة، ومما يدل على ذلك شعره الذي قال فيه:

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم ... منعنا وقلنا: الدين دين محمد

ولهذا كانت مناظرة خالد له في الزكاة: ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة؟

فيجيب مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك.

إنه برده المستفز هذا ينكر صحبة الرسول ﷺ، ولقد رآه وسمع منه، وكذلك لا يقر بنبوته التي اعترف بها قبل وفاته ﷺ، أليس في رده هذا ارتداد عن الدين ومنع للزكاة بعد أن أقر بكل ذلك.

---

(١) الدكتور محمد السيد الوكيل في كتابه: جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين.

فكيف إذن نسوي بين مالك المرتد وبين زعماء قومه الذين أظهروا التوبة والندم وعادوا طائعين إلى الإسلام، وأدّوا ما عليهم من الزكاة.

أما غضب أبي قتادة الأنصاري وثورته من أجل قتل مالك فإنها مبنية على أن مالكاً أقام الصلاة، وسبب قتله لم يكن من أجل الصلاة، وإنما كان من أجل منعه الزكاة.

ويُذكر هنا موقف لأبي بكر مع عمر، وقد حدث ذلك حين أرادت قبائل عبس وذبيان القريبتين من المدينة أن تمنعا الزكاة، فقد رأى أبو بكر أن يقاتلهم، ودفع حجة مخالفيه في الرأي بقوله: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه!

وكان عمر من هؤلاء المخالفين القائلين بموادعة من أرادوا منع الزكاة والاستعانة بهم على المرتدين، وقد كان عنيفاً في تأييد رأيه، حتى لقد وجه الكلام إلى أبي بكر في شيء من الحدة يقول: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: **«أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله!»**.

وأجاب أبو بكر على اعتراض عمر بقوله: والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وقد قال: إلا بحقها(1).

ولذلك فإن منع الزكاة ردّة، لأن الدين وأحكامه لم تتجزأ في يوم من الأيام.

ونجد في حوار ذكره المؤرخون بين عمر بن الخطاب ومتمم بن نويرة شقيق مالك، عندما استنشد عمر متمماً بعض ما رثى به أخاه مالك، فأنشد متمم قصيدته التي قال فيها:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

---

(1) الفاروق عمر، لهيكل ٧٨/١، ٧٩.

فلما سمع عمر ذلك قال: هذا والله التأبين، ولوددت أني أُحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك.

قال متمم: لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته.

فسر عمر رضي الله عنه لمقالة متمم وقال: ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم[1].

وذلك يبين الحقيقة التي يعرفها متمم وهي أن زيد بن الخطاب مات على الإسلام شهيداً في غزوة اليمامة، ومتمم يعترف هنا بأن أخاه مات على غير ذلك حين يقول: لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته، ولو كان متمم يقصد الموت على الشهادة في سبيل الله لقال: لو أن أخي مات مثل موتة أخيك، ولو أن مالكاً قتله خالد ظلماً وهو يؤمن لكان شهيداً، ولم يكن هناك ما يدعو متمماً لأن يقول ما قال معزياً نفسه عن أخيه.

إن كلمة متمم تدل على أن مالكاً لم يمت على الإسلام[2]، أفلا يكون خالد معذوراً بعد ذلك كله حين يقتله؟

ويقول العلماء[3]: وإذا تقرر أن مالكاً قُتل مرتدًّا مانعاً للزكاة فزوجه لا تخلو من أمرين:

إما أن تكون متابعة له في ردّته وحينئذ يحق لخالد أن يتخذها أمة له يستحلها باستبراء رحمها ثم يبني بها، وقد يتحقق ذلك في ليالٍ معدودة.

وإما أن تظل على إسلامها فتكون الردّة قد فرقت بينهما فليست زوجاً له شرعاً، وحينئذ يحل لأي إنسان أن يتزوج بها بعد أن تستبرأ رحمها، وقد تزوجها خالد، وعلى كلا الحالين فإن خالداً لم يخالف الشرع ولم يرتكب إثماً[4].

---

(١) البلاذري في أنساب الأشراف.

(٢) د. محمد السيد الوكيل، جولة تاريخية في عصر الخلافة الراشدة.

(٣) المصدر السابق ص ٤٣.

(٤) المصدر السابق.

ومن قول ابن كثير عن ليلى أم تميم والذي جاء فيه: واصطفى خالد امرأة مالك بن نويرة... فلما صلَّت بنى بها.

وهذا يدل على أنها كانت متابعة لزوجها على الردّة، فأصبحت ضمن غنائم المسلمين، فاختار ابن كثير لفظ: «اصطفى خالد»[1].

وفي تعليق أخير يقول العقاد[2] بعد استعراض الأقوال في قضية مقتل مالك بن نويرة: وحسبنا من هذه الأقوال جميعاً أن نقف منها على الثابت الذي لا نزاع فيه، والثابت الذي لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحاً قاطعاً في أمر مالك بن نويرة، وأن مالكاً كان أحق بإرساله إلى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم، الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاحة، وإن خالداً تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة.

ولكننا ندع كل هذه الاجتهادات ونقول مقولة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق لعمر: هيه يا عمر... تأول فأخطأ...

ونقول مع أمير المؤمنين أبي بكر: ما كنت لأشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين[3]. رضي الله عن خالد وعن عمر وعن أبي بكر أجمعين.

موقعة اليمامة ومسيلمة الكذاب

١ ـ مسيلمة:

كانت السنة العاشرة على هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة حين قدم وفد من أهل اليمامة على رسول الله ﷺ مسلمين، وتركوا مسيلمة بن حبيب في رحالهم وإبلهم خارج المدينة، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا

---

(١) والصفي أو الصفية ما يختاره الرئيس لنفسه من الغنائم (انظر القاموس مادة صفا، وانظر: المصدر السابق.

(٢) عبقرية خالد ص ١٠١.

(٣) الفاروق عمر ص ٨٠ للدكتور هيكل.

رسول الله؛ إنا قد خَلَّفْنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا، يحفظها لنا.

فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: **«أما إنه ليس بشرِّكم مكاناً»**، ثم انصرفوا، وجاؤوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله ﷺ.

فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدَّ وتنبأ لهم، وقال: إنّي قد أشركت في الأمر معه، وقال لمن كان معه في وفد بني حنيفة: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: **«أما إنه ليس بشركم مكاناً»**، وما ذاك إلاّ لأنّه كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه، ثم جعل يسجع لهم الأساجيع(١).

وكان مسيلمة هذا رجلاً قصيراً أخنس الأنف أفطسه، شديد الصفرة، زري الهيئة، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء.

فمن خلابته أن النبي ﷺ أرسل إليه رجلاً من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الإسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو: «الرجال بن عنفوة»، فما لبث الخبيث مسيلمة أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى إليه، وأنه سمع النبي ﷺ يقول أنّه قد أشركه معه، وشهد له بالنبوة..

وقد استغوى مسيلمة سجاح التميمية ـ وهي تدعي النبوة ـ حتى شهدت بنبوته وتزوجته، وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار، وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن.

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء، لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه، فيخيل إليهم أنّه سرٌّ من الغيب أو معونة من الجِنَّة والشياطين، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التي كان يحذقها بعض الكهان في بلاد العرب

---

(١) تاريخ الطبري ١٦٢/٣، وابن كثير في البداية والنهاية ٣٢٣/٦ بتصرف.

والعجم، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم أعمالاً تبدو كالسحر وليست سحراً، حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها، ولمّ في طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب، فقد قيل في وصفه وهو يتكهن: «إنّه إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه».

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه. فتأتّى له أن يجمع أربعين ألفاً أو ستين وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير، ولكنه لا يهبط إلى ما دون العشرين، قياساً على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين.

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوى النبوة وتجرأ في كذبه وأرسل للبني ﷺ يقول في وقاحة: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلامٌ عليك، أمّا بعد، فقد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوماً يعتدون».

وقدم على النبي ﷺ بكتابه الوقح هذا رسولان، فقال لهما النبي ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة: **«فما تقولان أنتما؟»**.

قالا: نقول مثل ما قال.

فقال ﷺ: **«أما والله لولا أنّ الرسل لا تقتل لضربتُ أعناقكما»**[1].

ثم كتب إلى مسيلمة: **«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب: سلام على من اتبع الهُدَى، أمّا بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»**.

وقد ذكرنا أن مسيلمة كان يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى للنبوة ومقاومة الإسلام. فكان يقاتل ثمامة بن أثال، ويناوش بني تميم لما بينهم من الثأر والمنافسات، ويتوقى شر سجاح التميمية وقومها التغلبيين،

---

(١) السيرة لابن هشام ٢٤٤/٤ وما بعدها، وابن الأثير في الكامل ١٧٤/٢.

ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين، ويعلم أن أشياعَهُ وأتباعه من بيوت بني تميم قد يخذلونه، وأن الذين دانوا بالإسلام بين قومه عيون عليه، وأن الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره، فتحيل على مهادنة خصومه، وفرَّغ جهده لحرب المسلمين وحدهم، وحشد كل ما في وسعه من جند وسلاح، ثم تقدم بهم في عجلة إلى موقع يقال له: عقرباء في طرف بلاده على مقربة من بلاد بني تميم(١).

عند هذا الحد وصل مسيلمة الكذاب إلى نقطة الصدام مع المسلمين، ولكن ماذا فعل أمير المؤمنين أبو بكر في فترة استعداد مسيلمة هذه؟؟

٢ ـ موقف أبي بكر:

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه على علم بمكمن الخطورة في اليمامة، فأرسل عكرمة بن أبي جهل في عسكر إلى مسيلمة، وأتبعه بزحف آخر من الجنود بقيادة شرحبيل بن حسنة.

فسار عكرمة إلى اليمامة، ولم يرَ أن ينتظر شرحبيل بن حسنة القادم في أثره بالجند والمدد، ليكون له الفخار، فخار النصر، وكان عكرمة بطلاً مجرياً، وفارساً مغواراً، وقد اجتمع في لوائه أبطالٌ لهم في الحروب بلاءٌ، ولكنه لم يثبت لقوتهم، وهزمه بنو حنيفة، وعلم شرحبيل بهزيمتهم فتوقف وأقام بالطريق(٢).

وكتب عكرمة لأبي بكر بالذي أصابه وأصاب جنده، فغضب أبو بكر وكتب إليه: يا ابن أُم عكرمة: لا ترجعن فتوهِنَ، امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة، ثم سِرْ أنت وجندك حتى تلقى المهاجر بن أبي أُمية باليمن وحضرموت.

وكتب إلى شرحبيل بن حسنة يأمره بالمقام حتى يأتيه أمره.

---

(١) تاريخ الطبري، والمصدران السابقان، بتصرف.

(٢) انظر: تاريخ الطبري جـ ٣ اليمامة، والكامل لابن الأثير ١٧٤/٢ وما بعدها.

والناظر إلى توجيهات خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضي الله عنه يراه يخطط لتطويق ومحاصرة مكمن الخطر في حروب الردة كلها، وهي اليمامة وبنو حنيفة وقائدهم مسيلمة.

أرسل أبو بكر رضي الله عنه خالداً إلى مسيلمة، وأخرج معه الناس كلهم للغزو، وجعل على الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن عازب، وعلى المهاجرين أبا حذيفة، وزيد بن الخطاب، وعلى كل قبيلة رجلاً، وقبل أن يتحرك خالد بجيشه كتب أبو بكر إلى شرحبيل بن حسنة كتاباً آخر جاء فيه: إذا قدم عليك خالد، ثم فرغتم إن شاء الله، فالحق بقضاعة، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالَفَ[1].

٣ ـ خالد في اليمامة:

وخرج خالد في جنده حتى أتى اليمامة؛ حيث كان بنو حنيفة مستعدين هناك في جمعهم الكثيف.

ولم يكن خالد يجهل خطر مسيلمة وهو الرجل الذي سيلقاه، ولم يكن يخفى عليه أنّ الحرب في العراء غير الحرب في بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار، فتوجه إلى اليمامة في أهبة كافية بالقياس إلى أهبة المسلمين لأعدائهم في صدر الإسلام. ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذي كان معه في «عقرباء»، ولكنه على التقريب يجاوز الثمانية آلاف ولا يقل عنها، لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف، يضاف إليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذي سيقدم، ولبث في انتظاره، ولا يقل عن ألفين، ويضاف إليهم الردء الذي أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمي ساقتهم، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بني تميم وبني حنيفة، فهم في حملتهم يجاوزن الثمانية آلاف ولا ينقصون عنها، وإن نقصوا فبقليل.

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير إنما هو كثرة الصناديد من

---

(١) المصدر السابق.

أبطال الصحابة المشهورين فيه، فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز في عدّته نصف جيش اليمامة، ولكنه كان في عدّة وافية من أفذاذ الرجال الذين يُقوّمون بالألوف.. فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران.

وكانا كفؤين متناظرين في صدق النية واتقاء العار من الهزيمة، فمسيلمة تأخذه غيرة الحرم، وخالد تأخذه غيرة الدين.

وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون إلى المسلمين: «هذا يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم».

ولم يزل خالد يتقدم إلى وجهته على تعبئة كاملة كعادته في معظم غزواته، وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته في كل مرحلة من مراحل الطريق، ولعله استعظم القوة التي حشدها مسيلمة في عقر داره، فجنح إلى الأخذ بالأحوط وكتب إلى الخليفة في طلب المدد، عسى أن يحتاج إليه بعد الجولة الأُولى من جولات القتال.

وبينما كانت جيوش خالد تتلاحق إلى أرض اليمن، وتبلغ أنباؤها مسيلمة، خرج رجل يقال له: «مُجَّاعة بن مرارة» في جماعة من بني حنيفة يطلبون ثأراً لهم في بني عامر وبني تميم، وقد خاف أن يفوته ذلك الثأر إذا شغل بلقاء المسلمين وقتالهم، وأدرك مجاعة ثأره وعاد في أصحابه، ولما بلغوا ثنية اليمامة كان التعب قد أخذ منهم، فناموا.

وأدركهم جنود خالد، فوجدوهم نياماً، وأرسان[1] خيولهم بأيديهم تحت خدودهم، وهم لا يشعرون بقرب الجيش منهم، فأيقظوهم وقالوا: من أنتم؟

قالوا: هذا مُجّاعة، وهذه حنيفة. قالوا: وأنتم! فلا حيّاكم الله!

فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد فأتوه بهم، فقال لهم: متى سمعتم بنا؟

---

(١) أرسان مفردها رسن: وهو الجبل المربوط على أنف الخيل ورأسه ويسحب منه.

قالوا: ما شعرنا بك، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم.

فأمر بهم أن يقتلوا، فجادوا كلهم بأنفسهم دون مجاعة بن مرارة، وقالوا: إن كنت تريد بأهل اليمامة غداً خيراً أو شرًّا فاستبق هذا ولا تقتله.

فقتلهم خالد، وحبس مُجَّاعة عنده كالرهينة، وأوثقه في الحديد، ثم دفعه إلى أمّ تميم امرأته، وقال: استوصي به خيراً، ثم مضى حتى نزل اليمامة.

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة، فضرب به عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس، والعرب على راياتها، ومجاعة ابن مرارة مقيد في الخيمة مع أم تميم[١].

٤ ـ بدء المعركة:

التقى الجيشان واقتتلوا قتالاً شديداً، حتى انهزم المسلمون، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، واندفعت في هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيداً بالأغلال، فهمّ بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيراً وهو يقول: «نعمت الحرة هذه، وعليكم بالرجال»، فمزقوا الخيمة بالسيوف.

ولما حلّت الهزيمة بالمسلمين أخذوا يرصوا صفوفهم ويحض بعضهم بعضاً على القتال، فقال ثابت بن قيس: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء ـ يعني أهل اليمامة ـ وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ ثم أخذ يجالد بسيفه.

---

(١) انظر ابن الأثير في كتابه الكامل، وتاريخ الطبري جـ ٣ معركة اليمامة أحداث سنة ١١ هجرية.

وجعل الصحابة يتواصون بينهم، ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم.

وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض، وهو حامل اللواء، بعدما تحنط وتكفن، ولم يزل ثابتاً حتى قتل.

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن!! زينوا القرآن بالفعال، وحمل على الأعداء حتى أبعدهم.

وقال زيد بن الخطاب رضي الله عنه: أيها الناس؛ عَضُّوا على أضراسكم واضربوا عدوكم، وامضوا قُدُماً، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله؛ أو ألقى الله فأُكلِّمه بحجتي، ثم خرج للقتال، فلقي أول ما لقي «الرَّجال بن عنفوة» الذي ارتد بعد أن أرسله رسول الله ﷺ ليعلم أهل اليمامة الإسلام، فاجتلد زيد مع الرَّجّال ولم يلبث قليلاً حتى قتله زيد، ثم قاتل زيد حتى استشهد.

وعن الرَّجال بن عنفوة أورد ابن كثير حديثاً عن أبي هريرة قال: كنت يومئذ عند النبي ﷺ في رهط ومعنا الرجّال بن عنفوة فقال: «**إن فيكم لرجلاً ضرسه في النار أعظم من أحد**» فهلك القوم وبقيت أنا والرَّجال، وكنت متخوفاً، حتى خرج الرجال مع مسيلمة وشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرَّجَّال أعظم من فتنة مسيلمة[1].

ثم نشب شيءٌ من الخلاف بين المسلمين؛ فالمهاجرون والأنصار جَبَّنوا أهل البوادي، وأهل البوادي جبَّنوا المهاجرين والأنصار.

وقال أهل القرى: نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم.

وقال أهل البادية: إنَّ أهل القرى لا يُحسنون القتال؛ ولا يدرون ما الحرب؛ فسترون إذا امتزنا من أين يجيء الخلل.

---

(١) البداية والنهاية ٣٢٣/٦.

فما رئي يوم كان أحدَّ ولا أعظم نكاية مما رئي يومئذ، ولم يدر أي الفريقين كان أشد فيهم نكاية؛ إلا أن المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها من أهل البادية. وظلت الحرب سجالاً، مرة على المسلمين ومرة على الكافرين.

فقال خالد: امتازوا اليوم لنعلم بلاء كل حي؛ ولنعلم من أين نؤتى، فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضرة، ووقف بنو كل أب على رايتهم، فقاتلوا جميعاً، وقال أهل البوادي يومئذ: الآن يشتد القتل في الأجدع الضعيف.

فاستحرّ القتل في أهل القرى، وثبت مسيلمة، فعرف خالد أنها لن تهدأ ولن تركد إلا بقتل مسيلمة، فبرز حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى المبارزة، وقال: أنا ابن الوليد؛ ونادى بشعارهم يومئذ: يا محمداه، فجعل لا يخرج إليه أحد إلا قتله، ودارت رحى المسلمين وطحنت، وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد، فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه، وكثر فيهم القتل، وشعر مسيلمة بالخزي يركبه، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا ليبارز خالد، ولكنه أيقن أنه مقتول إن خرج، فتردد واضطرب، وإنّه لفي اضطرابه وتردده إذ شد خالد برجاله عليه وعلى من حوله، يُعملون فيهم السلاح.

٥ ـ معركة الحديقة:

رأى محكم بن الطفيل فرار قومه وهم بنو حنيفة، ورأى المسلمون يتعقبونهم فصاح بهم: يا بني حنيفة! الحديقة! وكانت على مقربة منهم، وكانت لمسيلمة، وتدعى حديقة الرحمن، وكانت فسيحة الأرجاء، منيعة الجدران، كأنها الحصن، وفكروا إليها، وتحصنوا بها من هزيمتهم، بعد أن خرَّ الألوف منهم صرعى، ووقف المحكم بن طفيل برجاله يحمي ظهورهم بعد فرارهم، وإنه لكذلك، يحاول صدَّ المسلمين، ويحرض رجاله على دفعهم، ويقاتل وإياهم أشدَّ قتال؛ إذ رماه عبدالرحمن بن أبي بكر بسهم وقع في نحره فقتله.

وأحاط المسلمون بالحديقة، ليجدوا فيها ثغرة، فصرخ البراء بن مالك، وقال: يا معشر المسلمين؛ احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه، ففعلوا، حتى إذا وضعوه على الجدار نظر وارتعد، فنادى: أنزلوني؛ ثم قال: احملوني؛ ففعل ذلك مراراً، ثم قال: احملوني؛ فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين، فدخلوا منه جماعات تلمع في أيديهم السيوف، ويطل الموت من حدق عيونهم، وأغلق الباب عليهم، ثم رمى المفتاح من وراء الجدار، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأبيد من في الحديقة من بني حنيفة.

وذهب فريقٌ إلى مسيلمة يقولون: أين ما كنت تعدنا؟ قال: قاتلوا عن أحسابكم، ولم يلبث الصارخ أن صرخ أن مسيلمة قد قُتِل؛ إن العبد الأسود قتل مسيلمة، والعبد الأسود هو وحشي بن حرب قاتل حمزة الذي أسلم في فتح مكة.

فقد جاء في ابن كثير أن المسلمين حين دخلوا الحديقة من حيطانها خلصوا إلى مسيلمة، وإذا هو واقف في ثلمة الجدار، كأنه جمل أورق، وهو لا يعقل من الغيظ، فتقدم إليه وحشي بن حرب، مولى جبير بن مطعم فأصابه، وسارع أبو دجانة فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر وأمير الوضاءة، قتله العبد الأسود[١].

وبموت مسيلمة انتهت المعركة، وخرج خالد بمُجَّاعة مقيداً يرسف في الحديد ليريه مسيلمة وأعلام جنده، فرأى في القتلى صناديد بني حنيفة منهم الرّجال بن عنفوة، ومحكم بن الطفيل ومسيلمة.

ولما فرغ خالد من مسيلمة والجند، قال له عبدالله بن عمر وعبدالرحمٰن بن أبي بكر: ارتحل بنا وبالنّاس، فانزل على الحصون.

فقال: دَعَاني أَبُثُّ الخيول فألقط مَنْ ليس في الحصون، ثم أرى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٣/٦ وما بعدها.

رأيي، فبث الخيول، فحوى ما وجدوا من مالٍ ونساءٍ وصبيان، فضموا هذا كله إلى المعسكر، ونادى بالرحيل لينزل على الحصون.

فقال لهم مجّاعة: إنه والله ما جاءك إلا أوائل الناس، وإن الحصون لمملوءة رجالاً، فهلم إلى الصلح على ما ورائي، فصالحه على كل شيء دون النفوس، ثم قال: أَنطلِقُ إليهم فأشاورهم، وننظر في هذا الأمر ثم أرجع إليك.

فدخل مجّاعة الحصون، وليس فيها إلا النساء والصبيان، وشيوخ عجائز ورجال ضعْفى، فأمر مجّاعة النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رؤوس الناس، فآثر خالد المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كلّوا من كثرة الحروب واشترط أن يُسلّموا وأن يكون له نصف السبي والغنائم.

ثم رجع مجاعة إلى قومه فأتى خالداً، فقال: قد أبوا ورفضوا أن يجيزوا ما صنعت، وقد أشرف لك بعضهم نقضاً عليَّ، وهُمْ مني براء.

فنظر خالد إلى رؤوس الحصون وقد اسودت، وقد نهكت المسلمين الحربُ، وأحبّوا أن يرجعوا بالظفر والنصر، ورأوْا أنّه قد قُتِلَ من المهاجرين والأنصار خلقٌ كثير.

فرأى خالدٌ من الخير أن يصالح مجّاعة، فقال له: هلمَّ لأصالحك على الصفراء والبيضاء ونصف السبي.

فقال مجاعة: الآن آتي قومي فأعرض عليهم ما قد صنعت.

قال خالد: فانطلق إليهم.

فذهب مجاعة وعاد فقال: أبوا ورفضوا مصالحتك، ولكن إن شئت صنعت شيئاً.

قال خالد: ما هو؟

قال مجاعة: تأخذ مني ربع السبي وتدع ربعاً.

قال خالد: قد فعلت.

فقال مجاعة: قد صالحتك.

فلما فرغ خالد ومجاعة من صلحهما فُتِحت الحصون، فإذا فيها النساء والصبيان ومشيخة فانية، ورجالٌ ضعافٌ.

فقال خالد لمجاعة وقد بدت عليه آثار الغضب: ويحك! خدعتني.

فقال مجاعة في جرأة: قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت.

فهدأ خالد وأكبر فيه مروءته مع أهله وقومه وأجاز الصلح.

وحُشِرَ بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه من الردة، وجيء بهم جماعات وفرادى إلى خالد، فبايعوا وأعلنوا رجوعهم إلى الإسلام، وبراءتهم من الردة.

ثم بعث خالد وفداً من بني حنيفة إلى أبي بكر، فقدموا عليه، فقال لهم أبو بكر: ويحكم! ما هذا الذي كان منكم؟

قالوا: يا خليفة رسول الله، قد كان الذي بلغك مما أصابنا، وقد كان أمراً لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه.

وتتجلى عظمة القيادة بين خليفة رسول الله ﷺ وبين قائد جيوشه الجريء خالد بن الوليد، ففي وقت يعفو عنه ويقول: تأول فأخطأ، تجيء بعض الأحداث مما صار في حروب الردة واليمامة على الخصوص، تجعل الخليفة يبدو غاضباً من تصرفات قائده، ولكنه يفسح المجال له لكي يقدم حجته ويدافع عن نفسه وعن ظروف الميدان التي تحكم قرارته أحياناً.

وفي نهاية معركة اليمامة أعجب خالد بجرأة مجاعة عندما قال له: ويحك خدعتني، فأجابه: هم قومي.

فلم يغضب خالد، ولا عجب في ذلك، فإن عمل مجاعة لا مراء عمل نبيل يكبره في النفوس النبيلة، ويبعث له فيها الإعجاب الذي يكفكف كل غضب سريع، فهو عمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة، وكلتاهما

فضيلة يعرفها خالد، ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء.

وما نحسب إلا أن الإعجاب بمجاعة قد حبَّبَ إلى خالد أن يصهر إليه ويوثق الصِّلة بينه وبينه. زعيم شجاع، جميل الرأي، حسن التدبير، غيور على قومه، عليم كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلم، فهو خير صهر في تلك القبيلة التي يفخر «سيف الله» بدخولها على يديه في الإسلام، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب.

وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التي يزينها النصر له، كما يزينها له طيب الهواء، فاختار له وادياً من أوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة أُخرى، وخطب إلى مُجَّاعة فتاة له موصوفة بجمالها، وهي خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل، لأن مجاعة قد علم من «ليلى التميمية» مذ كان سجيناً في خميتها كيف تلقى الخليفة أبو بكر وأصحابه خبر زواجها بخالد في ساحة القتال، فأشفق «مجاعة» هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوءه وتسوء ابنته وتسوء خالد في جريرته. فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه، وقال له: مهلاً. . إنّك قاطع وظهرك معي عند صاحبك، ولكنه لم يلبث أن علم إصرار خالد حتى أجابه، ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الإباء.

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمراً باستئصال كل من يحمل السلاح من بني حنيفة، فعادت الرسل إلى الخليفة أبي بكر بخبر الصلح وخبر الزواج، فحسب أبو بكر أن الأمرين مقترنان، واشتدَّ به السَّخط على عمل قائده خالد ـ سيف الله ـ رضي الله عنه، بما وقع في نفسه من حسبان.

فكتب إليه أعنف خطاب وجهه إلى قائد من قواده أو وال من ولاته، وسماه «ابن أم خالد» وقال له في خطابه: «إنك لفارغ»، وقد عاب عليه أنه «ينكح النساء وبفناء بيته ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد»[1].

---

(١) انظر: عبقرية خالد للعقاد ص ١٠٩.

وقد كتب خالد إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنهما يعتذر في أنفة وعزة، أمّا بعد: فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور وقرت بي الدار، وما تزوجت إلا إلى امرىء لو عمدت إليه من المدينة خاطباً لم أبل، دع أني استثرت خطبتي إليه من تحت قدمي، فإن كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا أرضيتك، وفعلت ما يسرك بعد أن فعلت ما ساءك، وأمّا حسن عزائي على قتلى المسلمين، فوالله لو كان الحزن يبقي حيًّا أو يرد ميّتاً لأبقى حزني الحي وردّ الميت، ولقد اقتحمت في طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت، وأمّا خدعة مجاعة إياي عن رأيي، فإني لم أخطىء رأي يومي، ولم يكن لي علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيراً.

وقال في رسالة أخرى: «إنني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به، وحتى عجف الكراع، ونهك الخف، ونهك المسلمون بالقتل والجراح».

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد في حروب الردّة كأحسن ما ينقضي هذا الواجب الذي كلّفه به أمير المؤمنين أبي بكر الصديق.

أبو بكر والمرتدين في البحرين

كان يقيم في البحرين قبائل من ربيعة من بكر وتغلب، وكانوا قد وفدوا على رسول الله ﷺ، فأمّر عليهم المنذر بن ساوى[1].

ثم حدث أن النبي ﷺ والمنذر بن ساوى اشتكيا من المرض في شهر واحد، ومات الرسول ﷺ، ثم مات المنذر بن ساوى بعده بقليل، فارتد أهل البحرين جميعاً عن الإسلام كما ارتد غيرهم من سائر أنحاء شبه جزيرة

(١) المنذر بن ساوى كان ملك البحرين حين أرسل له رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي ليدعو أهل البحرين إلى الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى وإلى سيبخت، مرزبان هجر، يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب هناك وبعض العجم، وأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى، فإنهم صالحوا العلاء بن الحضرمي، وكتبوا بينه وبينهم كتاباً.

العرب، فأمّا بكر فإنها ثبتت على ردّتها، وأما عبد قيس فإنهم رُزقوا «الجارود بن المعلى» الذي ثناهم عن ردتهم وأبقاهم على دين الإسلام.

وكان الجارود قد قدم على النبي ﷺ مرتداً، فقال له: «**أسلم يا جارود**».

فقال: إنَّ لي ديناً.

فقال له الرسول ﷺ: «**إن دينك يا جارود ليس بشيء؛ وليس بدين**».

فقال له الجارود: فإن أنا أسلمت، فما كان من تبعة الإسلام فعليك؟

قال: «**نعم**».

فأسلم، ومكث في المدينة حتى تعلّم وفقه في دينه، ثم عاد إلى قومه بني عبد قيس، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا كلهم، ثم لم يلبث أن مات رسول الله ﷺ، فقالت عبد قيس: لو كان محمد نبياً لما مات وارتدوا.

فجاءهم الجارود رحمة من الله، ثم قام فخطبهم فقال: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر، فأخبروني به إن علمتموه ولا تجيبوني إن لم تعلموا.

قالوا: سل عما بدا لك.

قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟

قالوا: نعم.

قال: تعلمونه أو ترونه؟

قالوا: لا بل نعلمه. قال: فما فعلوا؟

قالوا: ماتوا.

قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

قالوا: نحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنت سيدنا وأفضلنا، وثبتوا جميعاً على إسلامهم[1].

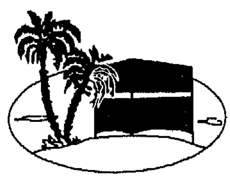
أما بقية قبائل ربيعة فإنهم ثبتوا على ردّتهم ومخالفتهم، واجتمع رأيهم على أن يقودهم المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يلقب بالمغرور.

وسار الحطم بن ضبيعة، فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردّة، وأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرمي إليهم في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد قد قضى على مسيلمة والردة في اليمامة، وفي طريق العلاء إلى البحرين انضم إليه العائدون إلى الإسلام في اليمامة من بني حنيفة حين مر بهم، ومنهم ثمامة بن أثال.

واستطاع العلاء وجيش المسلمين أن يهزموا المرتدين في البحرين، وحاول الحطم بن ضبيعة الهرب، ولكن قتل على يد المسلمين. وأصبح العلاء فقسم الأنفال، وفر الذين نجوا من الموت والأسر وركبوا الشراع إلى دارين وهي جزيرة من جزر الخليج الفارسي تواجه البحرين، ولما نشر العلاء الإسلام في البحرين، كتب إلى أبي بكر رسالة بهزيمة القوم قال فيها:

أما بعد، فإن الله تبارك وتعالى اسمه سَلب عدونا عقله، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار، فاقتحمنا عليهم خندقهم فوجدناهم سكارى، فقتلناهم إلا الشريد، وقد قتل الله الحطم.

فكتب إليه أبو بكر: أما بعد، فإنه بلغك عن بني شيبان شيء، فابعث إليهم جنداً فأوطئهم وشرد بهم من خلفهم، فلم يجتمعوا بعد.



(١) انظر: تاريخ الطبري ٣/٣٥٥، والكامل لابن الأثير ٢/١٧٨.

أبو بكر وفتوح العراق والشام

معركة ذات السلاسل

لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة كتب إليه أبو بكر يأمره أن يتوجَّه إلى العراق بعد الفتح، حتى يلقى عياض بن غنم.

وقد عرفنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمراً إلا أحكم تدبيره مرحلة مرحلة، من أول طريقه إلى منتهاه..

وهكذا كان الشأن في البعثة الفارسية، فإنه ندب لها قائدين هما: خالد بن الوليد، وعياض بن غنم، وأمر خالد أن يتوجه إلى الأبلة ثغر الهند كما سماها، وأمر عياضاً أن يتجه إلى المصيخ بشمال العراق، فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معاً، ووجبت طاعته على صاحبه، وقال لهما: إذا اجتمعتا بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس أمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم.

وهذه خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى في وقت واحد:

ففيها إذكاء المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت جهود الفرس في الدفاع عن بلادهم، وفيها تدبير النجاة سلفاً لمن يحتاج إليها من الجيشين، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ في الطريق للجيشين معاً، لأن مياه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين إذا سارا في طريق واحد.

وكان الصديق وإخوانه يعلمون أن المسألة في هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة.

فحرص لهذا على أن يجنب الجيوش الإسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم.

وأوصى القائدين ألاّ يقبلا أحداً منهم، وألا يكرها أحداً من غير المرتدين على المسير في جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضى منه ورغبة.

ولما نظر خالد إلى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم، كتب إلى الخليفة يستمده، فأمدّه بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي.. فعجب أصحابه وقالوا له: أتمده برجل واحد؟..

قال: نعم.. لا يهزم جيش فيهم مثل هذا.

ونعود إلى يوم ذات السلاسل، فلما فرغ خالد من اليمامة كتب إليه أبو بكر يأمره أن يتوجه إلى العراق كما ذكرنا، حتى يلقى عياض بن غَنْم[1].

وكتب إلى عياض - وهو ما بين العراق والحجاز -: أن سرْ حتى المصيخ - وهو موضع على آخر حدود الشام؛ مما يلي العراق - فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالد، وأذنا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكاره.

ولما قدم الكتاب على خالد وعياض استمدا أبا بكر؛ فأمدّ خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي[2]، فقيل له: أتمد رجلاً قد انفض عنه جنوده برجل؟!

---

(١) عياض بن غَنْم: قرشي فهري؛ هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، وشهد بدراً وأحداً والخندق وكثير من المشاهد، مات بالمدينة سنة ٢٠ هجرية.

(٢) القعقاع بن عمرو من تميم، كان أحد فرسان العرب وشعرائهم، وكانت له صحبة، شهد فتوح الشام وأكبر فتوح العراق، قال له رسول الله ﷺ يوماً: **«ما أعددت للجهاد؟»** قال: طاعة الله ورسوله.

فقال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا، وأمد عياضاً بعبد بن عوف الحميري، وكتب إليهما أن استنفرا من قاتل أهل الردّة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحدٌ ارتدَّ حتى أرى رأيي، واستنصرا بالمثنى بن حارثة.

فلم يشهد الأيام بالعراق مرتد.

وكان المثنى(١) قدم على أبي بكر، فقال: أمِّرني على من قِبَلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي، ففعل ذلك.

فجمع المثنى قومه بني شيبان، وأخذ يغير بناحية كسكر ـ وهو مساحة بين الكوفة والبصرة ـ مرة، وفي أسفل الفرات مرة أخرى، إلى أن نزل خالد بالقرب من البصرة في النباج، وهو في طريقه لحرب الفرس، فكتب إليه يستقدمه، وبعث إليه بكتاب أبي بكر، يأمره فيه بطاعته، فلحق به.

ثم قصد خالد كما أمر أبو بكر ـ الأبلة ـ وقد جمع ثمانية آلاف من ربيعة ومضر مع ألفين ممَّن كان معه، وكانت الأبلة الثغر الذي تسير التجارة منه إلى الهند والسند، وهي أعظم ثغور فارس شأناً، وكان هرمز أمير هذه المنطقة كلها من قبل فارس، وهو من أسوأ أمراء الفرس معاملة للعرب، فكل العرب عليه مغيظ محنق، حتى ضربوا به المثل في الخبث والكفر، فكانوا يقولون: «أخبث من هرمز».

ولما شارف خالد الأبلة كتب إلى هرمز: أما بعد.. فأسلم تسلم، أو اعتضد لنفسك وقومك الذِّمَّة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة(٢).

ثم فرّق خالد جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة،

---

(١) المثنى بن حارثة: ينتهي نسبه إلى شيبان، كان إسلامه وقدومه على الرسول ﷺ سنة تسع، وكان شهماً شجاعاً ميمون العقيبة حسن الرأي، أبلى في حروب العراق بلاءً لم ينله أحد، مات سنة ١٤ قبل معركة القادسية.

(٢) انظر الطبري جـ ٤، الكامل لابن الأثير ١٨٨/٣ وما بعدها.

فسرَّح المثنى بن حارثة قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو، ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم واحد، ثم خرج خالد ودليله رافع.

بلغ هرمز قدوم خالد إلى كاظمة فبادره إلى هناك، وعبأ جنوده وجعل على مجنبتيه أخويه قباذ وأنوشجان.

فلما أتى الخبر خالداً بأن هرمز قد جاء إلى كاظمة، أمال الناس إلى كاظمة، وبلغ هرمز ذلك فبادره إلى كاظمة، وتعبأ مع أصحابه، واقترنوا في السلاسل، والماء في أيديهم، وقدم خالد عليهم، فنزل على غير ماء، فقالوا له في ذلك؛ فأمر مناديه فنادى: ألا انزلوا وحطّوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، ولما حطت الأثقال زحف إليهم حتى لاقاهم، فاقتتلوا، وأرسل الله سحابة فأمطرت ما وراء صف المسلمين.

ثم خرج هرمز فنادى إلى النزال، فمشى خالد إليه، فالتقيا واختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، فشدَّ أهل فارس يريدون قتل خالد واستخلاص هرمز من يده، ولكن القعقاع بن عمرو لم يمهلهم وحمل عليهم، وشدَّ المسلمون، فانهزم أهل فارس أمامهم، فطاردوهم وركبوا أكتافهم إلى الليل، وأفلت قباذ وأنوشجان من القتل.

وبلغ سهم الفارس في يوم ذات السلاسل ألف درهم خلا السلاح، وما بقي من الغنائم أرسله خالد إلى أبي بكر، وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في العشائر، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف؛ ولما أرسلت أغلى قلنسوة إلى أبي بكر[1] نفَّلها خالداً، منصصة الجوهر.

---

(١) كان مما بعثه خالد إلى أبي بكر في المدينة فيل أخذه المسلمون في الموقعة، ولم يكن أهل المدينة رأوا فيلاً في حياتهم، بل لم تر بلاد العرب كلها فيلاً قبل ذلك، إلا فيل أبرهة حين حاول هدم الكعبة، فلما طاف قائد الفيل به في المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان الضخم، وتولى بعضهم الريب في أمره، بل لقد جعلت ضعيفات النساء يقلن: أمن خلق الله هذا، وخيل إلى بعضهم أنّه من صناعة الفرس، ورأى أبو بكر أنّه لا نفع فيه، فرده إلى العراق مع قائده.

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة، وعبر الفرات ليأخذه متفرقاً قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون في «المدائن» عاصمة ملكهم، فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشاً عظيماً بقيادة قارن بن قريابنس، يعاونه أميران من بيت أردشير، فأدرك فلول هرمز في المذار وضمهم إليه، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة إليه فكتب إلى خالد يستأمره ويستمده، فكان خالد هو الجواب.

وصل خالد إلى المذار وهو كامل التعبئة، فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل بداية القتال، فنهض إليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان، وأراد معقل أن يحمي خالداً مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه إلى قتل قارن، وبرز عدي بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين، فظفروا بهم جميعاً، ثم اشتبك الفريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون[١]: حرب حنق وضغينة، وبلغ بعضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفاً، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذاك، ولم يكد يفلت من الموت أحد.

ورانت الحيرة بعد وقعة المذار هذه على عقول القادة من الفرس، فخيل إليهم أن في هؤلاء العرب سرّاً لا يدركونه!! وأحبّوا أن يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها، فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين، واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التي دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار، وضايقوا المسلمين غير قليل في الوقعتين التاليتين: بالولجة وأُلّيس.

وكان خالد كعادته في الحيطة والمبادرة، فاستبقى طائفة من جيشه في البلاد التي فتحها حماية لظهره واستعداداً لمن يجترىء عليها بعد مسيره،

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٤، والكامل لابن الأثير جـ ٢.

وتقدّم إلى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعاً، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتقيا في ساعة الحرج بالجيش الفارسي من ورائه، فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان، وتردد النصر بين الفرس والمسلمين، تارة هنا وتارة هناك، حتى ظنّ الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى، ظهر أحد الكمينين، ثم ظهر الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول فتولاهم إعياء اليأس بعد إعياء المثابرة والمصابرة والمجاهدة، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد في مهربهم، فكثر فيهم القتلى والأسرى، كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب.

معركة أُلّيس

تعد وقعة أُلّيس أعجب الوقائع في فتوحات المسلمين للعراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب، وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب، ولعلها الوقعة الحاسمة في النزاع بين المجوسية والإسلام.

كان خالد بن الوليد قد أصاب يوم الولجة بعض نصارى بكر بن وائل، لمساندتهم الفرس، فغضب لهم نصارى قومهم، وكاتبوا الفرس وكاتبوهم، فاجتمعوا في أُلَّيس، فبلغ ذلك أردشير ملك الفرس الذي كتب إلى بهمن جازويه أحد قادته الكبار، وقال له: سِرْ حتى تقدم أُلَّيس بجيشك إلى من اجتمع بها في فارس ونصارى العرب.

فانطلق بهمن إلى أردشير ليستأمره فيما يريد أن يشير به، وقدَّم جابان، وأمر أن يحث السير إلى أُلَّيس، وقال له: كفكف نفسك وجهدك من قتال القوم حتى ألحق بك، إلاّ أن يُعْجِلُوك.

وصل جابان إلى أُلَّيس، وانضم إليه النصارى ومن انضم إليه من الأعاجم من بكر وجعل يستعد للقتال.

أما خالد فلم يكن على علم بنبأ جابان وجنود فارس، وإنما بلغه ما

كان من تجمع العرب النصارى بأُلَّيس، فأسرع إليهم[1].

ودارت معركة قائلة بين جيش المسلمين وجيش جابان وما اجتمع معه من نصارى وأعاجم بكر، وكان له النصر والظفر، وأرسل الغنائم إلى أبي بكر الصديق في المدينة مع رجل صارم يقال له: جندل العجلي، فلما رأى أبو بكر صرامته قال له: وَيْهاً يا جندل، وأمر له بجارية من ذلك السَّبي.

معركة الحيرة

استطاع خالد بن الوليد أن ينهي معاقل الردة، فهاجم أهل الحيرة[2] في ربيع الأول في السنة الثانية عشرة للهجرة.

وكان من أبطال معركة الحيرة ضرار بن الأزور الذي كان أول قائد في جيش خالد ينشب القتال، فكان على قتال أهل القصر الأبيض، فأصبحوا خائفين ينظرون، فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية، أو الحرب والقتال، فاختاروا الحرب، ولما اشتد القتال، وافقوا على دفع الجزية واستسلموا، والتقى بهم خالد فصالحوه على مائة ألف درهم وتسعين ألفاً، وتتابع غيرهم من أهل القصور، فبعث خالد لأبي بكر الصديق بالهدايا، فأجاز أبو بكر المعاهدة، وقبل الهدايا واحتسبها من الجِزاء.

ولما رأى زعماء هذه البلاد ودهاقينها ما تم لخالد من الظفر والنصر أتوه فصالحوه على ألفي ألفي درهم، وكتب لهم كتاباً، ولما تم لخالد فتح الحيرة صلى صلاة الفتح ثماني ركعات، لا يُسلِّم فيها، فلما أتمهنّ انصرف إلى أصحابه يقول: لقد قاتلت يوم مُؤتةَ، فانقطع في يدي تسعة أسياف، وما لقيت قوماً كمن لقيتهم من أهل فارس، ثم أقام بالحيرة وجعلها مركزاً لقيادته.

---

(١) انظر الأحداث في تاريخ الطبري ٩/٤ وما بعدها، والكامل لابن الأثير جـ ٢ معركة أليس.

(٢) الحيرة: هي النجف الآن، وهي موضع على بعد ثلاثة أميال من الكوفة، انظر: فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٥.

ثم خلف عليها القعقاع بن عمرو، ثم خرج إلى الأنبار ثم قاتلهم، وصالحهم زعيمهم شيرذاذ على ما أراد خالد، فأجلاه خالد فذهب إلى بهمن جاذويه فأخبره الخبر.

فلما فرغ من الأنبار توجه إلى عين التمر وهي بلدة قريبة من الأنبار غرب الكوفة، فاعتصم أهلها بحصن بعد أن انهزموا أمام خالد، فقاتلهم وانتصر عليهم وغنم منهم غنائم كثيرة، ثم أرسل إلى أبي بكر بالأخماس مع الوليد بن عقبة، وأخبره بالفتح.

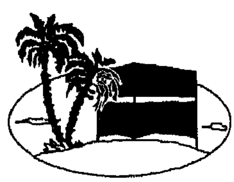
ولما وصل الوليد بن عقبة من عند خالد على أبي بكر وجهه إلى عِياض بن غنم وأمده به، فقدم عليه بدومة الجندل، وعياض يحاصر القوم وهم يحاصرونه، فأشار الوليد على عياض أن يستمده ويطلب منه المدد، فكتب خالد إلى عياض معجلاً الوصول إليه:

من خالد إلى عياض: إياك أُريد.

لبث قليلاً تأتيّك الحلائب   يحملن آساداً عليها القاشب[1]

كتائب تتبعها كتائب

أسرع خالد في السير، ولما وصل بهت وارتبك أهل الدومة، فقاتلهم مع عياض حتى هربوا إلى حصن لهم، فدخل عليهم الحصن وقتلهم وأسر منهم من أسر، وأقام خالد بدومة الجندل بعد أن أمَّن أرض العراق وفارس من المرتدين، ولكنه بقي له دور في بلاد الشام مع الروم.



(١) القاشب: هو السيف المصقول المجلو.

أبو بكر وفتح الشام

وقعة اليرموك

١ ـ موقع المعركة:

سميت بوقعة اليرموك لأن اليرموك نهر ينبع من جبال حوران، يجري قرب الحدود بين سوريا وفلسطين، وينحدر جنوباً ليصب في غور الأردن ثم في البحر الميت، وينتهي مصبه في جنوب الحولة، وقبل أن يلتقي بنهر الأردن بمسافة تتراوح بين ثلاثين وأربعين كيلومتراً يوجد وادٍ فسيح تحيطه من الجهات الثلاث جبال مرتفعة شاهقة الارتفاع، ويقع في الجهة اليسرى لليرموك[1].

وقد كان هذا الوادي هو ميدان المعركة، وقد اختاره الروم لأنه مكان فسيح يتسع لجيش كبير العدد كجيش الروم الذي يبلغ عدده مائتين وأربعين ألف مقاتل.

٢ ـ بدء تفكير أبي بكر في مواجهة الروم:

هدأت جبهة العراق وفارس واستقر أمر المسلمين فيها بعد المعارك الناجحة التي أدارها خالد، وبدأ تفكير أبي بكر رضي الله عنه في مواجهة

(١) انظر: معجم البلدان ٨/٥٠٤ بتصرف يسير.

الروم في بلاد الشام بعد عودته من أداء فريضة الحج في السنة الثالثة عشرة للهجرة، فأراد أن يعقد لواءً لخالد بن سعيد بن العاص[1]، فنهاه عمر بن الخطاب عن عقد لواء لسعيد بن العاص وقال: إنه لمخذول، وإنه لضعيف التروئة[2] فلا تستنصر به، فلم يحتمل أبو بكر عليه، وأطاع عمر في بعض أمره، وعصاه في بعض، فولى خالد بن سعيد بن العاص ثم أمر أبو بكر رضي الله عنه خالد بن سعيد أن ينزل تيماء - وهي بلد في أطراف الشام - ووادي القرى، على طريق الحاج من دمشق.

وأمره ألا يبرحها، وأن يدعوَ من حوله من العرب بالانضمام إليه، وألا يقبل إلاَّ مِمَّن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله، حتى يأتيه أمره.

خرج خالد بن سعيد من المدينة حتى نزل بتيماء، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر، فأخذوا يُعدّون عُدَّتهم، ويجمعون رأيهم.

فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، وبنزول من استنفرت الروم ونفر إليهم من القبائل.

فكتب إليه أبو بكر: أن اقدم ولا تحجم، واستنصر الله[3].

سمع خالد بن سعيد وأطاع أمر أمير المؤمنين أبي بكر فسار إليهم، فلما دنا منهم تفرقوا وتركوا منزلهم، فنزله خالد، ودخل عامة من كان قد تجمع له في الإسلام، وكتب إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه: أقدم، ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء، وفيمن لحق به حتى نزلوا القسطل، وهي بلد في طريق البحر الميت.

---

(١) خالد بن سعيد: من السابقين الأولين من المهاجرين، وقيل: كان خامس المسلمين، سبقه أبو بكر وزيد وعلي وسعد بن أبي وقاص، واستعمله النبي ﷺ على صدقات مذحج، واستشهد يوم مرج الصفر سنة ١٤هـ.

(٢) التروئة النظر في العواقب.

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٢٨/٣ وما بعدها، موقعة اليرموك سنة ١٣هـ.

أحس أبو بكر رضي الله عنه بخطورة الموقف على جبهة اليرموك، وبلغه أن الروم بدأت في تسيير جندها، وقالت الروم: والله لنشغلن أبا بكر في نفسه عن وروده بلادنا بخيوله.

لذلك فقد اتخذ عدّة إجراءات تنم عن حصانة القائد وبعد نظرِهِ وسلامة تقديره للموقف.

من هذه الإجراءات:

١ ـ عند قدوم عكرمة من عمان والبحرين أمره أن يسير إلى خالد بن سعيد وودعه خارجاً من المدينة مع جنده لكي يطمئن خالد بن سعيد ويتابع مسيرته.

٢ ـ كتب إلى عمرو بن العاص وكان على صدقات سعد وعذرة وجُذام فقال له: إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاّكه، إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ فقد وُلِّيته ثم وُلِّيته، وقد أحببت ـ أبا عبدالله ـ أن أُفرِغَكَ لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلاّ أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك.

فكتب إليه عمرو بن العاص: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها، فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي.

فأرسل إليه أبو بكر مدداً وأمره على فلسطين.

٣ ـ وكتب إلى الوليد بن عقبة، وكان على صدقات قضاعة ـ وأمره بالأردن ـ بعد أن أمده بالمدد.

٤ ـ ودعا يزيد بن أبي سفيان، فأمره على جيش عظيم، وجعل في جنده سهيل بن عمرو كرجل حرب من رجال مكة، وشيعه ماشياً.

وقال له وهو يودعه: إذا اقتربت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأ

بالخبر، وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز... واسهر الليل في أصحابك تأتك الأخبار، ولا تجبن فيجبن الناس(١).

٥ ـ وجعل أبو عبيدة أميراً على الجيش، وأمَّره على حمص، وخرج معه ماشياً مودعاً والناس من حولهم.

هكذا انتظمت جيوش الإسلام تهدر في الطرقات قاصدة بلاد الشام، كتائب تتبعها كتائب، وكان في المقدمة خالد بن سعيد، فلما وصله مدد أبي بكر بقيادة الوليد بن عقبة، أراد أن يأخذ لنفسه سبق النصر على الروم فهاجمهم وخالف ما أمره أبو بكر: «ألا تقتحمن عليهم» وكان ظهر جيشه مكشوفاً فهزمه الروم في مرج الصغر، وقتلوه ومن معه، ولما علم أبو بكر رضي الله عنه بما حدث قال: كان عمرُ وعليٌّ أعلم مني بخالد بن سعيد(٢).

وكتب أبو بكر لما خلف خالد بن سعيد من القادة أن أقم مكانك، فلعمري إنك مقدام محجام نجاء من الغمرات، لا تخوضها إلى حق، ولا تصبر عليه، ثم أذن إليه في دخول المدينة فعاد(٣) ومعه الوليد بن عقبة، واستبدل الوليد بن عقبة بشرحبيل بن حسنة(٤) الذي جعله قائداً للجيش.

وخرج القوم جميعاً لمواجهة الروم في بلاد الشام، وظل عكرمة بن أبي جهل ردءاً للناس.

علم الروم بذلك فأرسلوا كتبهم إلى هرقل ملكهم حتى جاء إلى

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير ٢/٢٠٠ وما بعدها، وفتوح البلدان ص ١٤٠ بتصرف.

(٢) حينما نصحوه بعدم اختياره لقيادة الجيش.

(٣) القائد الذي خلف خالد بن سعيد بن العاص هو خالد بن سعد الذي هرب في جماعة من الخيل.

(٤) كان شرحبيل بن حسنة مع خالد بن الوليد في العراق، وقد جاء في هذه الآونة إلى المدينة حاملاً أنباء النصر والسبي والأخماس، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام بدلاً من الوليد بن عقبة.

حمص فأعد لهم جنوداً لا حصر لها، وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وضخامة جيوشه ورجاله.

فأرسل في مواجهة المسلمين أربعة جيوش ضخمة العدد وكانت كالتالي:

١ ـ الجيش الأول بقيادة أخيه تذراق (تيودوريك) وكان عدده تسعين ألفاً في مواجهة عمرو بن العاص.

٢ ـ الجيش الثاني بقيادة «جرجة» في مواجهة يزيد بن أبي سفيان.

٣ ـ الجيش الثالث بقيادة «الدراقص» في مواجهة شُرحبيل بن حسنة.

٤ ـ الجيش الرابع بقيادة «الفيقار بن نسطوس» في ستين ألفاً، في مواجهة أبي عبيدة بن الجراح.

هاب المسلمون جيوش الروم الضخمة، ولم يكن جمعهم يزيد على واحد وعشرين ألفاً، سوى ستة آلاف تحمي ظهورهم بقيادة عكرمة بن أبي جهل، فكتبوا جميعاً لعمرو بن العاص، واستشاروه فقال لهم: الرأي أن نجتمع في جيش واحد، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم تقم على كل فرقة لمن استقبلها، لكثرة عدونا وما أعدَّ لنا.

فتواعدوا وادي اليرموك يجتمعوا به، وكتبوا لأبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمراً فكان أبو بكر رضي الله عنه مع رأي عمرو بن العاص: أن اجتمعوا في جيش واحد.

بلغ ذلك هرقل، فأمر قادته وبطارقته[1] أن يجتمعوا، وينزلوا منزلاً واسع المطرد، ضيق المهرب، وفي مقدمة الجيش قائديه «تذراق» و «جرجة» وعلى مجنبتيه باهان والدراقص، وعلى الحرب الفيقار، وقال لهم هرقل: وأبشروا فإن باهان في الطريق إليكم بالمدد.

---

(١) البطريق: هو القائد من قادة الروم، تحت يده عشرة آلاف رجل.

فعل الروم ما أمروا به من قائدهم هرقل، ونزلوا على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، ونزل المسلمون بحذاء الروم وليس للروم طريق إلا عليهم، والنهر خلفهم، فقال عمرو بن العاص: أيها الناس أبشروا حُصِرت والله الروم، وقلّما جاء محصورٌ بخير.

ظل المسلمون في مواجهة الروم شهرين كاملين لا يقدرون على شيء، ولا يقدر الروم منهم على شيء.

لذلك طلب المسلمون من أبي بكر المدد حتى لا يظلوا الشهور الطويلة، فيسأم الجند، ويضعف إيمانهم بالنصر، وتذهب ريحهم.

فقال أبو بكر: والله لأُنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد(١).

خالد قائد اليرموك

كتب الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد بالحيرة كتاباً وصله بعد انصرافه من الحج، وكان خالد قد ذهب إلى مكة حاجّاً من غير أن يعلم الناس أمر حجه، وقد جاء فيه: أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك.

وقال له يصف حال الجيش هناك: فإنهم شجوا وأشجوا(٢).

وقال له معاتباً على حجه دون إذن منه: وإياك أن تعود لمثل ما فعلت.

ويختم القائد الفذ أبو بكر الصديق رسالته لقائده بالتشجيع والشحن المعنوي ليبث في نفسه الثقة والطمأنينة فيقول: فليهنئك ـ أبا سليمان ـ(٣) النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعمل، فإن الله عز وجل له المن، وهو ولي الجزاء»(٤).

---

(١) انظر: الصديق أبو بكر لهيكل ص ٢٨٨.

(٢) أي أنهم ضاقوا بعدوهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجا في الحلق.

(٣) كنية خالد بن الوليد «أبو سليمان».

(٤) انظر: تاريخ الطبري ٢٩/٤، والكامل لابن الأثير ٢٠١/٢.

وفي نهاية الرسالة نجد أمير المؤمنين يوجه لقائده من الحديث والنصيحة ما يجعله راضياً مطمئناً في ثلاث محاور وهي:

١ ـ تهنئته بالحج والنصر بقوله: فليهنئك الله أبا سليمان، رغم أنه عاتبه على الحج دون إذن منه.

٢ ـ تذكيره بالانتصارات العظيمة التي حققها في العراق وفارس لكي تكون له ذخيرة وهو مقبل على مواجهة جيش ضخم لا قبل لأحد به، فقال له: فأتمم يتمم الله لك.

٣ ـ وحذره من الغرور والعجب وهو ما قيل أن عمر بن الخطاب عزله لهذا السبب، فقال له أبو بكر في ختام الرسالة: «ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعمل فإن الله عز وجل له المن، وهو ولي الجزاء».

وأمر أبو بكر خالداً أن يخرج في نصف الناس بالعراق، ويترك النصف الباقي للمثنى بن حارثة، وقال له في ختام رسالته: فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عَمَلِكَ(١).

صدع خالد لأمر الخليفة، فأحضر أصحاب رسول الله ﷺ واستأثر بهم لنفسه على المثنى، وترك للمثنى مثل عددهم، ممن لم يكن له مع الرسول ﷺ صحبة، ثم قسم الجند نصفين، فغضب المثنى وقال: والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله، في استصحاب نصف الصحابة، أو بعض النصف، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم، فكيف تعرّيني منهم(٢).

فلما رأى ذلك خالد تلكأ عليه قليلاً، ثم عذره وأرضاه، وأخذ حاجته وانجذب ماضياً لوجهه، بعد أن شيعه المثنى إلى حيث يريد.

وقطع خالد بجيشه بادية الشام المعروفة ببادية السماوة، وهو طريق لم

(١) انظر ابن الأثير ٢٠٧/٢.
(٢) المصدر السابق.

يعبره جيش قط قبل جيش خالد، وذلك لوعورته الشديدة وندرة الماء فيه، بل وتعرض من يسلكه للهلاك بالعطش والموت، ولكن خالد صمم على اختراق هذه البادية رغم تحذير العارفين بها، لأنه كان يريد أن يباغت العدو فينزل خلفهم حتى لا يحبسوه عن إغاثة المسلمين.

كانت مغامرة هائلة من خالد، اتسمت بالعزم والتصميم والإرادة، فقد اخترق هذه البادية واجتازها في خمسة أيام، وكلما مرَّ بجماعة من أعداء المسلمين قاتلهم وتغلب عليهم وغنم منهم، حتى وصل اليرموك في آخر ربيع الآخر من السنة الثالثة عشرة من الهجرة.

وبينما هو في طريقه إلى اليرموك، لقيه رجل من روم العرب فقال: يا خالد: إن الروم في جمع كثير، مائتي ألف أو يزيدون، فإن رأيت أن ترجع على حاميتك فافعل.

فقال خالد: أبالروم تخوفني! والله لوددت أن فرسي الأشقر «براءٌ» تَوَجِّيه[١]، وأنهم أضعفوا ضعفهم.

وقدم خالد إلى اليرموك، وعسكر أبي عبيدة مجاور لعكسر عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة مع يزيد، فعسكر خالد على حِدَة.

وقد وافق مجيء خالد مجيء باهان بمدد كثير من هرقل، فالتقى بالمسلمين، فهزموهم حتى ألجؤوهم إلى الخندق، فلزموه شهراً، فأخذ القسيسون والرهبان يحمسونهم ويحضونهم وينعون لهم النصرانية، حتى حمَّسوهم، وخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله.

عند ذلك طرح خالد على المسلمين رأياً، فقالوا: فهات، فما الرأي؟

قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون لكان في جمعكم؛ إن الذي أنتم فيه أشدُّ على المسلمين ممّا قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم،

---

(١) الوجي: أن يشتكي الفرس باطن حافره.

فالله الله! فقد أُفرِد كل رجل منكم ببلدٍ من البلدان، فليكن عليهم بعضاً اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى تتأمروا كلكم، ودَعوني إليكم اليوم، فجعلوه أميراً عليهم وقائداً للجيش.

وخرجت الروم في تعبئة لم ير الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك. ظل خالد بعد أن اجتمع تحت قيادته المسلمين شهراً ليس بينه وبين الروم قتال، ولكنه جعل هذه الفترة، فترةً لإعداد خطة محكمة لمواجهة هذا العدد الهائل من جيوش الروم، فجعل جيش المسلمين كراديس، بلغت من الستة والثلاثين إلى الأربعين كردوساً، والكردوس فرقة يتراوح عددها من ثمانمائة إلى ألف رجل، وجعل على كل كردوس رجلاً مقداماً شجاعاً، وقال خالد: إن عددكم قد كَثُرَ وطَغَى، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأي العين من الكراديس.

وجعل قلب الجيش كراديس وأقام فيه أبا عبيدة قائداً، وجعل على الميمنة عمرو بن العاص، وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وجعل لكل كردوس رئيساً يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب، وكان كل كردوس يزيد قليلاً على الألف، وجعل للجيش قاصًا يذكرهم، وكان الواعظ أو القاص أبا سفيان بن حرب، يسير فيقف على الكراديس فيقول: الله الله! إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام، وإنها زادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إنّ هذا يومٌ من أيامك، اللهم نصرك على عبادك!

ـ بدء المعركة:

أصبح الجيش مهيأً للقتال، ومعدّاً إعداداً جيداً، فأمر خالد في هذه اللحظة عكرمة بن أبي جهل والقعقاع أن يبدءا القتال.

فبرز القعقاع وهو يرتجز:

يـا لـيـتـنـي ألـقـاك فـي الـطـراد   قـبـل اعـتـرام الـجـحـفـل الـورّاد
وأنـت فـي حـلـبـتـك الـوراد

واندفع عكرمة أيضاً، والتحم الجيشان، وتطارد الفرسان، ونشبت المعركة حامية الوطيس، تطايرت فيها الرؤوس، وخطفت السيوف الأرواح.

ـ رسالة في أثناء المعركة:

جاءت رسالة من المدينة يحملها محمية بن زنيم، فأخذته خيول المسلمين وسألوهُ عن الخبر، فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم عن مدد قادم، وكان قد جاء بخبر وفاة أبي بكر رحمه الله، وتأمير أبي عبيدة، فأبلغوه خالد، فأخبره خبر أبي بكر، وأسره إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند، فقال له خالد: أحسنت فعلاً، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمرُ الجند، ووقف محمية بن زنيم مع خالد لا يبرحه.

ـ القائد الرومي المسلم:

كان جرجة قائداً من قادة جيوش الروم، وفي أثناء المعركة خرج جرجة فخرج له خالد، وأقام أبو عبيدة مكان خالد، ووقف خالد وجرجة بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتهما، وقد أعطى كل منهما الأمان لصاحبه.

فقال جرجة: يا خالد؛ أصدقني ولا تكذبني، فإن الحرَّ لا يكذب، ولا تخادعني، فإن الكريم لا يخادع... بالله!! هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟

قال خالد: لا.

فقال جرجة: فبم سميت سيف الله؟

قال خالد: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به فتابعناه، فقال: أنت سيف من سيوف الله، سلَّه الله على المشركين، ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

قال: صدقتني.

ثم قال جرجة: يا خالد أخبرني إلام تدعوني؟

قال خالد: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله.

قال: فمن لم يجبكم؟

قال: فالجزية ونمنعهم.

قال: فإن لم يُعطها؟

قال خالد: نؤذنه بحرب ثم نقاتله.

قال جرجة القائد الرومي: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم.

قال له خالد رضي الله عنه: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا.

ثم قال جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال خالد: نعم، وأفضل.

قال جرجة: وكيف يساويكم وقد سبقتموه إلى الإسلام؟

قال خالد: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبينا ﷺ وهو حيٌّ بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات، وحق لمن يرى ما رأينا، ويسمع ما سمعنا أن يُسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر بحقيقةٍ ونيّة كان أفضل منّا.

قال جرجة: بالله لقد صدقتني، ولم تخادعني ولم تَألّفني؟

قال خالد: بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحدٍ منكم وحشة، وإنَّ الله لولي ما سألت عنه.

فقال جرجة: صدقتني؛ وقلب الترس ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى خيمته فصب عليه ماء الوضوء، ثم صلى جرجة ركعتين وأصبح مسلماً بعد أن كان قائداً لجيش قوامه ستون ألفاً يقاتل المسلمين.

زحف خالد بمن معه على جيش الروم، فضرب فيهم خالد وجرجة معه من مطلع النهار إلى غروب الشمس، ثم أصيب جرجة، ولم يصلّ صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما، وصلى النّاس الأولى والعصر إيماءً لانشغالهم بالحرب[١].

ـ بيعة عكرمة على الموت:

حمل الفرس على المسلمين، وظنوا أن جرجة في حاجة إلى المدد، ولما تراجع المسلمون أمامهم، ثبت لهم عكرمة بن أبي جهل، وكان على الحامية، ونادى في الناس: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور ومعهما أربعمائة من أبطال المسلمين وفرسانهم، ودافعوا عن خيمة خالد ومركز قيادته حتى أثبتوا جميعاً جراحاً أو قتلى، ومنهم ضرار بن الأزور، وكان المكان واسع المطرد، ضيق المهرب، وتضايقت خيل الروم، فلما وجدت مذهباً ذهبت تشتد في الصحراء، وأفرج لها المسلمون، وترك فرسانهم الرجال في مصافهم، وتفرقوا في كل مذهب لا يلوون على شيء.

وأقبل خالد والمسلمون على الراجلون، غير الراكبين من الروم ففضوهم، فكأنما هدم بهم حائطاً فهربوا إلى خندقهم، فلحقهم خالد، وتساقط منهم آلاف القتلى.

وقد قال ابن كثير: فلم تر في يوم اليرموك إلاَّ مُخاً ساقطاً، أو معصماً نادراً وكفاً طائرة[٢].

---

(١) تاريخ الطبري ٤٠١/٣ الطبعة الحديثة ط العلمية.

(٢) البداية والنهاية ١٢/٧.

ووقعت الهزيمة على الروم، وقتل الله صناديدهم وفرسانهم، وقتل تذراق (تيودريك) أخو هرقل! وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو بالقرب من حمص، فجعلها بينه وبين المسلمين وجعل عليها أميراً من قبله.

وفي ذلك اليوم أبلى المسلمون وقاتلوا، حتى النساء كان لهن نصيب، يقمن بسقي الجند، ومداواة الجرحى، وأُصيب من وجوه المسلمين أكثر من ثلاثة آلاف قتلوا جميعاً إلاَّ من برأ منهم.

ولما انتهت الموقعة سلم خالد رضي الله عنه الكتاب إلى أبي عبيدة بالإمارة، ثم قال: الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت، وكان أحب إليَّ من عمر، والحمد لله الذي ولى عمر، وكان أبغض إليّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه[1].

وقسمت الغنائم فكان سهم الفارس ألفاً وخمسمائة، ثم نادى أبو عبيدة بالرحيل، فارتحل المسلمون بزحفهم حتى وضعوا عساكرهم بمرج الصغر وأقام فيها أبو عبيدة وقال: لا أبرح حتى يأتي أمر عمر.

إدارة الدولة الإسلامية في عهد أبي بكر

في عهد أبي بكر رضي الله عنه كانت الجزيرة العربية هي البلاد الحقيقية التي تدار تحت اسم الدولة الإسلامية نهائياً، وكان أبو بكر الصديق قد جزأها إلى ولايات، وعلى كل ولاية أمير من قبله، وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل في القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ، لأن أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء، وهذه ولايات الجزيرة لعهده[2]:

١ ـ مكة: وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله ﷺ.

٢ ـ الطائف: وأميرها عثمان بن أبي وقاص وهو الذي ولاه رسول الله ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٧.

(٢) الشيخ محمد الخضري في كتابه محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ص ١٩٧ وما بعدها، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ ـ صنعاء: وأميرها المهاجر بن أبي أُمية وهو الذي فتحها بعد الردة.

٤ ـ حضرموت: وواليها زياد بن لبيد.

٥ ـ خولان: وواليها يعلى بن أُمية.

٦ ـ زبيد وزمع: وواليهما أبو موسى الأشعري.

٧ ـ الخبر: وأميرها معاذ بن جبل.

٨ ـ نجران: وواليها جرير بن عبدالله البجلي.

٩ ـ جرش: وواليها عبدالله بن ثور.

١٠ ـ البحرين: وواليها العلاء بن الحضرمي.

والعراق والشام في هذه الآونة كانت أراضيهما لا تزال الحروب قائمة فيهما، وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها، ولم يكن لأبي بكر وزير، وإنما كان عمر يلي القضاء، وأبو عبيدة أميناً لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام.

وكان يكتب له زيد بن ثابت، ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان، وكان يكتب له من حضر.

جمع القرآن في عهد أبي بكر

وفي عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سوره كلها، وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة.

فقد اتخذ النبي ﷺ كتّاباً للوحي فيهم: الخلفاء الأربعة (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي)، ومعاوية، وزيد بن ثابت، وأُبيٍّ بن كعب، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس، وكان ﷺ يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن، حتى تظاهر الكتابة جمع القرآن في الصدور[1].

(١) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص ٦٩ وما بعدها.

وكما ذكرنا فلقد كتب القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ إلا أنه كان مفرق الآيات والسور، وأول من جمعه في مصحف مرتب الآيات - كما رويت محفوظة عن الرسول ﷺ - هو أبو بكر. فقد أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً.

وكان جمع القرآن في عهد أبي بكر بعد موقة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة، ففي تلك الموقعة بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، استشهد سبعون من حفظة القرآن من الصحابة، فهال عمر بن الخطاب ذلك، وجاء يقترح على أبي بكر جمع القرآن، وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إنّ القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة لم أجدها مع غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر في حياته، ثم عند حفصة بنت عمر(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن الباب الثالث والباب الرابع، وكتاب الأحكام الباب السابع والثلاثون، وفي مسند أحمد ١٣/١.

وكتب أول مصحف على ملأٍ من أصحاب رسول الله ﷺ والحفاظ منهم، ووضع هذا المصحف عند أبي بكر.

رواتب الخليفة والجند والعمال

كما عُرِف عن أبي بكر رضي الله عنه فقد كان تاجراً قبل أن يصبح خليفة لرسول الله ﷺ، واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر، ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور النّاس فقال: «لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة، وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيالي ما يصلحهم»، فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم، وكان يحج ويعتمر.

وكان الذي فرضوه له ستة آلاف درهم[1]، ولما حضرته الوفاة رضوان الله عليه قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصيب من أموالهم.

فدفع ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فقال عمر: لقد أتعب مَنْ بعده.

فمن هذا يفهم أن المبدأ الذي صاغه أبو بكر رضي الله عنه هو أن الخليفة لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وُكِّل إليه من الأمور ـ أمور العامة ـ وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال.

أما الجند فقد كانوا متطوعين لا يجمعهم ديوان، وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند، غير ما يناله القاتل من سلب القتيل، وغير ما يعطيه رئيس الجند للمتميزين منهم، وكان أبو بكر يسوي في العطاء لا يفضل أحداً على أحد.

أما العمال فإن أرزاقهم كانت مما يرد بيت المال من خمس المال

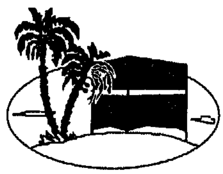
---

(١) محاضرات الشيخ محمد الخضري.

وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة، ومن ذلك كان يعطى العمّال أرزاقهم[1].

وفاة أبي بكر

توفي أبو بكر في مساء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة للهجرة، فكانت مدته في الخلافة سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، ودفن أبو بكر الصديق رحمه الله في حجرة ابنته عائشة رضي الله عنها بجوار رسول الله ﷺ، يميل يمنة قليلاً إلى الجهة الشرقية.



(١) المصدر السابق ص ١٩٩.

عمر بن الخطاب

١ ـ عمر في الجاهلية

عمر بن الخطاب، الفاروق، رضي الله عنه، ينتمي إلى بني عدي أحد بطون قريش، ولم يكن هذا البطن ذات منعة وقوة تعادل غيره من بطون قريش، ولم يكن سادته كسادة بعض البطون، كبني مخزوم وبني عبد مناف، بل لم يكن يعادل بعض فروع بني عبد مناف كبني هاشم أو بني أُمية.

ولكن المصادر تقول عن نسبه: ينتهي نسب عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى إلى كعب بن لؤي القرشي العدوي.

واشتهر بنو عدي وهم بطن من بطون قريش، بالشرف والمجد، وكانت لهم مواقف مشهورة في الإسلام. ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي رفض عبادة الأوثان في الجاهلية والتزم الحنيفية، وابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وخارجة بن حذافة الذي ولي قضاء مصر في عهد عمرو بن العاص.

ويجتمع نسب عمر رضي الله عنه مع الرسول ﷺ في الجد السابع، ويجتمع معه من جهة أُمه في الجد السادس.

وكنيته أبو حفص، كناه الرسول ﷺ بذلك لما رآه فيه من الشدة[1].

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي جـ ١ للدكتور حسن إبراهيم حسن.

وقد روى الطبري[1] أن عمر ولد بمكة قبل حرب الفجار بنحو أربع سنين، ونشأ نشأة عالية، فكان مثال الفصاحة والبلاغة والصرامة في الحق، وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه، ثم احترف التجارة، يختلف فيها إلى الشام، وهو من الرهط الذين انتهى إليهم الشرف في الجاهلية، وكانت إليه السفارة، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً، وكان عمر عزيز الجانب محترماً بين قومه، قوي الشكيمة شديد البأس.

وروى ابن الأثير أنه وُلِدَ بعد الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة.

وأم عمر هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وبنو مخزوم بطن كبير من قبيلة قريش، ظهر فيهم في الجاهلية عدد من السادة، وعُرِفَ عَدَدٌ آخر منهم بالقيادة، واشتهروا بشدة البأس والشجاعة، والقوة والقسوة، حتى سلمت لهم قريش الأعنّة والقُبّة، وكانت قبيل الإسلام بيد خالد بن الوليد.

وقد ورث عمر بن الخطاب القوة والشجاعة من مخزوم، وقسوة القلب والشدة من والده الخطاب، واللين والرّقة من بني عَدِيٍّ، وهذه هي صفات عمر البارزة في الجاهلية.

فلما أسلم زاد الإسلام فيه الشجاعة والجرأة في سبيل الدفاع عن الحق، والشدّة في دفع الباطل، واللين والرقّة على المسلمين ومن يتولى أمرهم.

وقد ولد عمر بن الخطاب في السنة الثانية والأربعين قبل الهجرة، فهو أصغر من رسول الله ﷺ، بأحد عشر عاماً، فكان عمره يوم البعثة تسعة وعشرين عاماً[2].

وقد كان الخطاب والد عمر شريفاً في قومه، لكنه لم يكن ذا مال ولا خدم.

---

(١) الطبري ١٧/٢.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد.

كتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو والياً على مصر كتاباً يسأله فيه عن أصل المال الذي جمعه بها، فغضب عمرو بن العاص وكان مما أجاب به: « . . . والله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك وقد ائتمنتني، فإن لنا أحساباً، إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك. وذكرت أن عندك من المهاجرين من هو خير مني، فإذا كان ذلك!! فوالله ما دَقَقْتُ لك يا أمير المؤمنين باباً ولا فتحت لك قفلاً».

وبلغ الغضب من ابن العاص لكتاب عمر أن قال لمحمد بن مسلمة حين ذهب إليه من قبل عمر كي يحاسبه: « . . .لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر! والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية[1]، لا تجاوز مأبض ركبتيه، وعلى عنقه حزمة حطب، والعاص بن وائل في مزرّرات الديباج».

فقال له محمد بن مسلمة: إيها عنك يا عمرو! فعمر خير منك، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار.

وإذا كان حديثنا عن عمر في الجاهلية فذلك يشمل حياته الاجتماعية، فقد كان أبوه فظاً غليظاً، وذلك مما رواه عمر نفسه، فقد مر عمر رضي الله عنه وهو في الخلافة يوماً بمكان كثير الشجر يقال له: «ضَجْنان»، فقال: «لقد رأيتني وإني لأرعى للخطاب في هذا المكان، وكان والله ما علمت فظاً غليظاً».

وفي رواية الطبري أن عمر لما مرَّ في خلافته بضجنان قال: لا إله إلا الله، المعطي ما شاء من شاء! كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف، وكان فظاً يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد. .» ثم تمثل بأبيات من الشعر جاء فيها[2]:

لا شيء فيما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويورى المال والولد

---

(١) عباءة قطوانية: بيضاء قصيرة الخمل.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ١٧/٥ وما بعدها.

لـم تـغـن عـن هـرمـز يـومـاً خـزائـنـه والـخـلـد قـد حـاولـت عـاد فـمـا خـلـدوا
ولا سـلـيـمـان إذ تـجـري الـريـاح لـه والإنـس والـجـن فـيـمـا بـيـنـهـمـا تـرد
أيـن الـمـلـوك الـتـي كـانـت نـوافـلـهـا مـن كـل أوب إلـيـهـمـا راكـب يـفـد
حـوضـاً هـنـالـك مـورودا بـلا كـذب لا بـد مـن ورده يـومـاً كـمـا وردوا

وكان الخطاب رجلاً ذكياً، موفور الاحترام في قومه، شجاعاً يخوض المعارك على رأس بني عدي في جرأة وثبات جنان.

فقد اشتركت بنو عدي في حرب الفجار، فكان على رأسها زيد بن عمرو بن نفيل والخطاب بن نفيل عمه وأخوه لأُمه[١]. ذلك أن نفيلاً كان على جيداء فولدت له الخطاب وعَبْدَنُهم، ثم مات نفيل فتزوج ابنه عمرو زوجته جيداء، وكان من أُم غيرها، وقد كان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية، وولدت جيداء لعمرو زيد بن عمرو، فكان الخطاب أخاً وابن أخ[٢]، وتقارب الرجلين في السن هو الذي جعلهما على رأس قومهما في حرب الفجار.

وفي السيرة[٣]: أن زيد بن عمرو بن نفيل اعتزل عبادة الأصنام وامتنع من أكل مما يذبح لها، وجعل يقول لقومه: «أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى منه، وتذبحوها لغير الله! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري!

ثم قال الشعر يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام[٤]. عند ذلك خاصمه الخطاب واشتد في خصومته وألَّب عليه جماعة من قريش أخرجوه من مكة

(١) الفاروق عمر، د. محمد حسين هيكل.
(٢) الأغاني للأصفهاني ١٢٣/٣ ط مصر.
(٣) سيرة ابن هشام.
(٤) ومنه:
أسـلـمـت وجـهـي لـمـن أسـلـمـت لـه الـمـزن تـحـمـل عـذبـاً زلالاً
وأسـلـمـت وجـهـي لـمـن أسـلـمـت لـه الأرض تـحـمـل صـخـراً ثـقـالاً

ومنعوه أن يدخلها، وكان الخطاب أشدهم في ذلك وأقساهم عليه.

هؤلاء هم الآباء، آباء عمر، ومنهم الخطاب الذي كان فيه شدة وغلظة، أما عمر فقد نشأ في طفولته وصباه نشأة أمثاله من أبناء قريش، ثم امتاز عليهم بأنه كان ممن تعلموا القراءة، وهؤلاء كانوا قليلين، فلم يكن في قريش كلها حين بُعث النبي ﷺ غير سبعة رجلاً يقرؤون ويكتبون.

ولما كبر عمر وشب جعل يرعى لأبيه الإبل بضجنان وغيرها من ضواحي مكة.

وقد روى ابن سعد[1] في الطبقات عن طول عمر بن الخطاب: أن مالك بن عوف رأى رجلاً قد علا الناس ثلاثة أذرع!! فقيل: من هذا؟ قالوا: عمر بن الخطاب.

وكان عمر أبيض اللون تعلوه حمرة، أعسر أيسر، في رجليه روحٌ يسرع به في مشيته.

وقد أحب عمر من أول شبابه المصارعة وركوب الخيل والفروسية، ولما أسلم لقي راعياً فقال له: أشعرت أن ذلك الأعسر الأيسر أسلم؟

فقال الراعي: الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟ فلما أجاب الرجل أنه هو، صاح الراعي: أما والله ليوسعنهم خيراً أو ليوسعنهم شراً.

وكان ركوب الخيل من أحب ألوان الرياضة إليه طول حياته، أقبل يوماً في خلافته على فرس يركضه حتى كاد يوطئه الناس، وعجب النّاس حين رأوه، فقال:

ـ وما أنكرتم! وجدت نشاطاً فأخذت فرساً فركضته.

وكان له في الحرب مواقف ورثها عن أخواله بني مخزوم، وذلك قول أبي بكر في مرض وفاته: «وودت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى

---

(١) طبقات ابن سعد ترجمة عمر.

الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يديَّ كلتيهما في سبيل الله».

ولما تم لعمر شبابه هوت نفسه إلى الزواج، وقد ورث عن قومه ميلاً لكثرة الزوجات طلباً للولد.

فتزوج في حياته تسع نسوة ولدن له اثني عشر ولداً: ثمانية بنين وأربع بنات، وكانت زوجاته على التالي:

- تزوج زينب بنت مظعون، فولدت له عبدالله وعبدالرحمن وحفصة رضي الله عنها.

- وتزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، فولدت له زيداً الأكبر ورقية.

- وتزوج أم كلثوم[1] بنت جرول بن مالك، فولدت له زيداً الأصغر وعبيد الله.

- وتزوج جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح، فولدت له عاصماً، وكانت جميلة هذه تدعى عاصية، فغير النبي ﷺ اسمها وقال لها: «**أنت جميلة**».

- وتزوج أم الحكم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، فولدت له فاطمة.

- وتزوج عاتكة بنت زيد، فولدت له عياضاً.

- ولُهيَّة فهي أم ولد، وولدها عبدالرحمن الأوسط.

- وفكيهة أم ولد كذلك، وأنجبت له زيداً أصغر ولده[2].

وقد تزوج عمر أربعاً من أولئك النسوة بمكة، وخمساً بعد هجرته إلى

---

(١) وقد فرّق الإسلام بينهما.

(٢) انظر: الفاروق عمر لهيكل، والفاروق وأسرته للأستاذ محمود شاكر.

المدينة، على أن جميعهن لم يكتمل في بيته قط، فقد فرق الإسلام بينه وبين أم كلثوم بنت جرول، وقد طلق نسوة غيرها: طلق أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وطلق جميلة التي ولدت له عاصماً، ولو أن السن امتدت به لتزوج غير أولئك النسوة التسع[1].

فقد خطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة، وهو على إمارة المؤمنين، وأرسل فيها إلى أختها عائشة، فسألت أم المؤمنين أختها في ذلك فرفضت ورغبت عنه، وقالت: إنه خشن العيش على النساء، وخطب كذلك أم أبان بنت عتبة بن ربيعة، فرفضت وقالت: يغلق بابه ويمنع خيره، ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

وما ذكرته أم كلثوم بنت أبي بكر عن شدته وغلظته، وما ذكرته أم أبان عن عبوسه وقسوة عيشه، كان بعض طبعه في شبابه، ثم لزمه سائر حياته، فلمّا اسْتُخْلِفَ كان أول دعائه قوله: «اللهم إني غليظ فليّني! اللهم إني ضعيف فقوّني! اللهم إني بخيل فسخّني!».

ولقد ورث الغلظة عن أبيه وقسوته عليه في صباه، ثم أعانته قوة بدنه من بعد على بقائها.

وقد أفادته رحلاته للشام «رحلة الصيف»، وإلى اليمن «رحلة الشتاء» وكذلك رحلاته إلى بلاد فارس والروم في تثقيف ذهنه، فقد كان جُل اهتمامه بالثقافة أكثر من التجارة، فقد لقي كثيراً من أمراء العرب وتحدث إليهم، فكان أكثر حرصاً على الكسب لزيادة علمه منه على الكسب المادي[2]، لذلك كان عمر معتداً بذاته معتزاً بنفسه، لأن طالب العلم يستهين بالمال ويذل الدنيا، لأن الحرص على المال يصرفه عن الحكمة ويزيده تعلقاً بالدنيا وإذعاناً لذوي السلطان.

وقد كان عمر رضي الله عنه في جاهليته من أشد رجال قريش على

---

(١) هيكل: الفاروق عمر.

(٢) انظر: مروج الذهب للمسعودي.

الصابئين الخارجين على دين آبائهم وأجدادهم، وأكثره جرأة عليهم، وأقساهم معاملة لهم.

فقد ذكر ابن هشام[1] في سيرته أن أبا بكر مرَّ به يوماً وهو يضرب جارية ويعذبها لتترك الإسلام، ولقد ظل يضربها حتى ملَّ لكثرة ما ضربها، عند ذلك تركها وقال: إني أعتذر إليك! إني لم أتركك إلا ملالة، وأجابته الجارية: كذلك فعل الله بك. وابتاع أبو بكر الجارية فأعتقها.

ويقول العلماء[2]: ولم يكن عمر يحارب محمداً ودعوته تعصباً وجهلاً، فقد رأيته من أحكم أهل مكة وأكثرهم علماً، وهو قد سمع من أقوال محمد ما أعجبه. فلم يزد ذلك خصومته للدعوة الحديثة إلا لجاجة وقوة، ولم يزده إلا إمعاناً في إيذاء من يستطيع إيذاءهم من المسلمين. حتى كانوا يلقون منه البلاء أذى لهم وشدة عليهم. ذلك بأنه رأى في متابعة هذا الرجل (محمد) تقويضاً لنظام مكة وإثارة للفساد فيها، ومكة ونظامها وطمأنينة أهلها أحب إليه من محمد ﷺ، ومن دعوته التي فرقت كلمة قريش وهونت مكانة البلد الحرام. والصبر على هذه الدعوة يزيد كلمة قريش فرقة، ومكانة مكة تهويناً...».

ورغم كل هذه الأقوال فقد كانت نفس عمر رضي الله عنه تضطرب وهو ينظر إلى محمد يريد التخلص منه وهو من بني هاشم، وبنو هاشم يمنعونه، وكذلك فإن الذين آمنوا بدعوته عليه السلام جماعة ذوو مكانة ينتمون إلى قبائل عزيزة تمنعهم كما يمنع بنو هاشم محمداً، فأبو بكر وطلحة بن عبيد اللّه من بني تيم بن مرة، وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص من بني زهرة، وعثمان بن عفان من بني عبد شمس، وأبو عبيدة بن الجراح من بني فهر بن مالك، والزبير بن العوام من بني أسد، ولهؤلاء جميعاً من المكانة في قبائلهم ما يقتضيها الذود عنهم إذا اعتدى معتد عليهم.

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) هيكل في كتابه الفاروق عمر ٢٧٨/١.

فلو أن عمر حاربهم وحارب محمداً معهم وألّب قريشاً عليهم لأثار بمكة حرباً أهلية أشد خطراً من دعوته، وذلك ما اضطربت به نفس عمر.

٢ ـ عمر في الإسلام

وظل هذا الخاطر يتردد في نفسه حتى أمر النبي ﷺ أتباعه بالهجرة إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم، فكانت هذه هي الأخرى مصدراً آخر من مصادر قلقه، حيث أنه رق لهم، وحز الألم في قلبه لفراقهم، فعظم الأمر عليه وثارت نفسه، وكانت ثورته في البداية على عكس ما انتهت إليه، إذ أن تفكيره كان في التخلص من هذا الأمر حتى لو أدى الأمر إلى التخلص من محمد ذاته وبالتالي التخلص من دعوته كي يريح قريشاً ويرضي قبائلها وتشتفي نفسه، هكذا كان يفكر، وكانت هذه هي حالة عمر رضي الله عنه ونفسه، ولكن الله الذي بيده مقاليد كل شيء، والذي أراد برحمته أن ينصر الإسلام بعمر بن الخطاب، حبب إليه الإسلام، وخاصة بعد أن تألم لفراق بعض المسلمين وهجرتهم، فكان تألمه ذلك سبباً في إسلامه، فلرب ضارة نافعة، فأسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة، هكذا أسلم عمر بن الخطاب، وهكذا تحدثت الروايات.

غير أن ابن كثير ذكر في «البداية والنهاية» أن عمر أسلم بعد هجرة الحبشة الأولى، وأن عدد الذين هاجروا إليها قارب التسعين بين رجال ونساء، وأن عمر ذهب بعد هجرة هذا العدد يريد النبي ﷺ وأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، فكانوا أربعين، رجالاً ونساءً، فيصبح العدد الذي سبقه إلى الإسلام على وجه التقريب مائة وثلاثون رجلاً وامرأة.

لكن عمر رضي الله عنه كان هو الفاروق الذي فرّق الله به بين الحق والباطل.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إسلامه قوياً على نفسه، قاسياً على أعداء الإسلام، فظاً مع كل من عادى محمد ﷺ، قال عنه

رسـول الله ﷺ: «**إنـي لأنـظـر إلـى شـيـاطـيـن الإنـس والـجـن قـد فـروا من عمر**»[1].

وكان يخاطبه الرسول ﷺ بعد إسلامه بقوله: «**إيها يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً قط، إلا سلك فجّاً غير فجك**»[2].

وإذا كنا قد تحدثنا عن اضطراب نفس عمر وقلقه وحزنه لهجرة المسلمين إلى الحبشة بعد أن أشار عليهم محمداً ﷺ أن يتفرقوا في الأرض فراراً إلى الله بدينهم، ونصح لهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة، ورآهم عمر يترحلون، رق لهم، وشعر بالوحشة لفراقهم، فقد روي عن أُم عبدالله بنت أبي حَثْمَة أنها قالت:

والله إنا لنترحَّل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليَّ وهو على شِرْكه، وكنا نلقى منه البلاء أذىً لنا وشدةً علينا، وقف وقال: إنّه للانطلاق يا أم عبدالله؟

قلت: نعم والله! لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

فقال: صحبكم الله.

قالت: ورأيت له رقّةً لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه، فيما أرى خروجنا.

وعاد زوجها، فذكرت له هذا الحديث الذي دار بينها وبين عمر وأنها طمعت في إسلامه، فقال لها: لا يسلم هذا حتى يسلم حمار الخطاب. كان هذا الشعور من الرجل هو السائد بين المسلمين الأولين، وقد كانوا مستضعفين، ولكن دعوة الرسول ﷺ أعزت الإسلام بعمر بن الخطاب.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٩١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦).

وتستكمل الرواية المشهورة عن إسلام عمر رضي الله، تستكمل نفسها، بأن تقول: إن عمر حزن لترحل بني قومه عن وطنهم «مكة»، بعد أن عُذّبوا وأوذوا، وجعل عمر يفكر في الوسيلة التي تنقذهم مما هم فيه إلى أن اهتدى إلى التخلص من محمد ﷺ وقتله، فغدا متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه ذُكِر له أنهم اجتمعوا بدار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، وفيما هو في طريق لقيه نُعَيْم بن عبدالله فقال له: أين تريد؟

قال: أريد محمداً، هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها! وعاب دينها وسب آلهتها، فأقتله.

قال نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟؟

قال عمر: وأي أهل بيتي؟

فأجابه صاحبه: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

فرجع عامداً إلى أخته وزوجها سعيد بن زيد، وكان عندهما خبَّاب بن الأرتّ ومعه صحيفة يقرئهما فيها سورة «طه»، فلما سمعوا صوت عمر اختفى جبّاب في مخدع لهم، وأخفت فاطمة الصحيفة، ودنا عمر من البيت، وسمع قراءة خباب، فقال حين دخل: ما هذه الهيمنمة التي سمعت؟

قالت فاطمة: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بسعيد بن زيد، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجَّها، فلما فعل ذلك قالا له: نعم، لقد أسلمنا لله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!

فلما رأى عمر ما بأُخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمداً!؟

وأجابته أخته: إنا نخشاك عليها!

قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها متى أتم قراءتها.

فأعطته فاطمة الصحيفة، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

فلما سمع خباب عبارته خرج من مخبئه وقال له: يا عمر؟ والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله يا عمر!

عند ذلك قال عمر له: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا في نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، وسار حتى ضرب الباب على رسول الله ﷺ وأصحابه، وسمع القوم صوته، ونظر أحدهم من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف، فرجع فزعاً يقول: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف!!

قال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريدا شرًّا قتلناه بسيفه.

وقال رسول الله ﷺ: «**ائذن له**».

فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجمع ردائه، ثم جذبه به جذبة شديدة، وقال له: «**ما جاء بك يا ابن الخطاب؟، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة**».

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من

عند الله، فكبَّر رسول الله تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم[1].

لقد رأت أم عبدالله بنت أبي حثمة يوم أزمعت الرحيل إلى الحبشة، رأت في عينيه الإسلام عندما أحست برقته غير المعهودة، فصدق حسها حين قالت لزوجها: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، حتى طمعت في إسلامه.

وإذا كانت روايات إسلام عمر رضي الله عنه تذكر رقته لرحيل المسلمين، وتأثره بسماع آيات سورة طه، فإننا نؤكد أن إسلامه رضوان الله عليه كان عن بينة بعدما تبين ما لهذا الدين الحنيف من أثر قوي في نفس كل مؤمن به، فيتعدى أفرادهم إلى حياة الجماعة ونظامها، لذلك دخل في دين الله بنفس الحمية التي كان يحاربه بها من قبل، وحرص على أن يكون لجماعة المسلمين نظاماً يدافعون عنه كما تدافع قريش عن نظامها.

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام وهناك رواية أخرى عن إسلام عمر تقول على لسانه: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش، فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسي، فلم أجد فيه منهم أحداً، فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها، فخرجت إليه فلم أجده، فقلت: لو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين! فجئت المسجد أريد الطواف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين، الأسود واليماني، فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! وخشيت إن أنا دنوت منه روّعته فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثياب الكعبة، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستمعاً ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف يريد بيته فتبعته، حتى أدركته، فلما سمع حسي عرفني؛ وظن أني أتبعه لأؤذيه فزجرني ثم قال: **«ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة»**، قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله فحمد الله ثم قال: **«قد هداك الله يا عمر»**، ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات، وانصرفت عن رسول الله مؤمناً بدينه.

انظر: المسند للإمام أحمد رواية قريبة منها.

فما لبث حين أسلم أن عمل بل وحرص على أن يذيع في قريش كلها خبر إسلامه، فقد روي أنه قال: «لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت على أبي جهل بابه، فخرج إليّ فقال: مرحباً وأهلاً يا ابن أختي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ وصدّقت بما بجاء به، فضرب الباب في وجهي وقال: قبحك الله! وقبح ما جئت به».

ولكن عمر رضي الله عنه لم يهتز لكل هذا، وراح يسأل النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «**بلى! والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم أو حييتم**».

قال عمر: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن!

فما لبث النبي ﷺ أن خرج في صفين أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة، ولهما تراب كأنه الطحين، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة، فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان.

ولقد عبّر الصحابة الأجلاء عن مدى تأثير إسلام عمر رضي الله عنه، فقال عبدالله بن مسعود: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلّينا.

وكان يقول: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

أما صهيب بن سنان فقد قال: ولما أسلم عمر، أظهر الإسلام ودعا إليه علانيةً، وجلسنا حول البيت حِلَقاً وطفنا بالبيت، وانتصفنا مما غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به.

٣ ـ فضائل عمر

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يخش في الحق لومة لائم، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: **«إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به»**[(١)].

ومن فضائل عمر أن القرآن وافقه في خمسة مواضع:

١ ـ أسرى بدر: فقد أشار عمر على الرسول ﷺ بقتل الأسرى، وأخذ الرسول برأي أبي بكر في الفداء، فنزل القرآن يؤيد رأي عمر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

٢ ـ الحجاب: أما في شأن الحجاب فقد أشار عمر على النبي ﷺ بأن يأمر نساءه بأن يحتجبن، لأنه يدخل عليهن البار والفاجر، فنزل قول الله عز وجل موافقاً لرأي عمر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٣ ـ تحريم الخمر: وفي تحريم الخمر دعا عمر ربه قائلاً: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

٤ ـ وفي مقام إبراهيم حين قال عمر للرسول ﷺ: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

٥ ـ وروى البخاري، أنه حين اجتمع نساء النبي ﷺ عليه غيرة، فقال لهن: عسى ربّه إن طلقن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن.

قال: فنزلت الآية ـ كذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم.

ومن فضائل عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله، وتقدم إليهم بالوعظ لهم، والوعيد على خلافهم أمره، فكان إذا صعد المنبر ونهى النّاس عن شيءٍ جمع أهله، فقال: إنّي نَهَيْتُ النّاسَ عن كذا وكذا، وإن النّاس ينظرون إليكم نظر الطير - يعني إلى اللحم - وأُقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة[1].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخاف الله عز وجل، وفي ذلك حدّث زيد بن أسلم عن أبيه: أنّ نفراً من المسلمين كلّموا عبدالرحمٰن بن عوف، فقالوا: كلِّمْ عمر بن الخطاب، فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أَنْ نديم إليه أبصارنا.

قال: فذكر ذلك عبدالرحمٰن بن عوف لعمر، فقال: أو قد قالوا ذلك! فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله في ذلك، وايم الله لَأَنا أَشدُّ منهم فرقاً منهم مِنّي.

وروى ابنه عبداللّه بن عمر موقفاً يشهد بعدله وحرصه على أموال المسلمين، فقال: اشتريت إبلاً وسقتها إلى الحِمَى، فلما سَمِنَتْ قَدِمْتُ بها، فدخل عمر السوق، فرأى إبلاً سِماناً، فقال: لمن هذه؟

فقيل: لعبداللّه بن عمر.

فجعل يقول: يا عبداللّه! بخٍ بخٍ... ابن أمير المؤمنين!

فجئته أسعى، فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟

قال: ما هذه الإبل؟

قلت: إِبل هزيلة اشتريتها وبعثت بها إلى الحِمَى أبتغي ما يبتغي المسلمون.

فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين! يا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري.

عبدالله بن عمر! خذ رأس مالك، واجعل الربح في بيت المال[1].

ويروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن عمر فيقول: رأيت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، على قَتَبٍ يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟

فقال: بعير نَدَّ من إبل الصدقة أَطْلُبُه.

فقلت: لقد أذللت الخلفاء من بعدِك.

فقال: يا أبا الحسن، لا تلمني!! فوالذي بَعث محمداً بالنبوة، لو أن عناقاً[2] ذهبت بشاطىء الفرات لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة[3].

وفي حديث عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: سألني ابن عمر عن بعض شأنه ـ يعني عمر ـ فأخبرتُهُ ـ فقال: ما رأيت أحداً قط، بعد رسول الله ﷺ من حين قُبِضَ، كان أَجَدَّ وَأَجوَدَ، حتى انتهى من عمر بن الخطاب[4].

وكان عمر بن الخطاب يحب أن يحاسبه النّاس كما يحب أن يحاسب نفسه ويحرص على ذلك، فقد قال حذيفة: دخلت على عمر فرأيته مهموماً حزيناً، فقلت له: ما يهمك يا أمير المؤمنين؟

فقال: إني أخاف أن أقع في منكرٍ فلا ينهاني أحدٌ منكم تعظيماً لي.

فقلت: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك.

ففرح عمر، وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقوموني إذا اعوججت[5].

---

(١) بيت مال المسلمين.
(٢) العناق: الأنثى من ولد الماعز.
(٣) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.
(٤) رواه البخاري.
(٥) مختصر منهاج القاصدين.

كان رحمه الله صاحب فضائل لا تحصيها صفحات قليلة كهذه، فقد كان سداً منيعاً بين المسلمين وبين الفتن، فقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك بقوله: «**هذا غلق الفتن** ـ وأشار بيده إلى عمر ـ **لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهركم**».

٤ ـ استخلاف عمر

هاجم المرض خليفة رسول الله أبا بكر الصديق رضي الله عنه، ففكر وهو في مرضه في أمر الخلافة، وجعل يقارن بين أمرين هما: أن يدع المسلمين يختارون خليفة لهم بأنفسهم، فلا يشير عليهم في الأمر برأي ولا يستخلف منهم أحداً، وله أسوة في رسول الله؟! وبهذا يعبر أيسر طريق وأهونه، وعندما طرح هذا الأمر لا بد أنه تذكر سقيفة بني ساعدة وموقف الأنصار فيها، وذكر أو لا بد أنه ذكر ما كان موشكاً أن يحدث لولا أن الله جمع كلمة المسلمين على بيعته، ولئن اختلف المسلمون حين وفاته ليكونن اختلافهم أجسم خطراً.

وكان عمر هو ما استقرت إليه نفسه، وما اطمأن إليه قلبه، فأراد رضوان الله عليه أن يجمع كلمة المسلمين باختياره عمر خليفة بعده، وهو إن استطاع أن يجمعها فذلك التوفيق من الله.

اتجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى كبار الصحابة الأجلاء يستشف آراءهم ويعرف اتجاهاتهم، وقرر أن يستشيرهم في الأمر كي يلزمهم بما أشاروا عليه به، وهو موقن أنهم سيشيرون بعمر خليفة بعده، ومن كانت له آراء أخرى فإنه يستطيع أن يقنعه بما طرح عليه من رأي، ولهذا أرسل أبو بكر إلى عبدالرحمن بن عوف، وقال: أخبرني عن عمر.

فقال: يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه، ولكن فيه غلظة.

فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه، يا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذ غضبت على رجل في شيء أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدّة عليه.

ثم التفت أبو بكر إلى عبدالرحمن رضي الله عنهما وقال: لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً.

قال عبدالرحمن: نعم.

ودعا أبو بكر الصديق عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ وقال له: أخبرني يا أبا عبدالله عن عمر بن الخطاب.

وأجاب عثمان: يا خليفة رسول الله، أنت أخبر به.

فقال أبو بكر: على ذلك يا أبا عبدالله.

قال عثمان: اللهمَّ علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله.

قال أبو بكر: رحمك الله يا أبا عبدالله، لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً.

قال عثمان: أفعل.

قال أبو بكر: لو تركته ما عدوتك، وما أدري لعله تاركه، والخيرة له ألاّ يلي من أموركم شيئاً، ولوددت أني كنت خلواً من أموركم، وأني كنت ممّن مضى من سلفكم[1].

وأراد أبو بكر أن يأخذ آراء عدد كبير من الصحابة مهاجرين وأنصار، فاستدعى من الأنصار عدداً كبيراً، ومن بينهم أسيد بن الحضير، وكذلك عدداً من المهاجرين منهم سعيد بن زيد.

خرجت أخبار هذه المشاورات من دار أبي بكر رضي الله عنه وسمعها بعض أصحاب النبي ﷺ، فأشفق بعضهم من غلظة ابن الخطاب وشدّته أن يفرق ذلك كلمة المسلمين، فاجتمع رأيهم على أن يهيبوا بالخليفة ليرجع عن عزمه، واستأذنوا فدخلوا عليه، فقال طلحة بن عبيد الله: ما أنت قائل لربك

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٢٨.

إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك؟!

وغضب أبو بكر لما سمع من ذلك وصاح بأهله: أجلسوني!! فلما أجلسوه قال ـ ولا يزال الغضب آخذاً منه مأخذه ـ: أبالله تخوفني! خاب من تزود من أمركم بظلم! أقول: اللهم استخلفت على أهلك بخير أهلك! ثم اتجه إلى طلحة فقال له: «أبلغ عني ما قلت لك مَنْ وراءك»(١).

كان هذا الحوار مصدر قلق لأبي بكر، فقد أشفق منه ألا يكون قد جمع كلمة المسلمين على خلافة عمر، وعندما التقى بعبدالرحمن بن عوف، قال له: «إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه».

وأجابه عبدالرحمن بن عوف: خَفّف عليك رحمك الله! فإن هذا يهيضك، إنما النّاس في أمرك بين رجلين: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك، وصاحبك كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا خيراً، ولم تزل مصلحاً.

ولم يكتف أبو بكر رضي الله عنه بمشورته لأُولي الرأي من المسلمين، وبخاصة بعد أن رأى من خالفه في رأيه، لذلك أشرف من حجرة بداره على المسجد، فقال يخاطب النّاس جميعاً: أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد وليت عمر بن الخطاب، اسمعوا له وأطيعوا!

وأجاب الناس: سمعنا وأطعنا.

عند ذلك رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني لم أُرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم(٢).

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/٤٢٥.

(٢) هيكل: الفاروق عمر ص ٨٨ ط دار المعارف، الطبعة التاسعة.

فلما سمع الناس دعاءه ازدادت كثرتهم اطمئناناً لما صنع.

دعا أبو بكر صاحبه عمر رضي الله عنهما فعهد إليه وأوصاه بمتابعة الحرب في العراق والشام من غير هوادة، وذكّره بما يجب عليه من ولي أمر المسلمين من تحري الحق.

والحق يقال، فإن عمر رضي الله عنه كان على هذا الأمر أشد حرصاً، ودعاه أبو بكر رضي الله عنه إلى أن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب، ليكون العبد راغباً راهباً لا يثني على الله غير الحق، فإن فعل لم يكن غائباً أحب إليه من الموت، يحاسبه الله بعده فيثيبه عن الحق واتباعه.

حمل عمر رضي الله عنه وصية صاحبه الصديق على عاتقه، وعقد العزم على تنفيذ وصاياه.

٥ - بداية عهد عمر

مات أبو بكر رضي الله عنه في مساء الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة، وفي هذه الليلة غُسِّلَ رحمه الله وحمل على السرير الذي حُمِلَ عليه رسول الله ﷺ إلى المسجد، وصُلِّيَ عليه، وقد تولى دفنه عمر بن الخطاب وعثمان وطلحة بن عبيد الله وعبدالرحمن بن عوف.

أصبح عمر رضي الله عنه يومه الأول في الخلافة، فخرج النّاس إلى المسجد، وأقبلوا على بيعته، فلما كان الظهر وازدحم الناس للصلاة، صعد عمر على المنبر درجة دون الدرجة التي كان أبو بكر عليها، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وذكر أبا بكر وفضله ثم قال: أيها النّاس! ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم.

ثم توجه عمر رضي الله عنه إلى ربه بالدعاء فقال: «اللهم إني غليظٌ فليني، اللهمي إني ضعيف فقوِّني، اللهم إني بخيل فسخِّني».

ثم توجه مرة أخرى إلى النّاس بالحديث وقال لهم: «إنّ الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيءٌ من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه الجزء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنَنَّ إليهم، ولئن أساؤوا لأنكِّلن بهم»[1].

وتذكر عمر رضي الله عنه بعد ذلك وصية أبي بكر في أمر العراق، ورأى أنّه لا بد من تنفيذها، إذ دعاه إليه وقال له: اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به! إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا متُّ فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى اللّيل فلا تُصبحن حتى تندب النّاس مع المثنى، وإن فتح الله على أُمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم.

كل هذه الوصية وردت في خاطره قبل أن يؤم النّاس للصلاة، فنزل عن المنبر فأمّ الناس للصلاة، حتى إذا فرغ منها دعا الناس للذهاب إلى العراق مع المثنى، وذكر لهم وصية أبي بكر في ذلك، وسمع الناس نداء الخليفة، فنظر بعضهم إلى بعض ثم لم يجب الدعوة منهم أحداً، وكأنما ذكروا ما أصاب إخوانهم بالشام، فلم يريدوا أن يصابوا بمثله!! فصاح بهم عمر: «ما لكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم إلى ما يحييكم».

عند ذلك وفي هذا اليوم خرجوا إلى اليرموك، لمواجهة هرقل وأمدهم أبو بكر بخالد بن الوليد بعد أن حقق انتصاراته العظيمة على الفرس، ولكن اليوم يرى عمر رضي الله عنه تثاقلاً من النّاس يحتاج إلى حكمة الخليفة ودرايته بأمر الناس.

وبات عمر ليلته الثانية، وجاءت صلاة الظهر في اليوم الثاني من خلافته فأمَّ الناس للصلاة وبعد أن أتمها صعد المنبر فازدادت الأبصار إليه

(١) المصدر السابق ص ٩١.

شخوصاً، فنظر إليهم وقال: بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأُمور إليه، ومن قال ذلك فقد صدق.

« . . .إنني كنت مع رسول الله، فكنت وزيره وخادمه، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله ﷺ حتى توفاه الله وهو عني راض، والحمد لله كثيراً وأنا به أسعد.

ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تُنكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض، فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد.

ثم وليت أُموركم أيها النّاس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خدّه على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يُذعِنَ بالحق، وإلى بعد شدتي تلك أضع خدّي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف.

ولكم عليَّ أيّها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها:

ـ لكم عليَّ ألا أحتثي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه.

ـ ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه.

ـ ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسد ثغوركم.

- ولكم عليَّ ألاَّ ألقيكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركم[1]، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال.

فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفِّها عنّي!! وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاّني الله في أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

كانت هذه رسالة واضحة من عمر رضي الله عنه في بداية عهده، تبين أنه رجلاً صريحاً، ظاهره كباطنه، وسره كعلانيته، وعرفوه رجلاً عادلاً مع ما فيه من شدة وغلظة، وها هو ذا يذكر لهم أن شدّته لن تكون إلا على الظالمين، وهو لا يخدعهم حين يقول أنه سيكون لأهل السلامة والقصد ألين من بعضهم لبعض، ووعدهم أن يزيد في عطاياهم وأرزاقهم، وأن يكون أباً لعيالهم إذا غابوا عنهم في الحرب.

هكذا بدأ عمر رضي الله عهداً واضحاً في عزمه على الحرب، وعزمه على تحقيق السلم والأمان للمسلمين ولأسرهم وعائلاتهم، وطلب منهم أن يشاركوه المهمة الصعبة التي أُلقيت على عاتقه، فقال لهم: أعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاّني الله من أمركم.

وبذلك يكون أوضح لهم أنه لن يكون متسلطاً على عادل مؤمن، ظالماً لصاحب حق أبداً. وسيشاورهم في كل أمر، ويسمع نصيحتهم في كل وقت إذا كانت في الحق وللحق فقط.

٦ - تعبئة الجيوش إلى بلاد فارس

لم يجد عمر رضي الله عنه حماساً من الزعماء وأولي الأمر، لتلبيته دعوة الجهاد، وفكر في أمر هؤلاء، فإذا تثاقلوا فإن غيرهم سيكون أشد تثاقلاً، لذلك قرر أمراً خطيراً جريئاً، فيه حكمة القائد وحصافة الأمير، فقد نادى الناس في صوت جهوري وهو في المسجد يأمرهم أن يردوا سبايا أهل

(١) تجمير الجيش: جمعهم في الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم.

الردّة إلى عشائرهم، ويعلل ذلك بقوله: «إني كرهت أن يصير السبي سُنّة في العرب».

كان وقع هذا الأمر على الناس شديداً، وجعلوا يتساءلون بينهم: ماذا أراد به؟

لقد سبى المسلمون من العرب في حروب الردّة تنفيذاً لأمر أبي بكر حين أذاع في أرجاء الجزيرة أنه أمر كل قائد من قواده ألاّ يقبل من مرتد إلاّ الإسلام، ومن أبى يقاتله على ذلك، ولا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة، ويسبي النساء والذراري.

أفيريد عمر أن يخالف أبا بكر وأن يجري على غير سنته؟ أم أنه رأى الناس تقاعسوا حين ندبهم للذهاب مع المثنى فأراد أن يستميل العرب من مختلف القبائل إليه ليمد المثنى بهم؟

أيّا ما كان الأمر، فما أمر به عمر جديد في سياسة الدولة، يوقف النظر، ويوجب التساؤل[١].

ولكن عمر رضي الله عنه بيَّن للناس أنه ماض في سياسته رغم قول البعض يجب أن يكون من المهاجرين أو الأنصار، إلا أن عمر رضي الله عنه أراد أن يستميل العرب من مختلف القبائل إليه ليمد المثنى بهم.

وبالفعل ذهب إليه بعض الناس يقولون له: أمِّر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار.

لكن ترددهم الثلاثة أيام الأولى من خلافته قد حزّ في نفسه، وأحفظه عليهم، لذلك لم يتردد رضوان الله عليه أن أجابهم: لا والله لا أفعل! إن الله إنّما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإن جَبُنْتم وكرهتم اللقاء[٢] فأولى

(١) الفاروق عمر، هيكل ص ٩٢.

(٢) يقصد به الجهاد ولقاء العدو.

بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء. والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً.

ثم دعا أبا عبيد الثقفي فولاه الإمارة، ودعا سعد بن عبيد وسليط بن قيس وقال لهما: «أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إليَّ».

عندئذ اطمأن المثنى بن حارثة[1] القائد العام لجيوش المسلمين على جبهة العراق وفارس، اطمأن حين رأى هذا الجيش يتأهب للسير معه إلى العراق، أما عمر فرأى ألا حاجة بالمثنى إلى البقاء بالمدينة، ولذلك أمره أن يرجع إلى العراق فيلحق بقواته فيه، وكان المثنى قد جاء إلى المدينة يستمد الخليفة، فحضر وفاة أبي بكر، وكان خالد قد ذهب بنصف جيشه إلى الشام لمواجهة الروم.

وودع عمر المثنى وقال له: «النجاء حتى يقدم عليك أصحابك..». ولما بدأت القوات تستعد للرحيل انتبه عمر رضي الله عنه إلى أمر حتى لا يستبعد هؤلاء القادة الجدد مثل أبي عبيد الثقفي أصحاب رسول الله من المشورة وطلب الخبرة والرأي، فقال لأبي عبيد يوصيه: «اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف».

ها هو عمر رضي الله عنه يكشف عن قيادة فذة كامنة في داخله، فقد استطاع في أربعة أيام أن يحل مشكلة القيادة والتعبئة، ولا يقف تفكيره عند حد معين، بل انطلق يقلب صفحات إدارته الناجحة السريعة فيقنع المعترض ويستبدل المتردد، بل ويدفع به كما لو كان معه في الرأي والحماسة، ذلك لأن عمر كان يؤمن بأنه على الحق، وأن الله مؤيده لذلك لا محالة.

أما على جبهة الشام، فقد كان الجميع يعرف رأيه مسبقاً في خالد بن الوليد، وخاصة ما كان في حروب الردة في حادث مالك بن نويرة، وتوصية

---

(١) المثنى بن حارثة قائد عظيم لا ريب، لكنه ليس من قريش وليس من أصحاب رسول الله ﷺ، بل هو من بني بكر بن وائل.

عمر لأبي بكر بأن يعزل خالداً عن القيادة، وكذلك خروجه من العراق وعبوره طريقاً خطراً للحاق بجيوش المسلمين في الشام بأمر أبي بكر.

وها هو خالد قد مر عليه شهر أو أكثر في مواجهة الروم ولم يتغلب عليهم، فجاءت الفرصة مؤاتية لعزل خالد، فكتب إلى أبي عبيدة غداة وفاة أبي بكر، يخبره بوفاة الخليفة، ثم كتب بعزل خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة إمارة الجيش مكانه، وأن يكون خالد أمير اللواء الذي كان أبو عبيدة أميره، وقد حمل رسالة وفاة أبي بكر مولى عمر «يرفأ»، وحمل رسالة عزل خالد «محمية بن زنيم، وشداد بن أوس»[١]، وأوصى أبا عبيدة في كتاب توليته بقوله:

«لا تُقدِم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كَثْفٍ من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في هلكة! وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغمض بصرك عن الدنيا وألهِ قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيتم مصارعهم!»[٢].

وكان لأمر عمر رضي الله عنه برد السبي من أهل الردة إلى عشائرهم أثراً عظيماً، فقد كسب بذلك قلوبهم، وأقبلوا سراعاً من كل حدب يلبون دعوته يريدون أن يأخذوا في الحرب بنصيب يطهرهم من سابق ردّتهم، ويجعل لهم ولذويهم من مغانم الحرب ما لسائر المسلمين.

وقد كان هذا القرار منسجماً مع روح الإسلام ودعوته، إذ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فكل الناس لآدم وآدم من تراب، والتسامح فيما يردُّ اعتبار هؤلاء الناس من ذوي العشائر والقبائل الضاربة في تاريخ

---

(١) انظر كل هذه الأحداث في تاريخ الطبري السنة الثالثة عشرة، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية.

(٢) تاريخ الطبري، وكان يمكن إعلان وفاة الخليفة وعزل خالد، لكن أبا عبيدة آثر إخفاء هذا السر ومعه خالد حتى انتصروا على الروم في نهاوند. وذلك كما ذكرنا أحداثها في خلافة أبي بكر.

الجزيرة، كل هذا جعل عمر رضي الله عنه مطمئناً إلى توفيق الله في معالجة الموقف الدقيق لجيوش المسلمين خارج شبه جزيرة العرب.

وقد كان الأمر في عزله لخالد يرجع إلى أسباب تكون شخصية أو عامة، وقد تحدث عنها المؤرخون كثيراً، إلا أن الشكل العام لعزل خالد جعل فكرة القيادة لفئة واحدة هم المسلمون الأوائل تتراجع أمام روح المساواة والمصالح العامة، التي ستصنع دولة إسلامية قوية في المستقبل على يد عمر وخالد أيضاً.

٧ ـ فتوحات العراق وفارس

قلنا: إن عمر لما فرغ من أبي بكر ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر، ومن الليلة التي مات فيها أبو بكر، ثم أصبح فبايعه الناس، وندبهم إلى فارس، وتتابع النّاس على البيعة، ففرغوا في ثلاث، كل يوم يندبهم، أي يطلبهم إلى الجهاد فلا ينتدب أحدٌ إلى فارس، وكان وجه الفرس من أكره الوجوه إليهم، وأثقلها عليهم، لشدّة سلطانهم وشوكتهم وعزِّهم وقهرهم الأُمم، فلما كان اليوم الرابع عاد عمر فطلب الناس للخروج إلى فارس والعراق، وتكلم المثنى بن حارثة فقال: يا أيها النّاس، لا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تمكنا وتوسعنا وتبحبحنا في ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقَّيِّ السواد[1] وشاطرناهم، ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها.

وقام عمر في الناس فقال: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجمة[2]، ولا يَقْوى عليه أهله إلاّ بذلك، أين الغرباء المهاجرون عن موعود الله؟ سيروا في الأرض الذي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها؛ فإنه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، والله مظهر دينه، ومعز ناصره ومُوَلٍّ أهله مواريث الأرض، أين عباد الله الصالحون؟!

---

(١) السواد قرى العراق وضياعها، انظر الطبري ٦٢/٤، وابن الأثير جـ ٢.

(٢) النُّجمة: طلب الكلأ والمرعى في موضعه.

فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، ثم ثَنَّى سعد بن عبيد وسليط بن قيس، فلما اجتمع ذلك البعث، قيل لعمر: أمِّر عليهم رجلاً من السابقين، من المهاجرين والأنصار.

فرفض عمر رضي الله عنه كما ذكرنا آنفاً، وقال: سأولي بالرئاسة منكم من سبق إلى الدفع، وأجاب إلى الله، والله لا أُؤَمِّر عليهم إلاّ أولهم انتداباً.

ثم دعا أبا عبيد فأمّره، ودعا سليطاً وسعداً، فقال لهما: إنكما لو سبقتماه لوليتكما.

ثم أوصى أبا عبيد بأخذ المشورة من أصحاب النبي ﷺ والسماع منهم، وإشراكهم في الأمر، وأوصاه ألا يتسرع في الحرب حتى يتبين.

وعَجَّل المثنى إلى عسكره، وأبو عبيد بمن معه، وكانوا خمسة آلاف في أَثَرِه، وصار أبو عبيد يستنفر من يمر بهم من العرب؛ فأجابه كثير منهم، ووصل المثنى إلى الحيرة، وجاء بعده أبو عبيد بقليل.

وكان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم «آرزميكخت» ملكةً، واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس، قائداً عاماً للجنود الفارسية، ودانت له الفرس حينما ورد أبو عبيد مع جنوده، وكان أول ما صنع رستم أن كتب إلى «دهاقين السواد» وهم رؤساء الأقاليم وزعماء فلاحي العجم، كتب إليهم أن يثوروا بالمسلمين، ودس في كل مجموعة من القرى رجلاً يقود ثورة أهله، وكان ممن أرسله «جابان» و «نرسي» من القواد، فأثاروا النّاس من أعلى الفرات إلى أسفله، واجتمع جندٌ عظيم قام في موضع اسمه: «النمارق».

أما المثنى فقد نزل على مكان قرب الكوفة يقال له: «خَفّان» ثم تلاحم الجيشان، واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت الفرس وأُسِرَ جابان، كما أُسرَ قائدٌ تحت إمرته يدعى مروان شاه، فأما آسِرُ مروان شاه فقتله، وأما آسر جابان فقد خدعه جابان، فقال له: إنكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمنني وأُعطيك كذا وكذا؟ قال: نعم. قال: فأدخلني على ملككم

حتى يكون ذلك بمشهد منه، ففعل، وأجاز أبو عبيد أمانه.

ولما علم بنو تميم أنه الرئيس، قالوا لأبي عبيد: اقتله فإنه الأمير.

قال: وإن كان الأمير؛ أيؤمّنه صاحبكم وأقتله أنا! معاذ الله، ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم.

وقسم أبو عبيد الغنائم بعد هذه المعركة التي أطلق عليها معركة النمارق، والنمارق موضع قرب الكوفة من أرض العراق وقد جرت فيه المعركة(١).

وكان في الغنائم عطراً كثيراً ونَفَل، وبَعَث أبو عبيد الأخماس إلى عمر بالمدينة، فكانت مناوشات النمارق بداية مشجعة في فتح العراق وفارس.

ولعل أهم معارك الفتح الإسلامي التي تلت هذه البداية في النمارق هي ثلاث معارك حاسمة، تتابعت جميعاً وبنيت نتائجها العسكرية بعضها على بعض، بعدها دانت فارس والعراق بدين الإسلام، وهذه المعارك هي:

١ ـ معركة الجسر.

٢ ـ معركة البويب.

٣ ـ معركة القادسية.

١ ـ معركة الجسر(٢)

لما انهزم الفرس يوم النمارق قال رستم لأحد قادته واسمه نَرْسي: اشخص إلى قطيعتك فاحمها من عدوك وعدونا، وكن رجلاً.

وفي يوم النمارق لما رأى أبو عبيد المنهزمون متوجهين نحو «نرسي» نادى بالرحيل، وقال لجنده: اتبعوهم.

---

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون ٨٧/٢.

(٢) كانت تسمى بالمروحة أو قُسّ الناطف وهو اسم المكان الذي دارت به بالقرب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقي، انظر معجم البلدان ٨٨/٧، وفتوح البلدان ص ٢٥٢.

فلما رأى الفرس جند أبي عبيد تطارد رجالهم، وجهوا لهم جيشاً ليعين نرسي ويساعده، وعلى رأس هذا الجيش «الجالينوس»، ولكن أبا عبيد أسرع وعاجل الفرس قبل أن يصلهم الجالينوس بالمدد، وكان المثنى على تعبئته الماضية، فالتقوا بالسَّقاطيّة[1] واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت فارس وهرب نرسي، وغلب المسلمون على أرضه وعتاده وعسكره، وخرَّب أبو عبيد ما كان حول معسكرهم، وجمع الغنائم، فرأى من الأطعمة شيئاً عظيماً، فبعث فيمن يليه من العرب، فانتقوا ما شاؤوا، ولكنهم فضلوا طعاماً يأكله الفرس على ما في خزائن نرسي من أموال، فاقتسموه وجعلوا يطعمونه الفلاحين.

وجاء زعماء الفلاحين العجم ورؤساء الأقاليم بآنية من طعام فارس، فلم يأكل منها حتى أكل مثله جميع جنوده.

وأقام أبو عبيد بمدينة كسكر، وسرَّح المثنى وغيره من القواد، يغيرون على النواحي ويهزمون عصابات الجنود المتفرقة هناك، ثم صالحه من خاف ممن بقي منهم.

وارتحل أبو عبيد، وقدم المثنى في تعبئته وجنده حتى قَدِم الحيرة واستقر بها.

من هذه المعركة رجع «الجالينوس» منهزماً، ومعه جنوده في يوم السقاطية، فقال رستم: أي العجم أصبر على العرب فيما ترون؟

قالوا: بهمن جاذويه، فوجهه ومعه الفيلة، ورد الجالينوس معه، وقال لبهمن: قدِّم الجالينوس، فإن انهزم مرةً أُخرى فاضرب عنقه.

وسار «بهمن» من المدائن قاصداً مواجهة المسلمين والقضاء عليهم، ومعه راية كسرى، وكانت من جلود النمور، عرضها ثمانية أذرع، في طول اثنتي عشرة ذراعاً، ونزل «بقُسّ الناطف»، وهو موضع قريب من الكوفة.

(١) قرية من واسط في العراق.

وأقبل أبو عبيد فنزل المروحة، وعسكر بها، وجعل نهر الفرات بينه وبين العدو، فبعث إليه بهمن جاذوية قائد الفرس: إما أن تعبروا النهر إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبر إليكم.

فقال الناس: لا تعبر يا أبا عبيد، ننهاك عن العبور، فحلف ليعبرن الفرات إليهم.

فناشده سليط بن قيس ووجوه المسلمين، وقالوا: إن العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا، وإنهم قد احتشدوا لنا واستقبلونا بالعدد والعدة بما لم يلقنا به أحد منهم، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجالٌ وملجأ ومرجع من فرّة إلى كرّة[1].

فقال: لا أفعل! جبنت والله إذاً وجبُن سليطاً.

فردَّ عليه سليط بقوله: «أنا والله أجرأ منك نفساً، وقد أشرنا عليك بالرأي فستعلم».

وتعجب كل العجب أن يقف أبو عبيد من أصحابه هذا الموقف، ووصية عمر بن الخطاب ما زالت كلماتها ترن في أذنه، لقد أوصاه أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ، وأن يشركهم معه في الرأي، وأن يقيم لرأي سليط وزنه، وأعجب من ذلك أن ينسى قول عمر: «إنك تقْدمُ على أرض المكر والخديعة والخيانة، تقْدم على قوم قد جرؤوا على الشر فعملوه».

كان جند المسلمين دون العشرة آلاف، ومع ذلك ضاق بهم المكان الذي تركه لهم الفرس وراء الجسر، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرَّة إلى كرَّة، ولم يمهلهم بهمن حين تم عبورهم أن أمر جنوده فحملوا عليهم، وفي مقدمتهم الفيلة عليها الجلاجل، ونظرت خيول المسلمين إلى هذه الفيلة وسمعت رنين جلاجلها، فأنكرت ما رأت وما سمعت، وفرت فلم يثبت منها إلا القليل على كرّه. ورشق الفرس المسلمين بالنبل، فقتلوا منهم خلقاً

---

(١) تاريخ الطبري أحداث السنة ١٣ هجرية.

كثيراً، وحزَّ الألم في نفوس المسلمين لما أصابهم وألا يصلوا إلى عدّهم، ورأى أبو عبيد أن صفوفه توشك أن تضطرب، فترجل وترجّل جنوده، ومشوا إلى الفرس فصافحوهم بالسيوف فقتلوا منهم ستة آلاف، فاشتد بذلك ساعدهم، لكن الفيلة تقدمت إليهم فجعلت لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم، ونادى أبو عبيد رجاله أن يقطعوا بطن هوادج الفيلة وأن يقلبوا عنها أهلها وأن يقتلوهم، ففعلوا فلم يتركوا فيلاً إلا قلبوا رحله وقتلوا أصحابه، بذلك تداول الفريقان التقدم والتراجع فكانت المعركة سجالاً بينهما الساعات من النهار[١].

كان أبو عبيد بن مسعود الثقفي شديد الحرص على أن ينتصر ذلك اليوم، وزاده حرصاً ما كان من مخالفته سليط بن قيس والذين أشاروا عليه ألا يعبر الجسر إلى عدوه، فلو أن النصر تم للفرس لركبه عار الهزيمة وحده، ولكان هذا العار مسبّة الدهر له، لذلك كان مضطرب النفس تتداوله الانفعالات كلّما تغير مصير المعركة، يغتبط ما رأى الفرس يتراجعون، فإذا تقدموا ملكته خشية العار ودفعته للمغامرة.

ونادى أبو عبيد على أن يتم قطع بطن هوادج الفيلة، فتم له ذلك، وقلبوا عنها أهلها، وفعل القوم ذلك، فما تركوا فيلاً إلا حطوا رحله، وقتلوا من كان عليه، ووثب هو على الفيل الأبيض، فقطع بطانه، فوقع الذين عليه، وضرب خرطومه بالسيف، ولكن الفيل تقدم إلى أبي عبيد وضربه برجله، فألقاه على الأرض، ثم وقف فوقه فأزهقَ روحه.

فلما بَصُر به الناس تحت الفيل خشعت أنفسُ بعضهم، ثم أخذ اللواء الذي أَمَّره بعده، فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد، فأخذه المسلمون فأَحرزوه، ثم قتل الفيل، وتتابع سبعة من ثقيف، كلهم يأخذ اللواء، ويقاتل حتى يموت، ثم أخذ اللواء المثنّى فهرب عنه النّاس.

فلما رأى عبدالله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه، وما يصنع

---

(١) الفاروق عمر لهيكل.

بادرهم إلى الجسر فقطعه، وقال: يا أيها الناس، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا، وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر، فتواثب بعضهم إلى الفرات، فغرق من لم يَصْبِرْ.

وخشي المثنى أن تعم الفوضى، فوقف واللواء بيده ينادي: يا أيها النّاس، أنا دونكم فاعبروا على هنيتكم ـ أي متمهلين ـ ولا تدهشوا؛ فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب، ولا تُغْرِقوا أنفسكم.

فعبروا الجسر، وعبداللّه بنُ مرثد قائم عليه يمنع النّاس من العبور، فأخذوه وأَتَوْا به إلى المثنى فضربه، وقال: ما حملك على الذي صنعت؟ قال: ليقاتِلوا.

وقاتل عروة بن زيد الخيل قتالاً شديداً، وأبو محجن الثقفي، وقاتل أبو زبيد الطائي، حميَّةً للعربية، وكان نصرانيًّا قدم الحيرة لبعض أمره.

ونادى المثنى؛ من عَبَرَ نجا، ثم أصلح الجسر، فعبر النّاس، ثم عبر بمن معه إلى المروحة وهو جريح، ثم ارفضَّ عنه أهل المدينة حتى لحقوا بالمدينة، وسار بعضهم في البوادي استحياء من الهزيمة(١).

وبعث المثنى بخبر الهزيمة إلى عمر بن الخطاب مع عبداللّه بن زيد، فلما انتهى إليه قال: ما عندك يا عبدالله؟ فأخبره خبر النّاس، قالت عائشة ـ وقد سمعته يحدِّث عمر ـ: ما سمعت برجل حضر أمراً فحدَّث به كان أثبت خبراً منه.

فلما قدم جمع الناس المنهزمين، ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفرار قال: لا تجزعوا يا معشر المسلمين، أنا فئتكم؛ إنما انحزتم إليَّ.

ثم قال: اللهم كل مسلم في حلٍّ مني، أنا فئة كل مسلم، من لقي

(١) تاريخ الطبري ٦٧/٤، الطبعة الحسنية مصر.

العدو فقطع بشيء من أمره فأنا له فئة، يرحم الله أبا عبيد! لو كان انحاز إلي لكنت له فِئة.

وسمع معاذ القارىء ـ وكان ممن شهد وفرّ ـ من يقرأ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٦] فبكى!!

فقال له عمر: لا تبك يا معاذ، أنا فئتك، وإنما انحزت إليَّ.

وفي هذا الموقف يذكرنا عمر رضي الله عنه من هؤلاء الذين فرّوا راجعين إلى المدينة بعد هزيمتهم بالجسر بموقف النبي ﷺ من الجند المسلمين الذين عادوا من غزوة مؤتة بعد إذ قُتِل قوّادهم فيها، فانسحب خالد بن الوليد بمن بقي منهم ورجع بهم إلى المدينة غير منتصر على عدوه، فجعل أهل المدينة يحثون على هذا الجيش التراب ويقولون: «يا فُرّار! فررتم في سبيل الله».

فيقول رسول الله ﷺ: «**ليسوا بالفُرّار ولكنهم الكرّار إن شاء الله**».

ولم يكن ارتداد المسلمين بمؤتة كهزيمتهم بالجسر فظاعة وسوء أثر، ولم يكن عمر كرسول الله رحمةً ورقة، ومع ذلك كان رؤوفاً بمن نكبوا في الجسر، بل كان فئتهم، وقف بجانبهم ودافع عنهم.

كان هذا ما حدث مع من رجعوا من معركة الجسر، وكان هذا شأن عمر معهم، أما المثنى بن حارثة فتحصن بأليس بعد قتل جابان ومردانشاه وجنودهما، ولكن المعركة لم تنته إلى هذا الحد مع الفرس، فالمثنى بن حارثة الرجل الذي قال عنه أبو بكر: هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني.

هذا الرجل لن يترك ثأر يوم الجسر أو دماء الناس وأبطال المسلمين تذهب سدى في مهب الريح، فله لقاء عظيم في يوم البويب مع جيش الفرس ليكسر شوكتهم ويرد للمسلمين انتصاراتهم.

٢ ـ معركة البويب[١]

أ ـ ما قبل المعركة:

بلغت الهزيمة بالمسلمين مبلغها يوم الجسر، ودعا عمر الناس إلى الخروج للمثنى بن حارثة، وكان فيمن دعاهم جرير بن عبدالله البجلي في قومه من بجيلة[٢]، وعصمة بن الحارث فيمن تبعه من ضبَّة، وكتب إلى أهل الردّة يستنفرهم، ولم يوافِهِ أحدٌ إلاَّ أرسله إلى المثنَّى، فتوافى إليه جَمْعٌ عظيم.

وبلغ رستم والفيرزان ما عليه المثنى، وما ينتظره من المدد، فجمعا جنداً عظيماً جعلا عليه القائد مهران الهمذاني وأَمَرَاهُ أن يسرع السير للقاء هؤلاء الغزاةِ المسلمين!

وعرف المثنى بن حارثة بخبر هذا الجيش، فأرسل إلى جرير وعِصمة وكل من أتاه مُمِدًّا له يُعْلِمُهمْ بالخبر، ويُواعِدُهم البُوَيب.

فانتهوا إلى المثنى وهو بالبويب، ومهران بإزائه من وراء الفرات، وقد أرسل إلى المثنى: إمّا أن تعبر إلينا، وإمّا أن نعبر إليك، فقال المثنى: اعبروا؛ فعبره مهران، ونزل مع جنده على شاطىء الفرات. ولم يكن المثنى قد نسي ما أصاب أبا عبيد حين عبر النهر يلقى ذا الحاجب، وكان عمر رضي الله عنه قد أهاب به بعد غزوة الجسر ألا يعبر نهراً قبل أن يتم له النصر، لذلك بعث إلى مهران أن اعبروا أنتم، وعبر الفرس إلى البويب، وتعبؤوا في صفوف ثلاثة، مع كل صف فيل.

---

(١) رجعنا لمعركة البويب وأحداثها في تاريخ الطبري ٧١/٤، وابن الأثير، وتاريخ ابن خلدون ٩٠/٢.

(٢) لما ندب عمر جرير قال له: اخرج حتى تلحق المثنى، فقال جرير: «بل الشام فإن أسلافنا بها»، قال عمر: بل العراق فإن في الشام كفاية، ولم يزل عمر ببجيلة وهي قبيلة جرير حتى جعل لهم الربع في خُمس الفيء يضاف إلى نصيبهم في الفيء فوافقوا.

ب ـ تعبئة الجيش:

خرج المثنى على فرسه الشموس، وكان لا يركبه إلا لقتال، وكان الفرسُ يدعى الشموس للين عريكته، وطاف المثنى راكباً في صفوف جنده يعهد إليهم عهده ويحضهم ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم، فكان يقف عليهم رايةً رايةً يقول: إني لأرجو ألا تؤتى العرب من قِبَلِكم، والله ما يسرّني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم، فكانوا يجيبونه بمثل قوله.

وكان يوم البويب في شهر رمضان، وإذ كان الشهر رمضان، فقد نادى المثنى في المسلمين قائلاً: أيها النّاس إنكم صُوام، والصوم مَرَقّة ومضعفة، وإني أرى من الرأي أن تفطروا فتقوَوْا بالطعام على عدوكم.

وأجابه الناس إلى ما طلب، فأفطروا، وسمع المثنى من جانب الفرس زجلاً يرددونه وهم يقتربون، فقال: «إن الذين تسمعون فشل، فالزموا الصمت وأتمروا همساً».

وجعل الناس يستمعون إلى المثنى وهو يتحدث إليهم منصفاً إياهم جميعاً، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً أو فعلاً، بل ازدادوا له حُبًّا وبه تعلقاً.

فلما قال لهم: إني مكبر ثلاثاً فتهيؤوا ثم احملوا مع الرابعة»، تهيأت الرايات جميعاً تنتظر الشَّدَّة على العدو، وهي أشد ما تكون حماساً واغتباطاً بلقائه، وحرصاً على الظفر به والنصر عليه.

جـ ـ بدء المعركة:

ولم يكبر المثنى أول تكبيرة حتى أعجل الفرس العرب وعاجلوهم فشدوا عليهم، واختلت لشدة الفرس بعض صفوف المسلمين من بني عِجْل، فأرسل المثنى يقول لهم: إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: لا تفضحوا المسلمين اليوم.

فاعتدل بنو عجل وشدوا مع سائر الجند على الفرس، ورأى المثنى أن

المعركة تترجح حامية الوطيس بين الفريقين، وأنها تؤذن أن تطول، ففكر في الوسيلة التي يكفل بها النصر للعرب والمسلمين، وذلك بأن يحمل على قائد الفرس فيقتله، ولينفذ هذا الأمر دعا إليه أنس بن هلال النمري ثم دعا ابن مردي الفهر التغلبي، وقال لكل منهما: «إنّك امرؤ عربي وإن لم تكن في ديننا، فإن رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي».

وحمل المثنى على مهران حملة قوية فأزاله حتى دخل في ميمنته، ورأى الفرس ما حدث فاندفعوا يحمون قائدهم، فاجتمع القلبان وثار التراب، فلا يعرف أي الفريقين لمن منهما الغلب، وانكشف الغبار لحظة رأى فيها المسلمون تراجع قلب جيش الفرس، فحملت عليهم الميمنة والميسرة فدفعوهم إلى ناحية النهر يبتغون النجاة، والمثنى في أثناء ذلك يحرض جنده ويرسل إليهم من يقول لهم: عاداتكم في أمثالكم، انصروا الله ينصركم، فيزداد المسلمون حماسة وشدة على العدو وضرباً في صميمه[1].

وجرح مسعود بن حارثة الشيباني أخو المثنى يومئذ جرحاً بليغاً، كما جرح معه من المسلمين.

ولما جرح مسعود بن حارثة تضعضع من معه، فقال: يا معاشر بكر؛ ارفعوا رايتكم رفعكم الله، ولا يهولنكم مصرعي، وكان المثنى قد قال: «إذا رأيتمونا قد أُصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه؛ الزموا مصافَّكم واغنوا عَمَّن يليكم».

وقتل غلام نصراني[2] مهران، واستوى على فرسه، وأخذت المجنبات تقتل بعضها بعضاً، والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر، والمثنى يقول: انصروا الله ينصركم، حتى انهزم الفرس وفرّوا.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري.

(٢) كان أنس بن هلال من نصارى النمر، قدم في جمع عظيم من قومه وهم على النصرانية، وقالوا: نقاتل مع قومنا.

فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم، وأخذ طريقهم، فافترقوا بشاطىء الفرات مصعدين ومصوبين، وطاردتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثاً، فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها.

ولما فرغوا جلس المثنى للناس من بعد الفراغ يحدثهم ويحدثونه، وقال المثنى: «قد قاتَلْتُ العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليَّ من ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد عليَّ من ألف من العجم؛ إنّ الله أذهب قوتهم وأوهن كيدهم؛ فلا يروعنَّكم عدد كبير ترونه، ولا سواد، ولا نبال طوال، فإنهم إذا أُعجلوا عنها، أو فقدوها كانوا كالبهائم، أينما وجهتموها اتجهت».

ومات أناس من الجرحى من أعلام المسلمين، منهم خالد بن هلال، ومسعود بن حارثة، فصلى عليهم المثنى وقال: والله ليهون عليّ وَجْدي أن شهدوا البويب، أقْدَموا وصبروا ولم يجْزَعوا، ولم يَنْكِلوا.

وأصاب المسلمون غنماً ودقيقاً وبقراً، فبعثوا به إلى عيال من جاء من المدينة، وإلى عيالات من أقاموا بالحيرة ممن سبق إلى العراق، ورأى النسوة اللاتي أقمن على تخوم شبه جزيرة العرب إقبال الخيل عليهن تحمل المغانم، فحسبتها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد، فقال عمرو بن عبد المسيح وكان مع القافلة: «هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش»، واستأمن الرجال النساء وبشروهن بالفتح ودفعوا إليهن ما جاؤوا به، وقالوا: هذا أول المغنم.

وكان نصر البويب نصراً مبيناً، أثراه وعضّده اجتماع الناس على حب قائدهم المثنى بن حارثة، وكان هذا أحد أهم أسباب النصر وأعظمها، حينما رأوه جريئاً يخوض الغمار، قوي اليقين جريء الجنان، ففعلوا فعله واستبسلوا استبساله، فنصرهم الله، ومحيت آثار هزيمة الجسر بهذا النصر.

٣ ـ القادسية

١ ـ الإعداد للمعركة:

كانت لانتصارات المسلمين في البويب وقعاً عظيماً في النفوس، أزالت كابوس هزيمة الجسر، وأعادت الأمل في الانطلاق لمطاردة الماجوسية في بلاد الفرس.

وقد وقعت هذه الانتصارات في نفوس الفرس موقعاً دمر غرورهم وحطّم كبرياءَهم، وألقت الرعب في نفوسهم، وزرعت الخوف في قلوبهم.

وعلى جبهة الشام كان أبو عبيدة وخالد يريدان حمص ودمشق.

أمّا أهل فارس فقد قالا لرستم والفيرزان، وهما قادة جيوشهما: أين نذهب بكما! لم يبرح بكما الاختلاف حتى أوهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوّهم، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقر فارس على هذا الرأي، وأن تعرِّضاها للهلكة، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت[1].

فقال الفيرزان ورستم لبوران ابنة رستم: اكتبي لنساء كسْرَى وسراريه، ونساء آل كسرى وسراريهم؛ ففعلت، ثم أخرجت ذلك إليهما.

فأرسلا في طلبهنَّ، فلم يبق منهم امرأة إلاَّ أتوا بها، فلم يوجد عندهن منهم أحداً، إلا غُلام يدعى يزدجرد من وَلَدِ شهريار بن كسرى، وأمه من أهل بلد قريب من بغداد يسمى «بادوريا»، فأرسلوا إليها ودلتهم عليه، فجاؤوا به وجعلوه ملكاً عليهم، تتحد به كلمتهم، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، اجتمعوا عليه، واطمأن الفرس، وتبارى الرؤساء في طاعة ملكهم الجديد يزدجرد ومعونته ومساعدته لمواجهة المسلمين.

وقبل أن يملّك الفرس يزدجرد وبعد الهزائم التي لحقت بهم على يد

(١) انظر: تاريخ الطبري ط الحسنية مصر ٨١/٤.

المثنى بن حارثة وجيشه؛ كتب سويد بن قطبة إلى عمر يخبره بضعف الناحية التي يقيم فيها وبما أصاب أهلها من الضعف والوهن لانتصار المسلمين عليهم، وطلب من أمير المؤمنين أن يمده بجيش يستعين به على فتح ما في جبهته.

٢ ـ تأمين ظهر جيش المثنى من الجنوب:

عمل عمر رضي الله عنه بعد أن فرح لما أصاب الفرس من الوهن على تجهيز جيش يؤمن حماية ظهر جيش المثنى، فجهز جيشاً من ألفي رجل بقيادة عتبة بن غزوان وسيره إلى العراق وحدَّد له هدفه وأوصاه بقوله:

«يا عتبة، إن إخوانك من المسلمين، قد غلبوا على الحيرة وما يليها، وعبرت خيولهم الفرات حتى وطئت بابل، مدينة هاروت وماروت ومنازل الجبارين، وإن خيلهم اليوم لتغير حتى تشارف المدائن، وقد بعثتك في هذا الجيش، فاقصد أهل الأهواز، فأشغل أهل تلك الناحية أن يمدوا أصحابهم بناحية السواد على إخوانك الذين هناك، وقاتلهم مما يلي الأبلة»[١].

وإذا لاحظنا الوصية نجد أن عمر رضي الله عنه قد حدد المكان لعتبة بن غزوان، وهو منطقة الأهواز في جنوب العراق، فقد خشي عمر أن يتنبه الفرس فيأتون المسلمين من أسفل العراق من جهة الأهواز والبصرة، فقوات المسلمين بقيادة المثنى تقدمت شمالاً في اتجاه الحيرة وغيرها، فإذا جاء الفرس من الجنوب فإنها ستقطع الطريق على إمدادات عمر لجيوشه في شمال العراق، مما يشكل خطراً على المسلمين، وإن دل ذلك فإنه يدل على دراية عمر العسكرية، ومعرفته بأرض العراق، وتقدير الموقف عسكرياً بشكل مبكر.

أطاع عتبة بن غزوان أميره وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، واستمع

---

(١) انظر: الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري.

إلى نصحيته ووعاها تماماً، واتجه نحو الأبلة، فافتتحها بالقوة، وكتب بأخبار النصر لعمر، فاستبشر المسلمون بذلك، وتابع عتبة سيره إلى إقليم خوزستان، ففتح «المذار» وقتل مرزبانها، واقترب بذلك من الحيرة، ثم رجع إلى «فرات البصرة» فافتتحها، واتجه نحو الشرق ففتح «دست ميسان»، ودخل الميدنة لا يحول بينه وبينها شيء، ومن هنا اتجه إلى «إبرقباذ» ففتحها وهو في طريقه إلى البصرة.

واستطاع عتبة أن يؤمن الجنوب والجنوب الشرقي، خلف جيش المسلمين في الحيرة بقيادة المثنى بن حارثة، ثم استأذن عتبة وعاد إلى المدينة، فأمَّر عمر على الجيش في البصرة المغيرة بن شعبة، فقاد المسلمين إلى فتح بيسان.

٣ ـ عمر والمثنى:

علم المثنى بما حدث في بلاد الفرس من تولية يزدجرد، وعلم أيضاً أن يزدجرد أعد أهل فارس وجيَّش منهم الجيوش، وسمى الجند لكل منطقة، وتحمس أهل فارس، وتمرد سكان بلاد فارس على المسلمين، وثاروا عليهم، ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين من العهود، وتعرّض المسلمون بذلك لخطر ما بعده خطر(١).

بلغ المثنى بن حارثة ذلك كله، فكتب إلى عمر، ولم يصل الكتاب إلى عمر بعد حتى كفر أهل البلاد التي افتتحها المسلمون في العراق كما ذكرنا، من كان له عهد ومن لم يكن له عهد، وخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار.

ثم جاءهم كتاب عمر، وفيه:

«أما بعد؛ فاخْرجوا من بين الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تَدَعُوا في ربيعة، ولا مُضَر،

---

(١) تاريخ الطبري ٤٧٧/٣ وما بعدها.

ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات، ولا فارساً إلا اجتلبتموه؛ فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد إذا جدَّ العجم، فَلْتَلْقَوا جدَّهم بجدِّكم».

وفي ذي الحجة من السنة نفسها كتب عمر إلى عمال العرب على البلاد والقبائل يقول: لا تدعوا أحداً له سلاحٌ أو فَرَسٌ أو نجدة، أو رأي إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إليّ، والعجل العجل[1].

مضت رُسُلُ عمر رضي الله عنه إلى من أرسلهم إليهم، وبدأت القبائل القريبة من مكة والمدينة، أو القبائل التي كانت طرقها على مكة والمدينة، ومن كانت مسافته تزيد على النصف من المدينة وأقرب إلى العراق فأمرهم بالانضمام إلى المثنى، ومن كان قريباً جاء إلى المدينة.

٤ ـ سعد بن أبي وقاص قائداً:

كان واضحاً أن عمر رضي الله عنه يعرف حجم المعركة القادمة ومدى ما تحتاجه من رجال وسلاح وقيادة، ولذلك فإنه في أول يوم من المحرم من السنة الرابعة عشرة للهجرة، خرج حتى نزل على بعد ثلاثة أميال من المدينة، إلى جانب بئر يسمى صرار، فعسكر ومعه جنوده الذين جاؤوا إليه من كل صوب وحدب، ولا يدري الناس ماذا يريد:

أيسير إلى العراق أم يقيم؟ وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رَمَوه بعثمان بن عفان أو بعبدالرحمن بن عوف، وكانوا إذا لم يقدِر هذان على عمل شيء ثلّثوا بالعباس بن عبد المطلب.

فقال عثمان لعمر: ما الذي تريد؟ فنادى عمر: الصلاة جامِعَة.

فلما اجتمع الناس سألهم رَأْيَهم فيمن يسير على رأس الجيش إلى العراق؟؟

---

(١) المصدر السابق.

فقال العامة من الناس: سِرْ وسِرْ بنا معك.

فوافق عمر رضي الله عنه وقال: استعدوا وأعدوا، فإني سائر إلا أن يجيء رأيٌ أفضل من ذلك.

ثم جمع أهل الرأي من أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: أحضروني الرأي؟؟

فأجمعوا جميعاً على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ويقيم هو بالمدينة، ويمده بالجنود.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى علي بن أبي طالب، وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه، وإلى طلحة، وقد بعثه على المقدمة، مقدمة الجيش، فرجع إليه.

وقد نهاه عبدالرحمن بن عوف عن الخروج وقال: ما فديت أحداً بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولا بعده؛ فقلت: بأبي وأُمي! أقم وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودِك قبل وبعد، فإنه إن يُهْزَمْ جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتل أو تهزم في أول الأمر خشيت ألا يُكَبِّر المسلمون، وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً.

فقال عمر: فأشيروا عليّ برَجُل.

وكان سعد بن أبي وقاص عاملاً لعمر على صدقات هوازن، وكان فيمن كتب إليه عمر بانتخاب ذوي الرأي والنجدة، ممن كان له سلاحٌ أو فرس، فجاء كتابه: «إني قد انتخبت لك ألف فارس، كلهم لهم نجدةٌ ورَأي، وصاحب حيطةٍ؛ يَحُوطُ حَريمَ قومه، ويمنع دماءهم؛ إليهم انتهت أحسابهم، فشأنك بهم».

جاء الكتاب في الوقت الذي كان عمر رضي الله عنه يستشير الناس، فقال عبدالرحمن بن عوف: وجدته.

قال: من هو؟

قال عبدالرحمن بن عوف: الأسد في براثنه؛ سعد بن أبي وقاص[١].

ووافق الناس رأي عبدالرحمن بن عوف، ووافقه عمر رضي الله عنه الرأي، وأرسل إلى سعد، فقدِم عليه، وأَمَّره على حرب العراق، وأوصاه فقال:

يا سعد، سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل: خال[٢] رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله عز وجل لا يمحو السَّيىء بالسَّيىء، ولكنه يمحو السيىء بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعتُه، شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عبادُه، يتفاضلون بالعاقبة... إلى أن قال له: هذه عظتي لك...

ولما أراد عمر أن يرسله إلى العراق دعاه فقال: إني وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيَّتي، فإنك تُقْدِم على أمرٍ كريهٍ شديد، لا يخلص منه إلا الحقُّ، فعوِّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادةٍ عَتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك، يجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته وفي اجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة... إلى أن قال له: فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس مما يشرع معك في أمرك.

ثم قال عمر: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرِهم.

خرج سعد من المدينة في أربعة آلاف، ثلاثة ممن قدم عليه من اليمن والسَّراة، وألف من سائر الناس، وودعهم عمر إلى موضع قرب المدينة يقال

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن وهب، وهو الذي ذكره عمر فيما بعد باسم سعد بن وهيب.

(٢) كان سعد من بني زهرة أخوال النبي ﷺ، وكان من أسبق قريش إلى الإسلام.

له: «الأعوض» وهناك توجه بالخطاب إلى الناس فقال لهم: فإن القلوب ميتةٌ في صدورها حتى يحييها الله، من علم شيئاً فلينتفع به...

ونصح الناس وزوَّدهم بالدعوة إلى الله، ورفع شكاواهم إليه، ووعدهم بأنه سيأخذ لكل صاحب حق حقه غير منقوص.

وأمر سعد بالسير، وقال له: إذا انتهيت إلى زرود[1] فانزل بها، وتفرقوا فيما حولك منهم، وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة.

ثم أمدَّ عُمر سعداً بعد خروجه بأَلْفي يماني وألفي نجدي من غطفان وغيرها.

وقدم سَعْدٌ في أول الشتاء فنزل زَرود، وتفرقت الجنود فيما حولها من آبار بني تميم وأسد، فاختار من بني تميم أربعة آلاف ومن بني أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا في أرض بينه وبين المثنى بن حارثة، وكان مع المثنى ثمانية آلاف من ربيعة ممن بقي من خروج خالد إلى الشام، وممن بقي من معركة الجسر، وكان مع المثنى ألفان من اليمن.

وبينما الناس كذلك: سعد يشتاق إلى لقاء المثنى وينتظر قدومه، والمثنى يرجو أن يقدم عليه سعد، وبينما هما على هذه الحال «مات المثنى».

بعد ذلك كتب سعد لعمر أنه نزل بماء بنجد يقال له: «شراف»، وكتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس.

فكتب إليه عمر رضي الله عنه يقول: «إذا جاءك كتابي هذا فعشر النّاس وعَرِّف عليهم، وأمّر على أجنادهم وعَبِّهم، ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدِّرهم وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم، وواعِدهم القادسية، واضمم إليك المغيرة بن شُعْبة في خيله، واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمرهم».

---

(١) زرود: ماء على طريق الحاج إلى الكوفة.

٥ ـ سعد بن أبي وقاص يعبىء قواته:

بعث سعد بن أبي وقاص إلى المغيرة بن شعبة فانضم إليه بخيله وفرسانه، وبعث أيضاً إلى رؤساء القبائل فأتوه، وقدَّر النَّاس وعبَّأهم، وأمَّر أُمراء الأجناد، وعرَّف العُرَفاء[١]، فعرّف على كل عشرة عَرِّيفاً من الرجال الذين لهم دور في الإسلام، وأمَّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة والخبرة، وولى الحروب رجالاً، فولّى على مقدماتها ومجنباتها ومؤخراتها، وطلائعها ورجلها[٢] وركْبانها، ولم يفصل إلا على تعبئة، ولم يخرج من شراف إلا بكتاب من عمر وإذنه.

فأما أمراء التعبئة:

فاستعمل زُهَرة بن عبدالله على مقدمات الجيش، وزهرة هذا كان مَلِك هَجَر في الجاهلية، ووفد على النبي ﷺ وقدَّمه.

واستعمل على الميمنة عبدالله بن المعتم، وكان غلاماً شاباً أبلى في حروب الردة بلاءً حسناً.

وجعل عاصم بن عمرو على السَّاقة.

وسواد بن مالك على الطلائع.

وعلى الرَّجْل حمّال بن مالك الأسدي.

وعلى الركبان عبدالله بن ذي السَّهمين الخثْعمِيّ.

فكان أُمراء التعبئة يلون الأمير، وأُمراء الأَعشار يلون أمراء التعبئة، وأصحاب الرايات يلون أمراء الأعشار، والقواد رؤوس القبائل أصحاب الرايات.

وكان على القضاء عبدالرحمن بن ربيعة الباهليّ، وجُعِلَ إليه قِسْمةَ الفيء، أي يقوم بتقسيم الغنائم بعد المعركة.

---

(١) العريف: هو رئيس القوم وجمعه عرفاء.

(٢) هم المترجلين الذين لا يركبون دابة.

وجعل داعيهم ورائدهم سلمان الفارسيّ.

والترجمان هلال الهَجَريّ.

والكاتب زياد بن أبي سفيان.

فلما فرغ سعد من تعبئته، وأعد لكل شيء عدَّته كتب بذلك إلى عمر، وقبل رجوع الكتاب من عمر قَدِم المعنَّى بن حارثة وسلمى بنت خصَفَة التميمية إلى سعد بوصيَّة المثنى بن حارثة رضوان الله عليه ورأيه.

والوصية تقول: ألا يقاتل عدوّه من أهل فارس إذا استجمع أمرهم في عقر دارهم، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم، على أدنى حجر من أرض العرب، وأدنى مدرة[1] في أرضِ العجم، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءَهم، وإن يكن الأخرى فاؤوا إلى فئتهم، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يَرُدَّ الله الكرَّة عليهم[2].

فلما انتهى إلى سعد رأي المثنى ووصيته ترحَّم عليه كثيراً، وأمَّر المعنّى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيراً، وخطب سلمى فتزوجها وبنى بها، ثم جاء كتاب عمر إلى سعد مطابقاً لرأي المثنى، فقد قال له عمر في سياق الرسالة: «...وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدؤوهم الشدَّ والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم، ولا يَخْدُعنَّكم، فإنَّهم خَدَعَة مَكَرَة، أمرهم غير أمركم، إلا أن تجاروهم، وإذا انتهيت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمارتهم، ولما يريدونه من تلك الآصُل، وهو منزل واسع خصيب، دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجرَ والمدَر على حافات الحجر وحافات المدر، ثم الزم مكانك فلا تبرحه...».

وتوالت الرسائل بين سعد وعمر، فكان هناك تواصل مستمر بين أمير المؤمنين وقائد جيوشه في العراق، وأقام سعد بالقادسية شهراً، ثم كتب إلى

(١) المدرة: هي القرية عند العرب، والمدر هو قطع الطين اليابس.

(٢) انظر: تاريخ الطبري.

عمر يقول له: «لم يوجه إلينا القوم أحداً، ولم يسندوا إلي أحد قيادة جيش لمحاربتنا، ومتى يبلغنا ذلك نكتب به...».

ثم إنَّ سعداً بعث عيوناً إلى أهل الحيرة ليعلموا له خبر أهل فارس، فرجعوا إليه بالخبر، بأن الملك قد ولّى «رستم» حربه، وأمره بالعكسرة.

عندئذ شجعه عمر وكتب له: «لا يكربنَّك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله، وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المنظرة[1] والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعِلٌ دعاءَهم توهيناً لهم، ونصراً عليهم، واكتب إليَّ كل يوم».

٦ ـ بين سعد وملك الفرس:

ما إن وصلت رسالة عمر رضي الله عنه بإرسال رجال إلى «يزدجرد ملك الفرس» حتى جمع نفراً لهم هيئة عظيمة ولهم آراء، ونفر لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء أيضاً.

فأما الذين لهم هيئة ولهم آراء واجتهاد فهم: النعمان بن مقرن المزني، وبشر بن أبي رهم، وحنظلة بن الربيع، وحملة بن جويه الكناني، وفرات بن حيان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن زرارة.

وأما من لهم منظر لأجسامهم، وعليهم مهابة ولهم آراء فهم: عطارد بن الحاجب، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معد يكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعنّى بن حارثة.

ثم بعثهم دعاة إلى الملك، وأرسلهم إليه بالمدائن. فلما دخلوا عليه، أمر التّرجمان بينه وبينهم، فقال: سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ من أجل أنَّا أجمعناكم[2] وتشاغلنا عنكم اجترأْتُم علينا!

فقال النعمان بن مقرن بعد أن أذن له أصحابه: «إن الله رحمنا،

(١) منظرة الرجل: إذا نظرت إليه فأعجبك.

(٢) أجمعناكم: أي أرحناكم وانصرفنا عنكم.

فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه...»، وشرح النعمان ما جاء به رسول الله ﷺ من الإسلام.

ثم قال لملك الفرس: ...نحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حَسَّن الحَسَن، وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمرٌ من الشر، هو أهون من آخر شَرٍّ منه: الجِزَاء[1]، فأن أبيتم فالمناجزة والقتال، وإن أجبتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم.

سخر يزدجرد من المسلمين، وذكر لهم فقرهم وجوعهم..

وقال لهم في النهاية: إن كان الجوع والفقر دعاكم فرضنا لكم قوتاً، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم مَلِكاً يرفق بكم.

فوقف المغيرة يقول له: إن هؤلاء رؤوس العرب وأشرافهم... فأما ما ذكرت من سوء الحال، فقد كان كل ما تقوله، ولكن الله بعث رجلاً معروفاً، نعرف نسبه ومولده، فهو من قبيلة خيرُ قبيلتنا، وهو بنفسه كان أصدقنا وأحلمنا، فدعا إلى أمر... فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، وقال لنا: وأخبرنا بأن ربنا سبحانه وتعالى يقول: «**إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذا لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء وإليَّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل الذي به أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأُحِلَّكُمْ داري دار السلام...**»[2].

وأضاف المغيرة: ومن تابعكم على هذه فله ما لكم وعليه ما عليكم... فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر[3]، وإن شئت فالسيف أو تُسلم فتنجي نفسك.

---

(١) الجِزاء بالكسر: جمع جزية.
(٢) النص كاملاً في تاريخ الطبري ٤٩٥/٣، تاريخ الطبري ط دار صادر بتصرف يسير وبعض الاختصار.
(٣) وأنت صاغر: أي وأنت ذليل راض بالضيم.

جاء رد يزدجرد عنيفاً، يبين فشل هذه المفاوضات، ورفضه وعناده دعوة المسلمين.

فقد قال للمغيرة غاضباً: أتستقبلني بمثل هذا! لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي.

ثم قال يزدجرد: ائتوني بحمل ثقيل من تُراب، واحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، وقال: ارجعوا إلى صاحبكم، فأعلموه أني مرسل إليكم رستم، حتى يجهز عليه ويقتلكم في خندق القادسية.

ثم قال: من أشرفكم؟

فسكت المسلمون، ثم قال عاصم ـ وقد قام ليأخذ التراب ـ: أنا أشرفُهم، أنا سيد هؤلاء، فَحَملنيه.

فقال يزدجرد: أكذاك هو؟

قالوا: نعم.

فحمل عاصم حِمْلَ التراب على عنقه، فخرج به من الإيوان والدَّار حتى أَتَى راحلته، فحمله عليها، ثم أسرع في السير، حتى دخل وصحبه على سعد وأخبروه الخبر، فقال سعد: أبشروا، فقد أعطانا الله مفاتيح ملكهم[1].

ازدادت قوة المسلمين يوماً عن يوم، فيما كان يزداد عدوُّهم في كل يوم وهناً وضعفاً.

وفيما بين ذهاب الوفد إلى يزدجرد وعودته، كان المسلمون يغيرون على من داناهم من أرض العدو من أرض السواد والبلاد، وفزع أهل البلاد من ذلك، وأرسلوا إلى يزدجرد: أن العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلاّ الحرب.

---

(١) في النص الأصل: فقد أعطانا الله أقاليد ملكهم، وأقاليد بمعنى مفاتيح.

٧ - رستم يتجه إلى القادسية:

زحف رستم إلى ساباط وهي مدينة تقع في الجنوب الغربي للمدائن وأقام فيها فترة تظاهر فيها أنه يُعد جيشه وينظم صفوفه، بعدما دعاه يزدجرد وقال له: إني أريد أن أوجهك في هذا الوجه، وإنما يُعَدّ للأمور من كان على قدرها، وأنت رجل أهل فارس اليوم، وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمرٍ لم يأتهم منذ وَلِيَ آل أردشير.

فقبل منه وخرج إلى ساباط، ولم يخرج منها سريعاً إلى القادسية لأنه علم بقدوم وفد المسلمين على يزدجرد، فانتظر عما تسفر عنه المفاوضات.

وزحف رستم إلى القادسية، وكان متأنياً في تقدمه، وبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً، واستعمل على ميمنته الهرمزان، وعلى ميسرته مهران بن بهرام، وعلى ساقته البيرزان.

ولم يكد رستم يصل القادسية حتى ضرب مخيمه ونزل بجنوده هناك، وقد بلغ عددهم مائة وعشرين ألفاً يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلاً، بينهم الفيل الأبيض الذي كانت الفيلة تألفه وتسير بسيره[١].

كان رستم قد قضى أربعة أشهر من مسيره حتى بلغ القادسية منذ أن خرج من المدائن للقاء عدوه، وإنما تمهل وتباطأ ظناً منه أن يهن العرب إذا لم يجدوا مؤونة تكفيهم، أو أن يسأموا طول المقام فينصرفوا إلى بلادهم، وتمهل كذلك تطيراً من لقاء سعد، بعدما دلّته النجوم على مصير فارس، وقد كان يؤثر البقاء في المدائن، وأن يعبىء جيشاً إثر جيش لقتال العرب حتى تتضعضع ركبهم، ويهدّ عزمهم، لكن يزدجرد أبى عليه رأيه، وأمره أن يسير بنفسه، فتباطأ حتى قضى هذه الأشهر الأربعة في طريق كان يستطيع قطعها في أيام معدودات[٢].

كان رستم قائد الجيش الذي بلغ مائة وعشرين ألفاً، يتقدمهم ثلاثة

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ ط صادر.

(٢) الفاروق عمر لهيكل.

وثلاثون فيلاً، بينها فيل سابور الأبيض، وكان رستم مع جسامة هذه القوة وضخامتها يود أن يصرف العرب عن بلاده دون قتال، علماً منه أنه إن ينهزم دونهم تُفتح لهم أبواب المدائن وأبواب فارس كلها، فهو رجل فارس الذي تشرئب إليه الأعناق من كل صوب، والقائد البطل الذي ليس في فارس كلها بطل مثله.

وقد أبدى رستم تخوفاً من العرب لما أبدوه من بطولة لم تثبت أمامها أعداد جيوش فارس الضخمة وعدتها، ولم تثبت لها الفيلة في الغزوات المتلاحقة التي بدأت منذ اقتحم المثنى دلتا النهرين إلى أن انتصر على الفرس انتصاره العظيم «بالبويب».

ففي هذه المواقع جميعاً كان العرب دون الفرس عدداً وعُدّة، وكانوا مع ذلك يبلغون منهم ويركبون أكتافهم، وينقلون الغنائم الطائلة بعد انتصارهم، فهم إذاً: قوم كُتب النصر لهم، فإن هو ردّهم إلى شبه الجزيرة العربية دون قتال أسْدى إلى بلاده وإلى مليكه يزدجرد يداً دونها كل نصر.

أعد رستم جيشه وصف عسكره، ثم بعث إلى سعد ليبعث له رجلاً من عقلاء المسلمين يبين له سبب حشد هذه الجموع المسلمة؟ لماذا جاءت إليهم؟؟

٨ ـ رُسل سعد إلى رستم

لقد اعتراني خشوع عظيم حينما قرأت وصف مقابلة رسل سعد بن أبي وقاص إلى رستم، وأستميحكم عذراً أنه قد جاءت لحظة ضحكت من أعماقي من فرط ما كان عليه رسول سعد الأول إلى رستم وهو ربعي بن عامر من فطرة وذكاء، ووضوح وإيمان، وزهد في الدنيا، ورغبة في نصر الإسلام، ولربما ترقرقت دمعة على أحوال المسلمين في هذا الزمان وهم يجلسون أمام مفاوضيهم في هلع وخوف مطأطئي الرؤوس.

ومن أراد العزة، ومعرفة طريقها فلينظر إلى هذا المشهد الخالد، إلى الرسول الأول: ربعي بن عامر إلى رستم من قبل سعد بن أبي وقاص، فقد

ذهب ولما أخبر رستم بمجيئه قال لأصحابه أنتباهى أم نتهاون معه، فأجمعوا على التهاون، فأظهروا الزينة، وبسطوا البُسط والوسائد، ووضعوا لرستم سريراً من ذهب، ولبس زينته كاملة، وأقبل ربعي بن عامر ـ انظروا معي وصف المؤرخين له حين دخوله على رستم ـ: أقبل يسير على فرس له قصير، ومعه سيف له بريق، وغمد هذا السيف ثوب قديم، ورمحه معلوب بقدٍ، معه ترس من جلود البقر، ومعه قوسه ورمحه.

فلما دخل على رستم وانتهى إليه، وإلى آخر البسط المفروشة قيل له: انزل عن فرسك.

فمشى بها على بساطهم ومفارشهم، فلما وقف عليه نزل عنها، وربطها بوسادتين، شقهما ثم أدخل الحبل فيها، والجند من الفرس في ذهول لا يستطيعوا أن ينهوه، وقد ربط رأسه بمعجرة، وهي ما ينسج من الليف، ولرأسه أربع ضفائر قد قُمن قياماً كأنهن قرون الوعلة!!

فقالوا: ضع سلاحك.

فقال لهم: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت.

فأخبروا رستم، فأذن له، وأقبل يتوكأ على رمحه، وفي أسفله حديد يمزق زينتهم وسجادهم، فما ترك لهم شيئاً إلا مزقه، ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منتهكاً مُمَزَّقاً!!

فلما اقترب من رستم، ركز رمحه بالبسط وجلس على الأرض.

فقالوا: ما حملك على هذا؟

قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه!!

فكلمه رستم قائلاً: ما جاء بكم؟

قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى

خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك منا قبلناه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفْضي إلى موعود الله.

قال رستم: وما موعود الله؟

قال ربعي: الجنةُ لمن مات على قتال من أَبى، والظفر لمن بقي[1].

فطلب منه رستم أن يؤخر هذا الأمر حتى ينظر فيه.

فقال ربعي في حسم ووضوح: كم أحب إليكم؟؟ أيوماً أم يومين؟؟

فقال رستم: لا، بل حتى نكاتب رؤساء قومنا.

فقال ربعي: إن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ، وعمل به أئمتنا، ألاّ نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزية، فنقبل فنكُف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلاّ أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على أصحابي، وعلى جميع من ترى.

قال: أسيدهم أنت؟

قال ربعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد، بعضهم من بعض، يجيز أدناهم على أعلاهم.

عجب رستم لجرأة الرجل وحكمته ووضوح كلامه، فلما قال ذلك لقومه هبوا وسخروا من ربعي بن عامر ومظهره، فقال لهم: ويحكم، لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسِّيرة، إن العرب تستخف باللباس والمأكل، ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس، ولا يرون فيه ما ترون.

---

(١) انظر ابن الأثير ٣١٩/٢ وما بعدها، وتاريخ الطبري.

وأثناء خروج ربعي أقبلوا إليه ينظرون إلى سلاحه ويزهدونه فيه، فقال لهم: هل لكم أن تروني وأريكم، فأخرج سيفه من خِرقة كأنه شعلة نار، فقالوا في فزع: اغمده اغمده.

ثم رمى تُرْساً ورموا حجفته، فخرق ترسهم، وسلِمتْ حجفته، فقال: يا أهل فارس إنكم عظَّمتم الطعام واللباس والشراب، وهي عندنا صغيرة، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل.

فلما كان الغد أرسلوا إلى سعد: أن ابعث إلينا ذلك الرجل «ربعي».

فأرسل إليهم حذيفة بن محصن، ففعل وتحدَّث بمثل ما تحدث به صاحبه ربعي بن عامر، وخيرهم بين الثلاث: الحرب، الجزية، الإسلام.

وبعث رستم أيضاً إلى سعد أن يبعث إليه رَجُلاً، فبعث إليهم المغيرة بن شعبة، فلما جاء القنطرة عبرها إلى أهل فارس، واستأذنوا رستم في دخوله، فأقبل المغيرة عليهم، والقوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسُطهم وفرشهم على الأرض مبسوط على مقدار مرماه ولا يصل إلى رستم حتى يمشي عليها المغيرة.

وأقبل المغيرة، وله أربع ضفائر، يمشي حتى جلس على سريره ووسادته، فوثبوا عليه، فزحزحوه، وأنزلوه، فقال المغيرة: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضاً، إنكم دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون.

فمازحه رستم وقال: يا عرب، إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عمّا ينبغي من ذلك.

بعد أن حدثه المغيرة عن رسول الله ﷺ وبَعْثِهِ بمثل ما حدّث أصحابه يزدجرد حينما ذهبوا إلى المدائن، قال المغيرة لرستم: إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا: لا صبر لنا عليه.

ثم انتهى من حديثه إلى ما انتهى إليه أصحابه، أن يُسلم الفرس أو يؤدوا الجزية، فإن أبو هذا وذاك فالقتال.

وأراد سعد بن أبي وقاص أن يرمي بآخر ما عنده من الرأي، فأرسل إلى رستم بقية ذوي الرأي، فاختار ثلاثة، فخرجوا حتى أتوا رستم وقالوا له: «إن أميرنا يقول لك: إني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا، وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض، إلا أن داركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم من ورائكم كان زيادة لكم دوننا، وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم، اتق الله يا رستم، ولا يكون هلاك قومك على يديك»[1].

فأجابهم بصلف وغرور: «إني قد كلمت منكم نفراً، ولو أنهم فهموا عني رجوت أن تكونوا قد فهمتم».

وعظم على أصحاب رستم أن يذكر هؤلاء وقبلهم المغيرة بن شعبة الجزية تفرضها العرب على فارس.

كان المسلمون منذ عهد النبي ﷺ لا يؤجلون مثل هذه السفارات أكثر من ثلاثة أيام، فيكون بعدها الصلح أو تكون بعدها الحرب، فلما أصر المسلمون على موقفهم: الإسلام أو الجزية أو القتال، لم يبق من الحرب مفر.

(١) تاريخ الطبري جـ ٣.

بدء المعركة

اليوم الأول ـ يوم أرماث

لم تصلح المفاوضة، وتهيأ الفريقان للحرب، قال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟

وما كان لسعد أن يعبر النهر ومَثَلُ غزوة الجسر حاضراً أمام ذهنه، وما كان له أن يدع رستم يعبر إليه وينظم صفوفه لقتاله، لذلك بقي مكانه مطمئناً إلى موقعه يحميه النهر أمامه، وخندق سابور عن يمينه، والصحراء المترامية وراء ظهره.

وما كان لسعد أن يعبر النهر، وما كان لرستم أن يقف جامداً مكانه، وقد تضعضعت هيبة الدولة وضعف سلطان المدائن في نفوس أهل العراق من فرس وعرب، فإن لم يضرب رستم في القادسية ضربته، أوشك هذا السلطان أن ينهار، وأوشكت هذه الهيبة أن تزول[1].

نعود إلى سعد، فقد قال وأصحابه للفرس: بل اعبروا إلينا، وأمر سعد الناس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إلى الفرس، شأنكم والعبور.

فأرادوا القنطرة، وكانت للفرس وأخذها المسلمون منهم، فأرسل سعد إليهم لا نرد عليكم شيئاً قد غلبناكم عليه، تكلفوا معبراً غير القناطر، فباتوا

(١) الفاروق عمر لهيكل.

طوال الليل يبنون جسراً من التراب والقصب وغيرها حتى جعلوه طريقاً.

ولبس رستم درعين وقلنسوة من حرير، وأخذ سلاحه، وأمر بفرسه فأُسرج وأُتي به، ثم قال: غداً ندقهم دقاً.

ولما عبر أهل فارس أخذوا مصافهم، وجلس رستم على سريره، وعبّى في القلب ثمانية عشر فيلاً، عليها الصناديق والرجال، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته، والبيرزان بينه وبين ميسرته، وبقيت القنطرة بين خيلين من خيول المسلمين وخيول المشركين.

وكان يزدجرد قد وضع رجلاً على باب إيوانه - إذ سرح رستم - وأمره بلزومه وإخباره، وآخر حيث يسمعه من الدار، وآخر خارج الدار، وكذلك وضع على كل مسافة رجلاً، فنظم ما بين العتيق والمدائن رجالاً، فكان يعلم الأخبار حين حدوثها، لا يغيب عنه شيءٌ حدث في ليل أو نهار.

وأخذ المسلمون مصافهم، ونادى مناديهم: أيها النّاس، ألا إن الحسد لا يحلُّ إلاّ على الجهاد، فتحاسدوا على الجهاد[1].

معركة كالقادسية ذلك شأنها، كان يزدجرد حريصاً على أن يعرف أنباءها ساعة ساعة، بل لحظة بلحظة، حتى كأنه حاضرها، وكان على النقيض من رستم، واثقاً بحسن مصيرها، أليس شاباً، والشبابُ لا يعرف اليأس ولا يتصور الفشل والهزيمة!!!

ولعل أول نبإٍ سمعه يزدجرد هذا من رجاله الذين وضعهم من المدائن إلى القادسية، يلقي أدناهم من المعركة بأنبائها إلى من بعده، فيلقيها هذا إلى من يليه، وهكذا حتى تبلغ المدائن، أول نبإٍ بلغه هو أن سعد بن أبي وقاص عاوده مرض في أول المعركة كان يتردد عليه، جعله لا يستطيع أن يركب أو يجلس، فهو مكبٌّ على وجهه، في صدره وِسادةٌ يعتمد عليها ويشرف على الناس من القصر يرمي بالرقاع فيها أمره ونهيه، ذلك المرض كان: عرق النسا ودمامل جعلت هذا الفارس البطل ذا الفعال المجيدة يعجز

---

(١) انظر: تاريخ الطبري جـ ٣.

عن كل حركة يوجبها مكانه من جيش المسلمين في هذا الوقت الرهيب، وزاد يزدجرد استبشاراً ما أُلقي إليه من تبرم بعض المسلمين بسعد وتندرهم بمرضه حتى يقول قائلهم:

نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعدٌ بباب القادسية مُعْصِمُ
فأُبنا وقد آمت نساءٌ كثيرة ونسوة سعد ليس فيهم أَيِّمُ

وبلغ سعد ما يتندر به النّاس وأن طائفة من وجوه القوم تتهمه، وتشغب عليه، وترميه بالخور وضعف العزم، فحزّ ذلك في نفسه وأثار غضبه فقال لمن حوله: احملوني وأشرفوا بي على النّاس، وارتقى به من حوله فأشرف على الناس من القصر، وصار يرمي بالرقاع وهي الأوامر والكتب التي فيها أمره ونهيه إلى خالد بن عُرْفطة، إذ كان كالخليفة له.

وضاق بعض المسلمين بسعد كما ذكرنا وتندروا بمرضه، واختلفوا على خالد بن عرفطة، فقال سعد: أما والله لولا أنَّ عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالاً لغيركم. ثم أمر بجماعة ـ منهم أبو محجن الثقفي ـ فحُبسوا، وقيّدهم في القصر، فأعلن القوم ولاءهم وطاعتهم.

ثم توجه إلى القوم وخطبهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيارُ كل قبيلة، وعزٌّ من وراءَكم، فإن تزهدوا في الدنيا، وترغبوا في الآخرة يجمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أَجَله، وإن تفشلوا وتهِنُوا وتضعفوا تذهب ريحكم»[1].

ثم كتب إلى الرايات: إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني، وما بي من الدمامل، فإني مُكِبٌّ على وجهي، وشخصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمُركم بأمري ويعمل برَأْيي.

وقرىء الكتاب على الناس فقبلوا منه، وتحاثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عُذْر سعد، والرضا بما صنع.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري جـ ٣.

وقبل أن يأذن سعد بالقتال أرسل ذَوِي الرأي والفضل والنجدة إلى الناس، فكان من ذوي الرأي: المغيرة وحذيفة وعاصم، ومن أهل النجدة طليحة وقيس الأسدي وغالب وعمر بن معد يكرب، ومن الشعراء الشماخ، والحطيئة، وأوس بن مغراء وعبدة بن الطَّبيب، وقال لهم: انطلقوا فقوموا في النّاس بما يحقُّ عليكم، ويحق عليهم عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، أنتم شعراء الناس وخطباؤهم.. فسيروا في الناس فذكِّروهم وحرضوهم على القتال.

ولما ساروا إلى الناس، وقف قيس بن هبيرة فقال: أيها النّاس، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم، واذكروا آلاء الله وارغبوا إليه، فإن الجنَّة أو الغنيمة أمامكم...

وقال بشر بن أبي رُهم الجهني: احمدوا الله وصدِّقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم الله على ما هداكم...

وقال عاصم بن عمرو: يا معاشر العرب، إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم لأعيان العجم، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم، لا تُحْدثوا اليوم أمراً تكونون به شيناً على العرب غداً.

وقال ربعي بن عامر: إن الله قد هداكم للإسلام وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر الراحة، فعوِّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه، ولا تعودوها الجزع فتعتادُوه.

وقال الهذيل الأسدي: يا معاشر معد، اجعلوا حصونكم السيول، وكونوا عليهم كأسود الأجم(١)، وتربدوا(٢) لهم تربُّد النمور، وادَّرِعوا العَجاج (الغبار) وثقوا بالله، وغضوا الأبصار، فإذا كلَّت السيوف فأَرسِلوا عليهم الجنادل(٣)، فإنها يُؤْذَنُ لها فيما لا يُؤْذَنُ للحديد فيه.

---

(١) الأجم: الشجر الكثيف أي كأُسود الغابات.

(٢) تربدوا: تغيروا وتعبسوا.

(٣) الجنادل: ما ينقله الرجل من الحجارة.

وقاموا كلهم بنحو من هذا الكلام، فتواثق النّاسُ وتعاهدوا.

وفعل أهل فارس فيما بينهم مثل ذلك، وتعاهدوا وتواصَوْا.

وكان عمر رضي الله عنه قد ألزم سعداً غلاماً من قراء القرآن، فأمره سعد أن يقرأ سورة الجهاد، وكان المسلمون يتعلمونها كلهم، ثم قرئت على كل كتيبة، وهشت لها قلوب النّاس، وعرفوا السكينة مع قراءتها.

ثم قال سعد للناس: الزموا مواقفكم، ولا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة، فكبروا واستعدوا، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عُدَّتُكُم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا، ولينشّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا، فإذا كبرت الرابعة، فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عَدُوَّكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كبر سعد تكبيراته: أَنشب القتال، فأبلى أبطال المسلمين بلاء لم يعرف سعد له نظيراً.

كان عمرو بن معديكرب يحرِّض النّاس بين الصفين، إذ خرج إليه رجل من الأعاجم يرمي بنشابه فلا تنزل واحدة على الأرض، فأصابت إحداها درع عمرو، فالتفت إليه، فحمل عليه وكسر عنقه، ثم وضع سيفه في حلقه فذبحه، ثم ألقاه وهو يقول: هكذا فاصنعوا بهم، ثم أخذ سواري الفارس القتيل ومِنطقه.

ورأى الفرس بني بجيلة وعليهم جرير بن عبدالله البجلي يصولون ويجولون، فوجهوا إليهم ثلاثة عشر فيلاً حملت عليهم، ففرت خيلهم نفاراً، وبقي الرجال وتكاد الفيلة تبيدهم. ورأى سعد ما أصاب بجيلة، فأرسل إلى بني أسد ليدافعوا عنهم، فخرج طليحة بن خويلد الأسدي وجماعة من قبيلته، كل واحد في كتيبة، وطليحة يصيح بهم: يا عشيرتاه! لو علم سعد أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم، ابتدئوهم الشدّة، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحرية، فإنما سميتم أسداً لتفعلوا فعله، شُدُّوا ولا تصدّوا، وكُرّوا ولا تَفِرُّوا! شدوا عليهم باسم الله!

فشدوا عليهم، فما زالوا يطعنونهم حتى حبسوا الفيلة عنهم، لكن الفيلة عادت فحملت عليهم، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو يقول: يا معشر بني تميم، ألستم أصحاب الإبل والخيل! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟

قالوا: بلى والله!

ونادى عاصم الرماة ليذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وليستدبروا الفيلة، وليقطعوا وُضُنها، وخرج يحميهم والرحى تدور على أسد، وصنع أصحاب عاصم بالفيلة كما أمرهم، فاستدبروها وضربوها بالقبل، فارتفع عواؤها فألقت بركبانها فقتلوا، ونفَّس عن أسد وعن بجيلة جميعاً بعد أن قُتِل أسد وحدها أكثر من خمسمائة، وكانوا ردءاً للناس.

هذا هو اليوم الأول من أيام القادسية، واسمه يوم أرماث.

اليوم الثاني ـ يوم أغواث ـ

يطلق المؤرخون[1] على هذا اليوم من أيام القادسية اسم «أغواث»، ويحسب بعض المستشرقين أنهم اختاروا له هذا الاسم لأن القعقاع أغاث فيه جيش سعد بمن جاء بهم من الشام، وليس من اليسير إقرار هذا التفسير إلاّ أن نجد لسائر أيام الغزاة تفسيراً من نوعه، وقد رأينا أن يوم أرماث لا يمكن أن يكون له مثل هذا التفسير.

أما الليلة التي انقضت بين يوم أرماث ويوم أغواث فيطلق المؤرخون عليها اسم ليلة الهدأة، كما أنهم يطلقون اسم السّواد على الليلة التي تلت يوم أغواث.

ونترك تعليق الدكتور هيكل في كتابه الفاروق عمر ونعود إلى اليوم الثاني يوم أغواث، فقد رأت سلمى زوج المثنى بن حارثة، ثم زوج سعد من بعده ما حلَّ بالقوم يوم أرماث، وما صنع أهل فارس بهم، فصاحت: وامثناه! لا مثنى للخيل اليوم!

---

(١) الدكتور هيكل، الفاروق عمر ١/١٦٣.

وكان سعد لا يطيق جلسةً إلا مستوفزاً أو على بطنه؛ وكان ضجراً من نفسه ومن أصحابه، فلطم وجهها وقال: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى؟ يعني أسداً وعاصماً وخيله وبجيلة.

فقالت: أغِيرَةً وجُبْناً.

قال: والله لا يعذرني اليوم أحداً إذا أنت لم تعذريني، وأنْت تَرَيْنَ ما بي.

ثم أصبح القوم من الغد على تعبئة، ووكل سعد رجالاً بنقل الشهداء والجرحى، وكانت نساء المسلمين يمرضن الجرحى ويداويهن.

وبينما القوم على هذه الحال، ولم ينشب القتال، إذ طلعت نواصي المسلمين قادمة من الشام، وذلك أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق أن يَرُدَّ الجند الذين جاؤوا من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد، ليكونوا عوناً لجنود سعد على قتال الفرس، فكان وصولهم إلى جيش المسلمين في ذلك اليوم قبل انتشاب القتال، وكانوا ستة آلاف، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومُضر، وألف من اليمن، وكان الأمير على هذا الجيش هاشم بن عتبة بن أبي وقاص! وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى مجنبتيه قيس بن هبيرة والهزهاز بن عمرو العجلي، وتعجّل القعقاع حتى قدِم على المسلمين بالقادسية صبيحة يوم أغواث.

وقد أراد القعقاع أن يوقع الرعب في قلوب الفرس، فعهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً، وهم ألف، فكلما بلغ عشرةٌ مدى البصر سرَّحوا في آثارهم عشرة، وكان قدوم القعقاع في العشرة الأُولى، فلما أتى الناس سلَّم عليهم وبشرهم بالجنود، ثم قال: أيها النَّاس إني قد جئتكم في قوم، والله لو كانوا بمكانكم ثم أَحَسُّوكم حسدوكم حظوتها، وحاولوا أن يطِيروا بها دونكم، فاصنعوا كما أصنع، ثم تقدم ونادى: من يبارز؟

فبرز إليه رجلٌ من الفرس.

فقال له القعقاع: من أنت؟

قال: أنا بهمن جاذويه.

فنادى القعقاع: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر! واجتلدا، فقتله القعقاع.

وجعلت خيلُه التي أمر أن تنقسم عشرة عشرة تَرِدُ قِطعاً، وما زالت ترد إلى اللّيل، وتنشط الناس، وكأن لم يكن بالأمس مُصيبة.

ثم تقدم القعقاع ونادى: من يبارز؟

فخرج إليه رجلان، أحدهما البيرُزان، والآخر البندوان.

فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان، فبارز القعقاع البيرزان فضربه، فأطار رأسه، وبارز ابن ظبيان البندوان فضربه فأطار رأسه، وجعل القعقاع يقول: يا معاشر المسلمين؛ باشروهم بالسيوف، فإنما يحصد النّاس بها.

ثم خرج النّاس من كل ناحية، وبدأ الحرب والطعان، وزاد الناس نشاطاً أن لم يروا الفيلة بينهم، وحمل بنو عم القعقاع يومئذ عشرة عشرة من الرَّجالة على إبل قد ألبسوها، فهي مجللة مبرقعة تشبه الفيلة، ولقي أهل فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث.

وكان سعد قد حبس أبا محجن الثقفي وقيّده في قصره، فلما اشتدَّ القتال صعد إلى سعد يستعفيه ويستقيله، ويسأله تسريحه للغزو مع المسلمين فزجره وردّه، فنزل حتى أتى سلمى؛ فقال: يا سلمى!! هل لك إلى خير؟

قالت: وما ذاك؟

قال: تخلين عني، وتعيرينني البلقاء، فللَّه عَلَيَّ إن سلَّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رِجليَّ في قيدي.

فقالت: وما أنا وذاك!

فرجع يرسف في قيوده ويقول:

كفى حزناً تَرْدِيَ[1] الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً عليَّ وَثَاقِيَا
إذا قمت عناني[2] الحديد وأُغْلِقَتْ ... مَصاريعُ دوني قد تُصِمُّ المناديا
وقد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
ولله عَهْدٌ لا أخيس[3] بعهده ... لئن فرجت ألا أزور الحوانيا[4]

فقالت سلمى: إني استخرت الله[5] ورضيت بعهدك، فأطلقته وقالت: أمّا الفرس فلا أُعيرها، ورجعت إلى بيتها، فاقْتادها وأَخْرَجَها من باب القصر؛ ثم دبَّ عليها، حتى إذا كان بحيال الميمنة كبَّر ثم حمل على ميسرة القوم يَلعَبُ برمحه وسلاحِهِ بين الصفين؛ وكان يقصف الأعداء بسيفه قصفاً منكراً، وتعجب النّاس منه وهم لا يعرفونه.

وجعل سعد يقول وهو مشرفٌ على النّاس من فوق القصر: والله لولا محبس أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن وهذه البلقاء! وقال بعض النّاس: إن كان الخضر يشهد الحروب فنظن صاحب البلقاء الخضر.

ثم هاجم أهل فارس وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتى دخل من حيث خرج، ووضع عن نفسه وعن دابّته، وأعاد رجليه في قيديه، وقال:

---

(١) ردي الفرس: رجمت الأرض بحوافرها.
(٢) عناني: أثقلني.
(٣) لا أخيس: لا أغدر.
(٤) الحواني: موضع بيع الخمر، مفردها حانة.
(٥) تقدم رواية بأن زبراء أم ولد سعد هي التي أطلقت أبا محجن من قيده وأعارته البلقاء، والبلاذري يرجح ذلك، وابن كثير لا يذكر سلمى، فأما الطبري وطائفة معه فيذكرون في هذه المناسبة سلمى، ويضيفون أنها سألت أبا محجن، في أي شيء حبسه سعد، فقال: ما حبسني في حرام أكلته ولا شربته، ولكن كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني يبعثه على شفتي أحياناً فيساء لذلك ثنائي، ولذلك حبسني عندما قلت:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألا اذوقها

انظر: الفاروق لهيكل.

لقد علمت ثقيف غير فخرٍ ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دُرُوعاً سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن أُحْبَس فذلكم بلائي ... وإن أترك أُذيقهم الحتوفا

وكانت سلمى مغاضبة لسعد عشية أغواث، فصالحته، وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن، فدعا به وأطلقه، وقال: اذهب؛ فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله.

قال: والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً.

وقد بلغ من شدة فرح المسلمين بيوم أغواث أن باتوا على أثره ينتمي كل منهم إلى قبيلته، كما سمعنا أبو محجن منذ قليل ينتمي إلى قبيلته «ثقيف»، وبلغ من اغتباط سعد به واطمئنانه إلى قوة المسلمين بعده أن قال لبعض من عنده حين عزم النوم: إن تَمَّ الناس على الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء على عدوهم، وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني فإن انتماءهم من السوء.

دب الاطمئنان في نفس قائد القادسية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، مما جعله ينام قرير العين.

أما القعقاع بن عمرو فبات ليله يسرِّب أصحابه الذين جاؤوا معه من الشام إلى المكان الذي كانوا فيه بالصحراء صبح يوم أغواث، وقد أمرهم إذا طلعت الشمس أن يقبلوا مائة مائة على نحو ما فعلوا في أمسهم، فإن أدركهم هاشم بن عتبة وجاء بمن معه يشارك في المعركة فذاك، وإلا جددوا للناس رجاء المدد، فزادهم هذا الرجاء إقداماً في الحرب وإيماناً بالفوز فيها.

اليوم الثالث - يوم عِماس -

أصبح المسلمون في اليوم الثالث وهم على مواقفهم، وأصبحت الأعاجم على مواقفهم، وقد قُتِلَ من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف، وقال سعد: من شاء غسل الشهداء، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم.

وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم وجعلوهم من وراء ظهورهم، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر، ويوصلون الجرحى إلى النساء.

ولما برز قرن الشمس طلعت نواصي الخيل فكبّر القعقاع وكبّر الناس، وقالوا: جاء المَدَدُ.

وأدرك هاشم بن عُتْبَة وجنوده رجالَ القعقاع، وعرف ما فعل، فجعل رجاله فِرقاً، وأمرهم أن يتلاحقوا، وسار على رأس الفرقة الأُولى، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصافهم للقتال، فلما رآه النّاس كبّر وكبّروا معه، وتقدم الفرسان، وتكتَّبت الكتائب.

ولم يضعضع المدد الذي جاء المسلمين من عزيمة الفرس، فقد أصلحوا توابيت فيلهم واقتحموا بها المعركة منذ أن طلعت الشمس، وهم موقنون أنها ستفتك بالمسلمين أكثر ما فتكت بهم يوم أرماث، وقد اتخذوا حيطتهم لكي لا يصنع المسلمون بها مثلما صنعوا ذلك اليوم، حين قطعوا وضنها، وقلبوا توابيتها، وقتلوا رجالها، ونخسوها فولّت مدبرة، فاحتاطوا لكل ذلك فأحاطوها بفرسان يحمونها، وأنِست الفيلة إلى هؤلاء الحماة فلم تفتك بهم، لكنها لم تفتك كذلك بعدوهم، ذلك أن الفيل إذا كان وحده كان أوحش، فإذا أطاف أصحابه به كان آنس.

وقد شدَّ فرسان المسلمين على حماة الفيلة من العجم، فكانت المعركة تدور حول الحيوانات الضخمة، فتذرها في حيرة لا تدري من تضرب ومن تدع، لذا ظل القتال على شدّته سجالاً بين الفريقين، يتقدّم العرب تارة فيردهم الفرس، ويتقدم الفرس تارة فيردهم العرب.

ثم يزداد الفرس بأساً إذ يَقْدم عليهم من المدائن حرس يزدجرد مدداً فلا يقلّل ذلك من همة العرب ولا يخفف من حر النزال.

كذلك فإن الفيلة ما لبثت حين ألفت الموقف واشتدت من حولها المعركة أن عادت إلى مثل فتكها يوم أرماث.

ورآها سعد تفرّق بين الكتائب، فأرسل إلى جماعة ممَّن أسلموا من فارس، فدخلوا عليه، فسألهم عن مقاتل الفيلة، فقالوا المشافر والعيون.

فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو قائلاً: اكفياني الفيل الأبيض، وكان قريباً منهما.

وأرسل إلى رجلين من بني أسد هما: حمّال والرِّبيِّل الأسديين وقال: اكفياني الفيل الأجرب، وكان قريباً منهما وكانت الفيلة كلها تتبعهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين ووضعاهما في عيني الفيل الأبيض، فقبع ونفض رأسه، وطرح سائسه، ودلَّى مشفره، فضربه القعقاع بسيفه، فرمى به، ووقع لجنبه.

وحمل حمّال الأسدي، وقال لصاحبه الرِّبيِّل: اختر، إما أن تضرب المشفر وأطعن في عينه، أو العكس، فاختار الضرب، فحمل حمال وطعنه في عينيه فأقعى ثم استوى، وضربه الربيل، فأبان مشفره، ففر حتى وثب في النهر، وتبعته الفيلة وقد ألقت ركابها عن ظهورها وتخطت الماء وولَّت مدبرة ولم تعقب حتى أتت المدائن بتوابيتها.

كان خروج الفيلة من المعركة اضطراب في ميزانها، فقد قويت عزائم المسلمين ورأوا في فرارها آية من آيات الله لنصرهم على عدوهم.

أمّا الفرس فاعتدوا بعدتهم وعددهم وبالمدد الذي بعثه يزدجرد إليهم، فأعادوا تنظيم صفوفهم واستأنفوا القتال بحماسة زادها فرار الفيلة استعاراً.

وكذلك التقى الجيشان في قتال وصدام شديدين، وظلا يقتتلان حتى أقبل الليل والغبار مخيم، فلا يعلم سعد ولا يعلم رستم لمن الدائرة وعلى من تدور.

وهدأ القتال أول الليل، وقدر سعد أن الجيشين سيقضيانه يتهيآن ليوم رابع أشد من أرماث وأغواث وعماس فتكاً، ولكنه خشي أن يأتيه العدو من مخاضة بأسفل العسكر، فأرسل طليحة وعمراً في جماعة من الجند وقال

لهما: إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم، وإن لم تجداهُم علموا بها فأقيما حتى يأتيكما أمري.

ولم يجدا على المخاضة أحداً، فسولت لهما نفساهما أن يخوضاها وأن يأتيا الأعاجم من خلفهم، ففعلا.

وأخذ طليحة مكانه وراء العسكر، وكبر ثلاث تكبيرات ارتاع لها الفرس، وظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم، وتعجب المسلمون لسماعها وظنوا أن الأعاجم فتكوا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين، وأغار عمرو على الفرس في أسفل المخاضة، فلم يبق لديهم ريب في غدر العرب بهم، فقدموا صفوفهم زاحفين، ورأى القعقاع صنيعهم، فزاحفهم من غير أن يستأذن سعداً.

وأطل سعد فرأى القعقاع يزاحفهم فقال: اللهم اغفرها له، وانصره، فقد أذنت له، وإن لم يستأذنِّي.

واستقبل الناس الفرس بسيوفهم وخالطوهم، فكان للسيوف قعقعة كأنها صوت مطارق، وبات سعد ليلة لم يبت مثلها، ورأى العرب والعجمُ أمراً لم يروا مثله، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد، وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصبح علم أن المسلمين هم الأعلون، وأن الغلبة لهم، وسمى المؤرخون هذه الليلة ليلة «الهرير».

وكان الناس قد سهروا ليلهم، ونال التعب منهم، فسار القعقاع فيهم وقال: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة، واحملوا فإن النصر مع الصبر.

واجتمع إليه جماعة من الرؤساء ومعهم جنودهم، فصمدوا لرستم حتى خالطوهم الذين دونه، ورأت القبائل صنيع المهاجرين والأنصار، فقام فيهم رؤساؤهم يشيرون إلى هؤلاء المسلمين ويقولون: لا يكونن هؤلاء أَجَدّ في أمر الله منكم، ويشيرون إلى الفرس ويقولون: ولا هؤلاء أجرأ على الموت منكم.

وحملت القبائل على من بإزائهم في قتال شديد ظل متصلاً حتى قام قائم الظهيرة، عند ذلك بدأت صفوف الفرس تضطرب، وتراجع الفيزران والهرمزان في المجنبتين، فانفرج القلب، وهبت ريح عاصف، فأطارت خيمة رستم عن سريره فهوت في العتيق، وزحف القعقاع بمن معه إلى السرير فبلغوه، فإذا رستم قد قام عنه إلى بغال قدمت عليه بمال، فوقف بجوار أحدها يستظل بحمله، واندفع رجال القعقاع إلى ناحية النهر، وهم لا يعلمون بأمر المال الذي تحمله البغال ولا بأمر رستم واحتمائه بظلها، فضرب هلال بن علقمة أحدها فقطع حبال الحمل الذي تحته رستم، فوقع عليه أحد العدلين وهلال لا يشعر به.

وزحف رستم وألقى بنفسه في النهر، فرآه هلال فعرفه، فاقتحم النهر وراءه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله، ثم صعد إلى سريره يصيح: قتلت رستم وربِّ الكعبة! إليَّ! إلي!

وأطاف الجند به يكبرون ويهللون، وعرف الأعاجم ما أصاب قائد الفرس الأعظم فأسقط في أيديهم، فوهنت قوتهم، وانهد ركنهم، فقام فيهم الجالينوس يدعوهم إلى عبور النهر كما عبر الفيرزان والهرمزان، ولكن الردم انهار بهم في النهر المتدافع التيار، فغرق بانهياره ثلاثون ألف فارسي، وأخذ ضرار بن الخطاب علم الفرس الأكبر، وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف.

وكذلك انهزمت جيوش يزدجرد شر هزيمة، وانطلقت فلولهم يولون الأدبار.

أمر سعد بن أبي وقاص قادته الأبطال: القعقاع بن عمرو التميمي وشرحبيل بن حسنة بتعقب الفرس بعد هزيمتهم، ثم أتبعهما زهرة التميمي والنّاس من ورائه.

ولحق زهرة التميمي الجالينوس ووجده يجمع المنهزمين وينظم صفوفهم، فقتله، وجعل المسلمون يقتلون من يلحقونهم من الفرس ويأسرونهم، فلا يلقون منهم أية مقاومة، فتفرقوا وكل واحد منهم يحس أن

إدراك الفرار أمنية غالية على نفسه، بل وكبرى أماني حياته.

كان لهذا النصر الحاسم أثره العظيم، مما دفع نساء المسلمين وصبيانهم حين عرفوا أمر هذا النصر أن يندفعوا إلى ميدان المعركة ليشاركوا فيه.

روي عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي أنها قالت: «شهدنا القادسية مع أزواجنا، فلمّا أتانا أن قد فَرُغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، وما كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصبيان نُوَليهم ذلك ونصرفهم به.

كان هذا النصر غالياً، فقد قاتل المسلمون دفاعاً عن دينهم قتالاً لم يحدث له مثيل من قبل، فقد أرخصوا دماءهم وأرواحهم في سبيل نصر دين الله وإعزاز شأنه، فجزاهم الله الحسنيين، حتى أنه قتل منهم في الساعات الثلاثين التي انتهت إلى النصر ستة آلاف شهيد، وقتل يوم أرماث وأغواث ألفان وخمسمائة، وهذا العدد من القتلى كان مما يفوق تصور العرب والمسلمين لذلك العهد.

لكنه لم يكن شيئاً بالقياس إلى من قتل من الفرس في حومة الوغى، ومن غرق منهم في النهر حين الهزيمة، ومن تردى بعد ذلك قتيلاً حين الفرار من المطاردة.

عاد القعقاع وزهرة التميمي وسائر الأمراء والجند فأحاطوا بسعد، فألفوه وقد خفف النص بعض علته، وجمع الناس الأسلاب والأموال، فإذا شيء لا يحيط به خيال عربي، وأرسل سعد إلى هلال بن علقمة فسأله عن رستم وقال له: جرّده إلا ما شئت، فلم يدع هلال على القتيل شيئاً إلا أخذه، فبلغ ذلك سبعين ألفاً، ولولا أن قلنسوته سقطت في النهر لضاعف ذلك حظ هلال.

وجاء زهرة بن الحوية بسلب الجالينوس، فاستكثر سعد أن ينفله إياه كاملاً، فكتب إلى عمر في ذلك فردّ عليه عمر: «تعمِد إلى مثل زهرة وقد

صَلِيَ بمثل ما صلي به، وقد بقي عليك من حربك ما بقي، تفسد قلبه، امض له سَلَبَه، وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسائه».

وقسّم سعد الفيء في النّاس، فكان عطاء الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين، ثم فضّل أهل البلاد، فزاد كل واحد منهم خمسمائه، ومع ذلك بقي من الفيء شيء كثير غير الخمس الذي نحّاه سعد ليبعث به إلى المدينة، وكتب سعد إلى عمر بما فعل، وسأله عما يفعل بما بقي عنده، فكتب إليه عمر: «أن ردّ على المسلمين الخمس وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الوقعة»[1].

أطاع سعد بن أبي وقاص أمر عمر، فبقي لديه ما اضطره أن يبعث إلى عمر يسأله ما يفعل به، وأمر عمر أن يوزع على حَمَلة القرآن، وفيما هو يوزعهُ عليهم إذ أتاه عمرو بن معديكرب وبشر بن ربيعة الخثمي، وكانا أبليا في الموقعة بلاءً ضاعف جزاءهما، وهذا البلاء هو الذي أطمعهما في أن يكون لهما حظ مع حملة القرآن.

وسأل سعد عمرو بن معديكرب: ما معك من كتاب الله تعالى؟

قال عمرو بن معديكرب: إني أسلمت باليمن، ثم غزوت فشُغِلت عن حفظ القرآن.

عند ذلك أبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيباً.

وسأل سعد بشراً عمّا يحفظ من القرآن.

فقال: بسم الله الرحمن الرحيم! وضحك القوم ولم يفز بشر من هذا المال بنصيب.

ولم يرض بشر بن ربيعة ولا عمرو بن معديكرب بما أجابهما سعد، بل قال عمرو بن معديكرب:

---

(١) انظر: تاريخ الطبري فقد جاءت هذه القوات من الشام مع هاشم بن عتبة ومنهم من لم يدرك معركة القادسية، بل وصل بعضها بعد انتصار المسلمين وفرار الفرس. وهؤلاء هم الذين قصدهم عمر.

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
تعطي السَّويَّة من طعنٍ على نفذٍ ولا سويَّة إذ تعطي الدنانير[١]

وقال بشر بن ربيعة:

أنخت بباب القادسية ناقتي وسعد بن وقّاص عليَّ أمير
وسعدٌ أمير خيرُه دون شره وخير أمير بالعراق جريرُ
تذكَّرْ هداك الله وقع سيوفنا بباب قديس والمكرُ عسيرُ
عشية ود القوم لو أنَّ بعضهم يُصار جناحيْ طائر فيَطير[٢]

كتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما قاله عمرو بن معديكرب وبشر، وما قاله لهما، وردودهما عليه، وبعث إليه بأبيات الشعر المذكورة عنهم، فكتب عمر رضي الله عنه إلى سعد: أعطهما على بلائهما، فأعطي كل واحد منهما ألفي درهم، فأرضهما ولا تغضب أحداً، فقد عرف النّاس جميعاً أنهما، إلى حسن بلائهما، أحرص على المال من غيرهما.

كانت نهاية الفرس في معركة القادسية تعد بداية النهاية لأمبراطوريتهم، فكان نصر المسلمين حاسماً، تطلع إليه بشوق كل أهل الجزيرة... وتلهفوا أنباء تأتهم كما تلهف معهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتشوق إلى أنباء النصر.

فقد ذكر المؤرخون أنه: «كانت العرب، من العُذيب إلى عدن أَبْيَنَ، ومن الأبلة إلى بيت المقدس، يتربصون وقعة القادسية، يرون أنّ ثبات ملكهم وزواله بهم، وقد بعث أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون خبرهم، وكان عمر بن الخطاب أشد الناس تطلعاً وشوقاً لمعرفة ما تنتهي إليه، لذلك كان يخرج كل صباح إلى ظاهر المدينة يسأل الركبان عن أهل

(١) انظر: تاريخ الطبري.
(٢) هذه الرواية كاملة هي رواية الطبري وغيره من المؤرخين، والبلاذري لا يروي أبيات عمرو، ويروي أبيات بشر مما يرويه مِمّا قاله: أبطال القادسية إشادة ببطولاتهم.

القادسية، فإذا انتصف النهار رجع إلى أهله ومنزله، وإنه ليسير يوماً إذ لقيه راكب على ناقة حين سأله أنه مقبل من هناك، فقال له: يا عبداللّه حدّثني.

قال الرجل: هزم الله المشركين.

فجعل عمر يمشي معه يسأله والراكب يحدثه وهو على ناقته لا يعرفه، وكان هذا الراكب هو سعد بن عميلة الفزاري رسول سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين، وكان يحمل رسالة سعد إلى عمر بالفتح وبعدّة من أُصيب من المسلمين وأسماء من عُرِف منهم، فلما دخل الرجلان المدينة وسلم الناس على عمر بإمرة المؤمنين، قال ابن عميلة لعمر: هلا أخبرتني رحمك الله أنَّك أمير المؤمنين.

فأجابه عمر في بساطة: لا عليك يا أخي! وتناول منه كتاب سعد وقرأه على النّاس.

هذه هي وقعة القادسية التي فتحت الطريق إلى المدائن حيث إيوان كسرى وعرشه، وكانت فتحاً عظيماً لبلاد فارس.

فتح المدائن

١ ـ موقعة بُهَرسير

كان الفرس قد فروا إلى بابل، وتَفرق الآخرون في أرجاء فارس عقب هزيمة القادسية القاسية، أما المسلمون فأقاموا بالقادسية شهرين حتى أراحوا ظهورهم وشفي سعد من مرضه.

وكان عمر قد كتب إلى سعد ألاّ يبرح منازله حتى يأتيه أمره، وأن يخلّف النساء والعيال بالعتيق، على أن يجعل عليهم حرس كثيف من الجند يكون لهم حظ إخوانهم المقاتلين من الغنم جزاء حراسة أُسر المسلمين.

وقدّم سعد زهرة بن الحوية إلى بهرسير، فتلقاه شيرازاذ بساباط وهي قرب المدينة، فصالحه وأدى الجزية، فأرسله إلى سعد.

وسار زهرة بن الحوية حتى لقي كتيبة لكسرى في منطقة تسمى «المُظْلم» فهزمهم.

ثم جاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (ابن أخي سعد) إلى المُظْلم ولحق به سعد، ونزلوا بهرسير، وجعل المسلمون كلما قدمت خيل وقفوا ثم كبروا، حتى اجتمع إليهم آخر مَن مع سعد.

وفي أثناء وقوفه على أبواب بهرسير بث الخيول، فأغارت على ما بين دجلة والفرات، فأصابوا مائة ألف فلاح، فقال شيرازاذ لسعد: إن هؤلاء

ليسوا محاربين، ولم يحرّضوا عليكم؛ فاتركوهم، فتركهم سعد له، بعد أن كتب عليه كتاباً بأسمائهم.

ثم كتب سعد إلى عمر رضي الله عنه يقول فيه: إنا وردنا بَهُرَسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير، فلم يأتنا أحد لقتال فبثت الخيول، وجمعت الفلاّحين من القرى والآجام فَرَ رأيك.

فأجابه عمر: إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانُهم، ومن هَرَب فأدركتموه فشأنكم به.

ولما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم، ودعاهم إلى الإسلام والرجوع، أو الجزية ولهم الذمة والمنَعَة، فقبلوا الجزية والمنعة، فلم يبق في غربي دجلة مكان أو جمع إلاّ آمن واغتبط بمُلك الإسلام.

وأقام سعد على حصار بهرسير شهرين، وجُنودُه يرمونهم بالمجانيق، ويقابلونهم بكل عُدّة، وكان على بهرسير خنادقها وحَرَسها وعُدّة الحرب، واستصنع سعد شيرازاذ لنصب المجانيق، فنصب على أهل بهرسير عشرين منجنيقاً.

ولكنهم انسحبوا وهربوا في جنح الليل إلى المدائن، بعد أن أحرقوا الجسر والسفن، ودخل سعد بهرسير، وتحول العسكر إليها فلم يجدوا الجسر ولا سفناً تحملهم.

٢ ـ دخول المدائن

وبعد أن دخل سعد بهرسير طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدائن، فلم يقدر على شيء، ووجدهم قد أخذوا ما استطاعوا وأحرقوا ما تبقى، فأقام ببهرسير أياماً من صفر، يمنعَهُ العبور إلى المدائن الخوف على المسلمين، حتى أتاه رجال من كفار العجم، فدلوه على مخاضة تُخاض إلى صُلْب الوادي، فأبى وتردد عن ذلك.

ثم رأى رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمتها، فعزم على العبور لتأويل رؤياه، وجمع النّاس وقام فيهم وقال لهم ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: إنَّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلُصون إليه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام، وعطّلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم[1]، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ذلك على الرشد، فافعل.

ولكن كيف يعبرون وجند فارس على الشاطىء الآخر يصدونهم فلا يخرجون من الماء؟

كانت هذه مشكلة تنبه إليها سعد، فندب الناس وقال: من يبدأ ويحمي لنا الفِراض[2] حتى نلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من الخروج؟

وانتدب عاصم بن عمرو القوي صاحب البأس والإرادة القتالية، وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدة، وجعل سعد عاصماً أميراً عليهم، فساروا حتى بلغوا شاطىء دجلة، فقال عاصم لأصحابه: من ينتدب معي لنمنع الفِراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا؟

فخرج له ستون، فتقدمهم عاصم إلى حافة النهار، وهو يقول للذين ترددوا من حوله: أتخافون! وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ثم دفع فرسه فاقتحم النهر واقتحم أصحابه معه، ورأى عاصم بن عمرو وقد مدَّ بصره إلى الجانب الآخر من النهر، فرأى الفرس وكأنما يتهيأون للقائها، فأمر أصحابه الستمائة

---

(١) الذائد: الرجل الذي يحمي ويدفع وجمعه ذادة.

(٢) الفراض: جمع فرضة، وهي هنا ثغور المخاضة من الناحية الأخرى.

فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه، وتولى الفرس العجب لما صنع المسلمون، فقال بعضهم: مجانين! مجانين!

وقال آخرون: إنكم والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جنًّا!

فقال عاصم لأصحابه: الرماح الرماح! أشرعوها وتوخوا العيون، فطعنوهم في أعينهم، فمن لم يقتل منهم صار أعوراً، وزلزلت بهم الخيول حتى فرت عن الشاطىء.

وملك عاصم والستون الشاطىء وتلاحق الستمائة.

ولما رأى سعد عاصماً على الشاطىء وقد حماها من الفرس أذِن للناس في الاقتحام، وقال: قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وتلاحق معظم الجند، وركبوا اللُّجَّ، وإن نهر دجلة لترمي بالزبد والموج، وإن النّاس ليتحدثون في عومهم وعبورهم النهر ما يكترثون، كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض.

وكان سعد وراءَهم يسايره في الماء سلمان الفارسي، فعامت بهم الخيل، وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل! والله لينصرن الله وليّه، وليظهرن الله دينه، وليهزمنَّ الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغيّ أو ذنوب تغلِب الحسنات.

فقال له سلمان: ذُلّلت لهم والله البحور كما ذُلِّلَ لهم البر؛ أما والذي نفسي سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً.

وملأوا نهر دجلة خيلاً ورَجلاً حتى ما يرى الماء من الشاطىء أحد، ثم خرجوا من الماء، والخيل تنفض أعرافها صاهلة، فلما رأى الفرس ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء، وانتهى المسلمون إلى القصر الأبيض، وفيه قومٌ قد تحصنوا، فعرضوا عليهم ثلاثاً، يختارون منها أيّهما شاؤُوا.

قالوا: وما هُنَّ؟

قالوا لهم: الإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن

أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فمناجزنكم، حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

فأجابوهم: لا حاجة لنا في الأولى، ولا في الآخرة، ولكن الوسطى.

دخل سعد المدائن، وانتهى إلى إيوان كسرى، وأقبل يقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

وصلى فيه سعد صلاة الفتح ثماني ركعات لم يفصل بينهن، واتخذه مسجداً.

وجمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم، وكان ذلك شيئاً كثيراً، وكان نصيب الفارس من المغنم اثني عشر ألفاً، وكلّهم كان فارساً.

ثم قسم سعد دور المدائن بين الناس، وسكن هو القصر، ثم جمع الخمس، وجمع فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه وأرسله إليه.

ولما ورد الخمس على عمر قسّمه على مستحقيه.

وصدر بعد ذلك أمر عمر رضي الله عنه بتولية سعد بن أبي وقاص ما تحت يده، وولّى النعمان بن مقرن المزني وأخيه سويد بن مقرن الخراج: النعمان على ما سقى نهر دجلة، وسويد على ما سقى نهر الفرات، وهكذا تم فتح المدائن.

معارك قبل نهاوند

١ ـ جلولاء

جاءت الأنباء إلى سعد وهو في قصره بقصر كسرى تقول بأن الفرس الذين فروا منهزمين بلغوا جلولاء، على نحو أربعين ميلاً في شمال المدائن، وأنهم رأوا الطرق عندها تفترق إلى شتى الأرجاء من إيران، فقال بعضهم لبعض: لو افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي، وإن كانت الأُخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبدينا عذراً.

وجاءت الأنباء كذلك لسعد بأن يزدجرد اجتمع لديه وهو في طريقه إلى حلوان رجال وأعوان وجنود من شتى البلدان، فأمّر عليهم مهران ووجهه معهم إلى جلولاء، وأقام بمقره الجديد يمدهم بالرجال والأقوات، واجتمع هؤلاء وما بقي من فلول الفرس في معركة المدائن، وحفروا حول جلولاء خندقاً عظيماً، وتعاهدوا ألا يفروا، وأن يفنوا المسلملين عن آخرهم ويجلوهم عن بلادهم.

بعث سعد بن أبي وقاص بكل هذا إلى عمر رضي الله عنه بالمدينة.

وكتب عمر إليه أن سَرِّح هاشم بن عتبة إلى جَلُولاء في اثني عشر ألف على مقدمتهم القعقاع بن عمرو.

وسار هاشم وجنده من المدائن إلى جلولاء حتى قدم على الفرس

وأحاط بهم فحاصرهم، وطاولهم أهل فارس وجعلوا لا يخرجون إليهم إلا إذا أرادوا، وزاحفهم المسلمون ثمانين زحفاً، وهم في كل مرة ينالون من الفرس، وجعل هاشم يقوم في الناس ويقول: إن هذا المنزل ما بعده منزل، وجعل سعد يمده بالفرسان حتى إذا كان أخيراً احتفلوا للمسلمين، فخرجوا عليهم، فقام هاشم في الناس فقال: ابلوا في الله بلاءً حسناً، يتمّ عليكم الأجر والمغنم، واعملوا لله[1].

فالتقوا واقتتلوا، وبعث الله ريحاً أظلمت عليهم البلاد، فلم يستطيعوا المحاجزة، فتهافت فرسانهم في الخندق، لكن المسلمين عاجلوهم مرة أخرى، وكان قتالاً شديداً سريعاً، وقد بلغ القعقاع في الوجه الذي هجم فيه عليهم إلى باب لهم فأخذ به، وأمر منادياً فنادى: يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل خندق القوم، وأخذ به فأقبلوا إليه، ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخوله، فقوي المسلمون، وحملوا عليه، وانهزم الفرس يمنة ويسرة حول الخندق، فهلكوا، وعقرت دوابهم، وعادوا بدون خيل رَجَّالة، وتبعهم المسلمون، فلم يفلت منهم إلا القليل، وقتل منهم يومئذ مائة ألف[2].

٢ ـ يوم تكريت[3]

وبعد جلولاء كان يوم تكريت، الذي خندق بها الفرس، فهاجمهم عبدالله بن المعتم على رأس خمسة آلاف، فهجموا عليهم ودخلوا المدينة وبادروهم بالسيوف، ومضى عبدالله بعد ذلك إلى حصونهم في نينوى والموصل فاستجابوا للصلح، وصارت لما استجاب للصلح الذمة والمنعة، واقتسموا في تكريت كل سَهْم ألف درهم، وبعثوا بالأخماس إلى عمر مع فرات بن حيان، وبخبر الفتح مع الحارث بن حسان.

---

(١) انظر: الطبري ١٧٩/٤؛ معجم البلدان ١٢٩/٣ وما بعدها.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٨١/٤.

(٣) كان في سنة ١٦ هجرية.

٣ ـ قرقيسياء[1]

لما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء، اجتمعت جموع أهل الجزيرة بمدينة «هيت» على شاطىء الفرات، وكتب بذلك سعد إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن ابعث إليهم عمر بن مالك في جند على مقدمته الحارث بن يزيد العامري، وعلى مجنبتيه ربعي بن عامر، ومالك بن حبيب.

فخرج عمر بن مالك في جنده سائراً نحو «هيت»، وقدم الحارث بن يزيد حتى نزل عليها، وقد خندق أهلها عليهم.

فلما رأى عمر بن مالك امتناع القوم بخندقهم واعتصامهم به استطال ذلك، فترك الأخبية على حالها، وخلّف عليهم الحارث بن يزيد، فحاصرهم وخرج في نصف الناس يعارِض الطريق، حتى جاء قرقيسياء على حين غِرة، فأخذها عنوة، وأجابه أهلها إلى الجزية، وكتب إلى الحارث بن يزيد في شأن أهل هيت: إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا، وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك، حتى أرى من رأيي، فاستجابوا وانضم الجند إلى عمر، والأعاجم إلى بلادهم.

بعد هذا اليوم صار السواد كله في يد المسلمين، فمهدوا طريق إدارته، وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال، فكان الفلاحون للطرق والجسور والحرث والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم، وكان في صلح المسلمين لهم: أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة.

معركة نهاوند[2]

جاء الخبر إلى عمر أن أهل فارس كاتبوا ملكهم يزدجرد وهو يومئذ بمرو، وكان يزدجرد قد اضطرب في أرجاء فارس منذ أن فرّ من المدائن ثم استقر بمرو.

---

(١) قرقيسيا بلد عند ملتقى نهر الفرات بنهر الخابور على الحدود بين العراق والشام.
(٢) نهاوند من بلاد الفرس، قرب همذان انظرها في الطبري ٢٣٧/٤، والبداية والنهاية لابن كثير، ومعجم البلدان ٣٢٩/٨.

كاتبه الناس ليكون على رأس حركة الفرس حتى يجتمع النّاس وينضموا تحت لوائه، فلما جاءته الكتب، ورأى فيها اجتماع كلمة الفرس وشدّة حماستهم لدفع عدوّه وعدوّهم، تبدّل يأسه أملاً، واضطرابه طمأنينة، فكاتب أهل الجبال وسائر الولايات والبلاد في مملكته يشجعهم ويدعوهم إلى قتال العرب، فتحركوا وتكاتبوا، وركب بعضهم إلى بعض، وأجمعوا على تلبية نداء الملك، وبعث كل أمير جنده إلى نهاوند حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً واجتمعوا بأمر الفيرزان.

فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن عمر لمّا طال مُلكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا في عقر دارنا، وأخذ بيت المملكة، وهو آتيكم إن لم تأتوه، وليس بمنته حتى تُخْرِجوا من في بلادكم من جنده.

وقام الأُمراء بنقل حديث ملكهم إلى جنودهم، فاشتعلت حماستهم وقويت عزائمهم.

وكان سعد بن أبي وقاص قد كتب إلى عمر، فقال: إن أهل الكوفة يستأذنوك في الانسياح، وكان عمر منعهم من ذلك، فلما بلغه تجمع الفرس شخص إليه بالخبر مشافهة، بعد أن استخلف عبدالله بن عبدالله بن عتبان على الكوفة.

ثم لم يلبث عبدالله أن كتب إلى عمر يقول: إن أهل فارس قد تجمعوا، فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم.

فكّر عمر في الأمر، واستجمع كل هذه الأخبار، واستشار الصحابة الأخيار مثل علي وعثمان.

فقال عثمان: نكتب لأهل الشام فيسيروا، وكذلك أهل اليمن، وتسير أنت على رأس أهل هذين الحربين.

أمّا عليّ فإنه خاف على الشام من الروم، وعلى اليمن من الحبشة،

وعارض خروج أمير المؤمنين على رأس الجيش، ونصح بأن يكتب إلى أهل البصرة ليخرجوا إليهم، وأن يبقى هو كما هو مكانه أمير العرب والمسلمين.

وطلب عمر أن يشيروا على رجل من أصل العرب وقال: أشيروا عليَّ به واجعلوه من أهل العراق.

فقال: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق.

فقال عمر: أما والله لأولين أمرهم رجلاً، ليكونن أول الأسنة إذا لقيها غداً.

فقيل: من يا أمير المؤمنين؟

فقال: النعمان بن مقرن.

فقالوا: هو لها.

النعمان قائد المعركة

وكتب عمر إلى النعمان وكان على الخراج ببلدة قريبة من واسط اسمها: كسكر.

كتب عمر يقول: بسم الله الرحمن الرحيم.

سلام عليك... أما بعد، فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقَّهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار، والسلام عليك.

تعبئة جيش النعمان

كتب عمر لأهل الكوفة أن يوافوا النعمان وعليهم حذيفة بن اليمان، وكتب لأبي موسى أن يسير بأهل البصرة، وأرسل جموعاً من المدينة فيهم عبدالله بن عمر، وحدد قيادة الجيش للنعمان، فإذا حدث به حدث فعلى الناس حذيفة، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن.

وبعث السائب بن الأقرع ليقسم بينهم الفيء، وكتب عمر إلى سَلْمَى بن القين وحرملة بن ريطة وأمراء الجند الذين كانوا بين فارس والأهواز: أن اشغلوا فارس عن إخوانكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري.

فقطعوا بذلك على أهل نهاوند إمداد فارس.

وطلب عمر من أهل الكوفة في كتاب لهم أن يقفوا إلى جانب النعمان، ونصح النعمان قائلاً: سل طليحة الأسدي وعمرو بن أبي سلمى العنزي وعمرو بن معديكرب، ولا تولهم شيئاً.

واجتمعت جموع الفرس، وأرسل بندار، وكان من قادتهم، أرسل للمسلمين: أن أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه.

فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة، فدخل عليه وهو جالس على سرير من ذهب، وعلى رأسه تاج وحوله حواسه بحرابهم اللامعة، فهدد بندار المغيرة والمسلمين ووصفهم بأنعت الأوصاف وأسوأها.

فرد عليه المغيرة بقوله: كنا كما تقول حتى أرسل الله عز وجل رسوله فوعدنا بالنصر، والجنة.. وقال المغيرة له في حزم وحسم: إنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما في أيديكم، أو نُقتل بأرضكم، ثم قام وقد أصاب قائد الفرس رعباً ما بعده رعب.

ثم أمر النعمان بالتعبئة، فلما رأى الفرس كبّر وكبّر الناس معه، مما أوقع الرعب في قلوب الأعاجم.

وأنشب النعمان القتال، فاقتتلوا يومين، والحرب بينهم في ذلك سجال، ثم انحجز الأعاجم في خنادقهم وحصرهم المسلمون، فأقاموا فيها ما شاء الله، لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج.

فاشتد ذلك على المسلمين، وخافوا أن يطول أمرهم، فهم معتصمون بالحصون من الخنادق والمدائن، ويخرجون متى شاؤوا.

تشاور النعمان مع أصحاب الرأي من رجاله مثل عمرو بن ثُبي، وكل

أكبر الناس يومئذ سناً، وتكلم عمرو بن معديكرب، إلا أن الرأي الراجح جاء من طليحة الأسدي فقال: أما أنا فأرى أن نبعث خيلاً، فيحدقوا بهم ويرموهم لينشبوا القتال، ويستفزونهم ويغضبوهم، فإذا غضبوا اندفعوا واختلطوا بهم في القتال فإذا خرج الفرس خلفهم رجعوا إلينا كأنهم مطاردين منهم، وإنا إذا فعلنا ذلك، طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها، فإذا فعلنا ذلك خرجنا عليهم من كمائن ننصبها لهم فقاتلناهم حتى يقضي الله فينا وفيهم ما أَحبَّ.

وافق النعمان رأي طليحة ووافقه الناس جميعاً.

وأمر النعمان القعقاع بن عمرو، وكان على المجرَّدة أن يقاتلهم، فأنشب القعقاع القتال بعد احتجاز من العجم، فلما خرجوا تراجع القعقاع، ثم تراجع، واغتنمها الفرس، ففعلوا كما ظن طليحة، وخرجوا فلم يبق منهم أحد يقوم لهم على الأبواب، وانقطعوا عن حصنهم بعض الانقطاع، والنعمان والمسلمون على تعبيتهم في يوم جمعة في صدر النهار، وظل المسلمون على طاعتهم لأميرهم النعمان، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أصابوهم بجراحات كثيرة، وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض، ثم قالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما لقي الناس فما تنتظر بهم! ائذن للناس في قتالهم.

فظل النعمان يصبرهم ويقول لهم: رويداً رويداً، حتى إن المغيرة بن شعبة قال: لم أر كاليوم فشلاً.

فهدّأ من روعه النعمان حتى انقضى جزء كبير من النهار، عندها تحرك النعمان ودعا الناس إلى اختيار إحدى الحسنين الشهادة أو النصر والفتح.

وقال لهم: استعدوا، فإني مكبِّرٌ ثلاثاً: الأولى تهيأوا فيها، والثانية شدوا على سلاحكم، والثالثة فإني حاملٌ إن شاء الله فاحملوا معنا..

ثم قال: اللهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك!

وحمل النعمان بعد أن كبّر الثالثة وحمل الناس معه، فدار القتال شديداً بالسيوف، لم يسمع السامعون بوقعه يوماً قط كانت أشد منها، فقتلوا من أهل فارس بين الزوال والإعتام، ما طبّق أرض المعركة دماً يزلق الناس والدواب فيه، وأصيب فرسانٌ من فرسان المسلمين في الزلق في الدماء، فزلق فرس النعمان فصُرِعَ، وأصيب النعمان حين زلق به فرسه وصرع، وتناول الراية نعيم بن مقرن أخو النعمان قبل أن تقع، وسجّى النعمان بثوب، وأتى حذيفة بالراية فدفعها إليه ـ وكان اللواء مع حذيفة ـ فجعل حذيفة نعيم بن مقرن مكانه، وأتى المكان الذي كان فيه النعمان فأقام اللواء، وقال المغيرة بن شعبة: اكتموا مُصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم، لكيلا يَهِن النّاس.

واستمر القتال، حتى إذا أظلهم الليل انكشف المشركون، ومات منهم مائة ألف أو يزيدون، ولم يفلت إلا الشريد، ونجا الفيرزان وهرب نحو همذان، ورآه نعيم بن مقرّن، فدفع القعقاع في أثره، فأدركه حين انتهى إلى ثنية همذان، والثنية مشحونة بالبغال والحمر، وقد عاقها عسل عن الهرب وحبسها، فقُتل الفيرزان على الثَّنيّة بعدما أعاقه الزحام، وقال المسلمون: إن لله جنوداً منها العَسل.

ومضى المهزومون من الفرس حتى انتهوا إلى مدينة همذان، والخيل في آثارهم، فدخلوها، فنزل المسلمون عليهم وحووا ما حولها.

ودخل المسلمون بعد هزيمة الفرس نهاوند، واحتووا ما فيها وما حولها، وقسم حذيفة بن اليمان بين الناس غنائمهم، فكان سهم الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين، ونفَّل من شاء من أهل البلاء، ورفع ما بقي من الأخماس صاحب الأقباض، ليبلغها إلى عمر ويبشره بالفتح.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين في نهاوند أصابوا غنائم عظاماً، فوالله إني لأُقْسِمُ بين الناس إذ جاء رجل من أهلها، فقال: أتؤمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي، على أن أدلك على كنوز آل كسرى، تكون لك ولصاحبك، لا يشركك فيها أحد؟

قلت: نعم.

قال: فابعث معي من أَدُلّه عليها.

فأتى بسفطين[1] عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فلما فرغت من قسمي بين النّاس احتملتها معي، ثم قدمت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: ما وراءك يا سائب.

فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، فتح الله عليك بأعظم الفتح، واستشهد النعمان بن مقرن ـ رحمه الله ـ.

فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم بكى فنشج أشد نشيج، ثم قام ليدخل.

فقلت: إن معي مالاً عظيماً قد جئت به، ثم أخبرته خبر السفطين.

فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك.

قال: فأدخلتهما بيت المال وخرجت سريعاً إلى الكوفة.

قال السائب: وبات عمر تلك الليلة التي خرجت فيها، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني حتى دخلت الكوفة، فأنخت بعيري وأناخ بعيره معي.

فقال: الحق بأمير المؤمنين، فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلاّ الآن.

قال السائب له: ويلك! ماذا؟ ولماذا؟!

قال: لا أدري والله.

فركب السائب معه حتى قدم على عمر، فلما رآه قال: ما لي ولابن أم السائب! بل ما لابن أُم السائب وما لي!

---

(١) السفط: الجوال أو القفة.

قال السائب: وما ذاك يا أمير المؤمنين.

قال: ويحك! والله ما هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها، فباتت الملائكة وهي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً، يقولون: لنكوينك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين، فخذهما عني لا أبا لك!! والحق بهما فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم.

فخرج بهما السائب وباعهما، وقال: فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد.

وبذلك استطاع عمر بقيادة جنوده الأبطال القضاء على أسطورة الفرس وفتح بلادهم جميعاً.

فتوح الشام

غزو حمص ودمشق

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة يأمره بغزو حمص، فسار في قواته ومعه خالد بن الوليد في طريق دمشق، فلما بلغ عاصمة الشام أمر هاشم بن عتبة ففصل في قوات لنجدة سعد بن أبي وقاص بالعراق في القادسية كما ذكرنا.

وسار أبو عبيدة يريد حمص، فالتقى بالقوة التي وقفت رِدْءاً لدمشق من شمالها، وكان أميرها ذي الكلاع الحميدي، فأمرها بالسير معه، فلما بلغ مرج الروم إلى الشمال الشرقي من دمشق لقي جيشاً من الروم بعث به هرقل يقوده «توذر» البطريق، فوقف قبالته.

وإنه لكذلك إذ أقبلت فرقة من الفرسان على رأسها شنس الرومي مدداً لتوذر، ولكن شنس عسكر على حدة، وتداول أبو عبيدة وخالد بن الوليد ما يصنعان، فاستقر رأيهما على أن يلقى خالد توذر، وأن يلقى أبو عبيدة شنس.

ولما أصبح خالد ليقاتل توذر لم يجده ولا قواته، فقد ذهب إلى دمشق وعليها يزيد بن أبي سفيان في كتيبة قليلة، فأسرع خالد بعد أن فطن للخطة، فوجد القتال قد أنشب بين يزيد وتوذر بعد أن أغلقت أبواب المدينة حتى يأتيه المدد، وبينما توذر يهاجم يزيد بن أبي سفيان أقبل خالد في كتيبته، فأخذ الروم من خلفهم، وكبر وكبر من معه، فسمع رجال يزيد

تكبيرهم فأيقنوا المدد، فزاد ذلك في قوتهم، أما الروم فأخذهم يزيد من أمامهم، وخالد من خلفهم، وأمعنوا فيهم قتلاً، فلم يفلت منهم إلا الشريد، وغنم المسلمون خيلهم ودوابهم، فقسمه يزيد على أتباعه وأتباع خالد، ثم عاد إلى دمشق منتصراً.

وعاد خالد بعد هذه الموقعة بعد أن قتل توذر، فسار إلى مرج الروم، فوجد أبا عبيدة انتصر على شنس وقتله ومزّق جيشه كل ممزق، وانطلق يلاحق فلوله إلى حمص.

وبلغت هذه الأنباء هرقل، وبلغه أن أبا عبيدة يحاصر بعلبك، حتى صالح أهلها أبا عبيدة فتركهم إلى حمص فحاصروها، وعلى مقدمته خالد بن الوليد، وطال حصارها في البرد القارس، وصالحوا خالد وأبا عبيدة على صلح دمشق في الخراج والجزية، وأخذوا منهم من المنازل ما يكفي لإقامتهم.

وكتب أبا عبيدة لعمر بذلك، فبعث إليه عمر: أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام، فإني غير تارك البعثة إليك بمن يكاتفك إن شاء الله.

كان فتح دمشق عند بعض المؤرخين بعد اليرموك وفي السنة نفسها بعد حصار دام سبعين يوماً أو أربعة أشهر أو ستة أشهر، وعلى جميع الأقوال إنما كان ذلك في سنة واحدة، أي حصل كل ذلك ولم تخرج سنة ثلاث عشرة للهجرة النبوية، والرأي الذي رجّحه ابن كثير هو أنها فتحت في رجب سنة ١٤هـ، وقال: هو رأي الجمهور[١].

من دمشق إلى فحل

كان أبو عبيدة قد انتهى من دمشق، وعقد الصلح مع أهلها كما ذكرنا، ونظر فإذا هرقل يحرض الناس عليهم، والروم يجتمعون حوله في

---

(١) ابن كثير (٢٢/٧) البداية والنهاية.

إنطاكية، وفكّر القائد ماذا يصنع؟ أيذهب إلى هرقل ليقضي عليه، ويريح المسلمين من تحريضه وشرّه؟ أم يذهب إلى فحل ليؤمن ظهر الناس، وتصير الشام بعدها سلماً للمسلمين؟؟.

سار أبو عبيدة إلى فحل، وكان من رأيه أن يبدأ بها قبل دمشق، لأن بها جيشاً للروم قوامه ثمانين ألفاً، ويمكن أن يقطع الطريق بين دمشق وقيادة المسلمين، لكن عمر رضي الله عنه كان قد أمر بالبدء بدمشق فكانت.

خلّف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان في خيله على دمشق حتى لا ترتد، وسار إلى فحل، وكان شرحبيل بن حسنة هو أمير الجيش حسبما أوصى الخليفة عمر، ورتب شرحبيل جيشه، فجعل خالد على المقدمة، وأبا عبيدة وعمرو بن العاص على المجنبتين، وضرار بن الأزور على الخيل، وعياض بن غنم على الرُّجل(١).

ونزل شرحبيل بجيشه الذي ضم خيرة قواد المسلمين على فحل، فوجد الأرض لا زالت غارقة بالوحل والماء، وبحث المسلمون حولهم فوجدوا أنفسهم بأطيب مقام، لخصوبة الأرض وكثرة الخيرات، بينما كان الروم محصورون لا يصلهم مدد، ولا يسعفهم عون.

وكتب القائد إلى عمر يخبره بموقف الجيش، وذلك ما كان يوصي به عمر قادته دائماً.

عزم سقلار قائد الروم على مباغتة المسلمين وتبييتهم، فأرسل فرقة من جنوده ليكشفوا له من خلال الوحل طريقاً بها يهاجم منه المسلمين، ظنّاً منه بأنه سيأخذهم على غرة وهم نائمون.

ولكن شرحبيل بن حسنة قائد جيش المسلمين كان دائم التعبئة لقواته، وعلى أهبة الاستعداد، لأنه كان يتوقع أن يهاجمه الروم في كل لحظة.

واستغل سقلار ظلام الليل وأراد أن يفاجىء شرحبيل والمسلمين،

---

(١) تاريخ الطبري ٤٤٢/٣.

لكنهم تلقوه بقتال شرس، واستمرت المعركة حامية الوطيس طوال الليلة التي هاجم فيها سقلار، وتنفس الصبح والقتال لا يزال مستعراً، وأيقن المسلمون أن صبرهم ساعة سيحقق لهم النصر، فصبروا، وانتصف النهار والقتال يشتد ويشتد، وتحمس المسلمون، وأيقنوا أن النصر قادم بعد الزوال كما علمهم رسول الله ﷺ، وبدا على جيش الروم إعياء شديد، ولحظ خالد بن الوليد وضرار بن الأزور ما أصاب جيش الروم من الفشل والوهن، فشدا عليه شدّة واحدة أحدثت فيه خللاً واضطراباً، وأقبل الليل وما زالت سيوف المسلمين تنهب أجسادهم، فاضطربوا، وحسبوا أن الظلام فرصة للهرب، فانهزموا، وضلوا الطريق، فدخلوا في الوحل الذي صنعوه ليمنع زحف المسلمين فقتل سقلار قائدهم ومعه رديفه نسطورس، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه[1].

ولحق بهم المسلمون وقد أعجزهم الوحل، فقتل منهم المسلمون ثمانين ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد، وهكذا بدأت الهزيمة في فحل واستحر القتل في الطين والوحل[2].

وكانت غنائم هذه المعركة كثيرة جداً حتى أن المؤرخين لم يقدروها، واقتسم المسلمون الغنائم، وتم لهم نصر الله عز وجل الذي وعدهم به.

وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حمص تنفيذاً لأمر الخليفة عمر رضي الله عنه، وصحبا معهما سمير بن كعب وذي الكلاع الحميري ومن معه، وخلفا شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص ليتمما فتح الأردن وفلسطين.

فتح بيت المقدس

بعد فتح الشام وفوز المسلمين بمرج الروم ثم زحفهم إلى حمص واحتجازهم الروم بالمدينة محصورين، وصلحهم للمسلمين على مثل صلح

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير ٢/٤٣٠، والطبري ٣/٤٤٣.

(٢) المصدر السابق.

أهل دمشق. جاءت قنسرين وهي مكان بالقرب من حلب، كان يُجمع ويزمع أناس وألوان من العرب زحف الروم إلى المسلمين فيها، فلاقاهم خالد فهزمهم، وقتل قائدهم ميناس.

ثم فتحت «قيسارية» وهي بلدة قريبة من طبرية في فلسطين، فتحت على يد معاوية بن أبي سفيان، وفتحت أجنادين على يد عمرو بن العاص، وكان بها أرطبون الذي يعد داهية من دواهي الروم في الدهاء والخبث، ولما بلغ خبره عمر بن الخطاب قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب (يقصد عمرو بن العاص) فانظروا عما تنفرج.

فاقتتل جيش عمرو بن العاص مع جيش الروم في أجنادين قتالاً شديداً كقتال اليرموك، حتى كثر القتلى بينهم، ثم إن أرطبون انهزم من الناس فآوى إلى إيلياء ونزل عمرو أجنادين(١).

كانت «إيلياء» عاصمة الدين، ففيها البيت المقدس، وكان المتولي لأمر حربهم عمرو بن العاص لأنه ولي فلسطين وإيلياء عاصمتها الكبرى.

أصر عمرو على حصار القدس، وعزم على ألا يبرحها مهما كان الثمن حتى يفتحها. وكانت القدس منيعة بحصونها، مما جعل أرطبون الروم يطمئن ويشعر أنه من مكمن يمكنه من مقاومة عمرو والصمود في وجهه.

وأراد عمرو أن يعزل القدس تماماً حتى لا يصلها مدد، فأرسل عمرو قواته لتفتح كل المدن التي يحتمل أن يأتي منها المدد للقدس، فاستولى المسلمون على اللد، ونابلس، ويافا، وعمواس، وبيت جبرين وغزة ورفح، واتجهت فرقة إلى الشمال ففتحت سبسطية(٢).

وفكر عمرو في حصار القدس، وفيما هو كذلك جاءته رسالة من

---

(١) محاضرات في تاريخ الأمم للشيخ الخضري.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤٥٩/٢.

أرطبون الروم تقول: والله لا نفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع ولا تغتر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة[1].

ورغم ذلك طال حصار القدس، ويئس الروم وأيقنوا سقوطها فطلبوا الصلح، على أن يتولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه، فكتب إليه عمرو بن العاص: إني أعالج حرباً كؤوداً، وبلاداً أدخرت لك ترابك[2].

ويقول الطبري في رواية: إن أهل إيلياء كانوا أشجوْا عمراً وأشجاهم، ولم يقدر عليهم ولا على الرملة، لذلك أمده الخليفة بجند عظيم ليتقوى به ويقدر عليهم.

وعزم عمر على الخروج من المدينة بعد أن ضاق صبراً بطول الحصار وبكتب عمرو إليه من بأس عدوه[3]، فسار من المدينة حتى نزل الجابية، وكان قد كتب الأمراء الأجناد أن يوافوه بها ليوم سماه لهم، وأن يستخلفوا على أعمالهم، فلما عرفوا مقدمه صاروا إليه، يتقدمهم يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة، ثم خالد بن الوليد على الجند في عرض يأخذ بالنظر، ورآهم عمر مقبلين، عليهم الحرير والديباج، فغلى الدم في عروقه لمرآهم، فنزل عن فرسه وأخذ الحجارة، ورماهم بها وصاح مغضباً: سَرُعَ ما لُفِتُّم عن رأيكم!! إياي تستقبلون في هذا الزي! وإنما شبعتم منذ سنين،. وبالله!! لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم.

اعتذر أمراء الجند قائلين: يا أمير المؤمنين إنما فعلنا هذا وإن علينا السلاح.

فرأى عمر سلاحهم فخفَّف مرآه من ثورة غضبه فقال: «فنعم إذاً»، وركب حتى دخل الجابية وسار القوم في صحبته.

---

(١) تاريخ الطبري ٦٠٦/٣.

(٢) المصدر السابق ص ٩٠٧.

(٣) الفارق عمر لهيكل ص ٢٣٤.

وجاءت رسل صفرنيوس أسقف بيت المقدس، يطلبون الصلح، وصالحهم عمر على صلح دمشق، وكتب معهم كتاباً جاء فيه[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها، إنه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهْدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحدٌ منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم أن يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

وختم عمر الكتاب بتوقيعه، ثم أشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان.

رجع رسل صفرنيوس بالكتاب إلى بيت المقدس، فاغتبط به الأسقف واغتبط به أهل المدينة جميعاً، وترامت ووصلت أنباء الصلح لأهل اللد والرملة ففرحوا، وظفروا بكتاب مثله يعطيهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلبهم، وألا يكرهوا على دينهم، ولا يضار منهم أحداً، على أن يعطوا الجزية مثل ما يعطي أهل مدائن الشام.

---

(١) أورده الطبري.

ولما فرغ أمير المؤمنين عمر من ذلك كله أقام على فلسطين رجلين لكل منهما نصفها، علقمة بن حكيم على الرملة وما معها، وعلقمة بن مجزر على إيلياء وما معها.

ولما أتم عمر صلح فلسطين صرف أبا عبيدة وخالد ومن جاء معهما من شمال الشام كلاً إلى عمله.

ثم أراد عمر الذهاب إلى بيت المقدس مستصحباً عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، فوجد فرسه لا يزال مريضاً يتوجّى، فجيء ببرذون فركبه، فلما سار جعل البرذون يتخلع به وتصلصل جلاجله، فكره عمر ذلك منه، فنزل عنه وضرب وجهه بردائه وقال: قبح الله من علّم هذا الخيلاء، ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده.

وأقام أياماً تعافى فيها فرسه، فركبه ودخل بيت المقدس، وتلقاه البطريق صفرنيوس وكبراء المدينة، فتلطف بهم وأدناهم، وتحدث إليهم حديثاً أدخل محبته في قلوبهم، وأمسى الوقت وانصرف القوم على أن يلقوه صبح الغد، فلما خلا عمر بنفسه صلى شكراً لله على ما أنعم به عليه.

فلما أصبح عمر فجاء إليه صفرنيوس، فسار معه خلال المدينة ليريه آثارها ومواضع الحج منها، وكم في بيت المقدس من آثار، فهو بلد الرسل والأنبياء عليهم السلام، إليه سار كليم الله يوم خرج من مصر ومن معه من بني إسرائيل، وبه كانت قصة ما شبه لهم من صلب المسيح، وبه من آثار الأنبياء محراب داود وصخرة يعقوب، وهي الصخرة التي تذكر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ صعد منها إلى المعراج.

وبينما الرجلان عمر وصفرنيوس في كنيسة القيامة أدرك عمر موعد الصلاة، فطلب البطريق إليه أن يصلي بها، فهي من مساجد الله، فاعتذر عمر بأنه إن فعل ذلك يتبعه المسلمون على تعاقب القرون، إذ يرون عمله سنةً مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم، وخالفوا عهد الأمان.

واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، وكانوا قد مدوا عند بابها بساطاً يُصلي عليه، وإنما صلى في مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال الهيكل، وفي هذا المكان شيَّد

المسلمون من بعد مسجداً فخماً، هو المسجد الأقصى، وكان في عهد عمر صغير البناء، كمسجد النبي ﷺ بالمدينة يوم أقيم.

فتح مصر

رأى عمرو بن العاص غزو مصر وفتحها، واستمهله عمر بن الخطاب وهو في الشام حتى يكتب إليه بعد عوده إلى المدينة، فلما نزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المدينة جمع أولي الرأي وذكر لهم حجج عمر في غزو مصر، وشاورهم في الأمر فانقسم رأيهم، ولما كان رأي عمر بفتح مصر، فقد كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر، وبعث بالكتاب مع شريك بن عبدة، وفيه يقول:

«اندب الناس إلى السير معك إلى مصر، فمن خفَّ معك فسر به»[1].

سار عمرو مع جيشه إلى مصر بأمر الخليفة، وإن الخليفة أمده بعد مسيرته بالزبير بن العوام معه جيش يستعين به على فتح مصر. وقد ذكر البلاذري أن عدد جيش الزبير قد بلغ عشرة آلاف أو اثني عشر ألف جندي.

سار عمرو بجيشه الصغير الذي لا يتناسب مع حجم بلاد مصر التي عزم على فتحها، فقد كانت معقل الروم على البحر المتوسط، ومفتاح إفريقيا، وفيها ثغر الإسكندرية الذي يعتبر من أجمل وأعظم الثغور على البحر المتوسط في هذه الأيام، حيث كانت ميناؤها تتسع لاثني عشر ألف سفينة من مختلف الأحجام، وكان سكانها يبلغون مليوناً من البشر من مختلف الأجناس والأديان، بل يزيدون على ذلك[2].

وكانت مصر محصنة تحصيناً عظيماً، فقد حشد الروم فيها جيشاً

---

(١) ذهب بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص ذهب لفتح مصر دون أن يأمره الخليفة، وقيل: إن عمر رضي الله كان متردداً في فتح مصر، بوصية ورأي من عثمان. وقيل: إن عمر أرسل إليه كتاباً ثانياً قال فيه: إن وصلك كتابي هذا قبل دخول مصر فلا تدخلها، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره ـ فتوح مصر لابن عبدالحكم ص ٨١.

(٢) البلاذري ص ٢١٤.

جراراً، وتولى قيادته أرطبون قائد الروم، ورصدت الطريق كلها من فلسطين إلى مصر بالقوافل والقوات المجحفلة، وأقام الروم الحصون ليأوي إليها المحاربون ويتحصنوا بها، فكان هناك حصن الفرما وقواته الحصينة، فقد حاصره عمرو شهراً حتى استطاع فتحه.

ثم كان حصن بلبيس بقيادة نفس الأرطبون وظل عمرو شهراً حتى فتحه.

ثم حصن أم دنين الذي لم يكن سهلاً في فتحه أيضاً.

ثم كان حصن بابليون، وكلها حصون أعدها الرومان إعداداً عسكرياً جيِّداً لكي تعرقل مسير أي جيش غاز.

١ ـ معركة الفرما

كان جيش عمرو بن العاص في البداية صغيراً قوامه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، لا يكفي لفتح بلد محصن مثل مصر، ولكن عمرو بن العاص كان يثق في إمداد أمير المؤمنين له كثقته في نفسه وقدرته على تجاوز الصعاب حتى النصر.

سار عمرو بن العاص حتى بلغ رفح، وانحدر منها إلى العريش فدخلها دون مقاومة، وصادف ذلك عيد الأضحى، فضحى عن المسلمين بكبش[1].

ومضى في طريقه تاركاً العريش خلفه، مضى نحو الغرب، حتى بلغ «الفرما»، وفيها كان أول قتال فعلي بين المسلمين والروم في فتح مصر، وكانت معركة الفرما عنيفة إذ استمرت شهراً، فقد كانت الفرما حامية رومية تحارب المسلمين وتنتظر المدد يأتيها من قبل المقوقس، ولكن المقوقس لم يمدها بشيء.

ظن المقوقس أن معركة الفرما، وإن انتصر فيها المسلمون ستكون بداية لإنهاك قوتهم وإضعافهم عندما يتقدمون إلى حصن بلبيس وأم دنين،

---

(١) انظر: المواعظ والاعتبار (الخطط للمقريزي ٢٨٩/١).

لكن انتصار المسلمين في الفرما كان على عكس ذلك، فقد كان حافزاً للمسلمين على الثقة بنصر الله ومواصلة الزحف.

ومِنْ طول حصار المسلمين للفرما تملك اليأس قائد حامية الروم فيها، فخرج يائساً لقتال المسلمين، ودار قتال عنيف أجبر الروم على التقهقر والدخول في حصونهم، لكن المسلمين أسرعوا إلى أبواب الحصن فحالوا بينهم وبين دخوله، وقضوا على الحامية فلم ينج منهم إلا الشريد.

انتصر المسلمون ودخلوا الفرما، فهدموا حصونها وخرّبوا كنائسها والأديرة التي اتخذها الروم حصوناً حاربوا منها المسلمين، وأجبروهم على الوقوف أمامها قرابة الشهر أو يزيد، ووجد المسلمون مرفأً ترسوا فيه السفن، سفن الروم، فخشي عمرو بن العاص والمسلمين أن يستعملها عدوهم الرومي في غزو المدينة من جهة البحر، فأحرقوا هذه السفن، واتخذ المسلمون الفرما معقلاً لحماية الطريق إلى فلسطين والجزيرة العربية.

وانضم إلى عمرو عدد من رجال القبائل العربية من راشدة ولخم وكانوا يقيمون بجبل الحلال(١).

سار عمرو بن العاص في طريقه متجهاً صوب الغرب حتى وصل إلى القصاصين، ومن هناك اتجه جنوباً إلى التل الكبير، وأكمل الجنوب حتى وصل بلبيس.

٢ ـ معركة بلبيس

تصدى الروم للمسلمين عند بلبيس بقوة كبيرة أرادوا بها أن يصدوا جيش المسلمين ويمنعوه عن حصن بابليون، وأرادوا مقاتلة ومنازلة المسلمين، فقال لهم عمرو بن العاص رضي الله عنه: لا تعجلونا حتى نعذر إليكم، وليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام، وعندئذ كفّوا عن القتال، وخرج إليه الرجلان، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل عليه السلام.

---

(١) ابن الحاكم في فتح مصر ص ٨٥، والمقريزي في الخطط ٢٨٩/١.

فقالا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، أمنا حتى نرجع إليك.

فقال عمرو: مثلي لا يُخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثة لتنظرا.

فقالا: زدنا.

فزادهما يوماً، فرجعا إلى المقوقس، فأبى أرطبون أن يجيبهما، وأمر بمناهدتهم[(١)].

انتهز أرطبون الروم الهدنة التي أعطاها عمرو بن العاص للراهبين أبي مريم وأبي مريام، وعزم على خداع المسلمين، ولكن عمرو حذر من قبل بأن مثله لا يخدع، فعندما خرج أرطبون في جيش تعداده اثنا عشر ألف مقاتل، كان عمرو وجيشه على استعداد تام، فلم يكد يظهر الروم أمامه حتى نهض لقتالهم، ودارت معركة شرسة بين الفريقين، قتل فيها من المسلمين عدد لا يستهان به، وأما الروم فقد خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير، وكانت هزيمتهم منكرة، قتل فيها أرطبون الروم نفسه[(٢)].

وبعد هذا النصر المؤزر انطلق عمرو من بلبيس، وحاصر قرية أم دنين، ونشوة النصر ما زالت ترفع من معنويات جنوده، وقد طال حصاره لأم دنين، واشتد عليه الأمر لطول انتظاره المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأرسل إليه طالباً المدد سريعاً لمواجهة جيوش الروم المتحصنة في حصن أم دنين.

٣ ـ معركة أم دنين[(٣)]

كانت أم دنين حصينة يجاورها مرفأ على النيل فيه السفن الكثيرة، وكانت تقع إلى الشمال من بابليون ـ حصن مدينة مصر الأعظم ـ وأدرك

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥٦٤/٢.

(٢) المصدر السابق ٥٦٥/٢.

(٣) ذكر هيكل في الفاروق عمر أن مكان حصن أم دنين هو مكان في موضع حي الأزبكية من أحياء القاهرة اليوم، هيكل الفاروق ص٩٤.

عمرو أنه لن يستطيع أن يفتح حصن بابليون أو يحاصره بمن معه من الجند، ولن يستطيع أن يفتح مدينة مصر وهي في جوار هذا الحصن وفي حمايته، أما وحصن بابليون لا سبيل إليه، فليحاصر حصن أم دنين، وليبذل في سبيل فتحه كل ما يستطيع بذله، فإذا استولى عليه أصبحت السفن الراسية في مرفئه رهن أمره، وأصبح في مقدوره أن يدبِّر خطته وأن يحكم مداورته.

أذاع عمرو في جنوده أن المدد يوشك المجيء، ونشب القتال عنيفاً، كان الروم يخرجون من الحصن أحياناً فيقاتلون المسلمين ثم يعودون إلى الحصن كلما اشتدَّ عليهم الأمر.

وإنهم لكذلك إذ جاءتهم الأنباء بمقدم أول مدد لهم، وبأن هذا المدد يوشك أن يبلغهم، فقوي بأسهم واشتدت سطوتهم، وأقبل المدد، ورآه حماة الحصن من جنود هرقل، فسقط في أيديهم وقل خروجهم للقاء المسلمين، فلما رأى عمرو ذلك منهم، وكان قد عرف مداخل الحصن ومخارجه، وكانت الحامية التي وصلت مدداً مكونة من أربعة آلاف رجل كثر بهم عدد المسلمين، وعلموا أن أمير المؤمنين سيتابع لهم المدد حتى يتم لهم النصر، فقد بلغ عددهم بعد وصول المدد ثمانية آلاف رجل[1].

تخير عمرو بن العاص وقتاً أمر فيه أصحابه أن يشدوا كلهم على الحصن شدة رجل واحد ليأخذوه عنوة، وسار هو في طليعتهم إلى بابه، ففتحه الله عليهم، فاستولوا عليه بعد قتال مرير، قتلوا فيه عدداً كبيراً من الروم، وأسروا من بقي فيه حيًّا. وكان لإقبال المدد أثر كبير في الاستيلاء على حصن أم دنين بعد أن أبطأ عليهم فتحه.

٤ ـ معركة عين شمس

كنا نريد أن نذكر أحداث بابليون على الفور، لكن قبل ذلك يجب أن نتحدث عن مهارة عمرو بن العاص في إشاعة جو من الفزع والإحساس

---

(١) فتح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ٨٧/١.

بالغموض لدى عدوه، فقد عبر عمرو مع جنده النيل في السفن التي كان بمرفئها، وسار على رأسهم يتخطون الصحراء مجتازين أهرام الجيزة.

يقول المؤرخون: لا ندري ما هو مقصد عمرو من عبور النهر؟ وما عسى أن تكون وجهته، لقد فكر أن يسير إلى الفيوم يشيع الفزع في نفوس أهلها، ويقيم الدليل للمصريين على أن دولة الروم لا محالة زائلة، فها هو ينتشر في بلادهم ولا يرعى بالاً لوجود الروم، وليس في طريق الصحراء بين بابليونْ والفيوم عقبة أمام أبناء البادية من شبه جزيرة العرب، فإذا استطاع عمرو إشاعة الفزع في هذا الإقليم بلغ مقصده، وكسب من الوقت ما يكفي الخليفة لإرسال مدد جديد يستطيع به عمرو أن ينفذ خطته في الفتح، وأن يدخل به مصر في حكم المسلمين.

لكن عمراً لم يلبث حين بلغ تخوم الفيوم أن علم أن الروم أعدوا للدفاع عن الفيوم ووضعوا الجنود على مداخله، لذلك لزم الصحراء وجعل يغير بكتائب قليلة على البلاد القريبة منه، يسوق النعم طعاماً لجيشه.

وجاء البدو المقيمون بهذه المنطقة بأنباء عرف منها أن كتيبة من الروم بإمرة رجل اسمه «حنا» تسير مختفية في النخيل والآجام قبالته لتتنسط أخباره، فإذا حاول اقتحام البلاد الآهلة دعت الجيش المرابط في ثغور الفيوم لمواجهته، عند ذلك أغذ السير حتى بَعُدَ «بحنا» وكتيبته عن الجيش، ثم ارتد إليه وحاصره ومن معه وقتلهم عن آخرهم[1].

حزن قائد الروم بالفيوم، وأذاعت هذه الفعلة الرعب في قلوب أهل الإقليم جميعاً، واكتفى عمرو بذلك وانسحب عائداً إلى أم دنين مسرعاً قدر طاقته، لأن رسولاً جاءه من أمير المؤمنين أن أمير المؤمنين بعث إليه بمدد جديد، وأن هذا المدد سار من الفرما إلى بلبيس، وأنه يوشك أن يصل إلى حصون الروم.

---

(١) الفاروق عمر لهيكل ص ٩٧.

فأسرع عمرو للقاء المدد خشية أن يقطعه الروم عنه وأن يردوه عن عبور النهر إليه، وأبدى براعة فائقة، واستطاع أن يعبر الشاطىء الشرقي وجيشه معه، وأن يتصل بالمدد الذي نزل عين شمس على مقربة من الحصن.

كان المدد بمثابة إنقاذ للمسلمين، وعمرو بن العاص الذي كان شديد الفرح به، ولا سيما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اختار له خيرة جنده وخيرة قادة المسلمين، فقد أرسل إليه أربعة آلاف جندي، على كل ألف رجل منهم قائد يقوم مقام ألف رجل، وهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، .ومسلمة بن مخلد(١).

ويقول ابن عبد الحكم: وبهذا بلغ المدد اثني عشر ألفاً: أربعة آلاف، ثم أربعة آلاف، تمام الثمانية آلاف، ثم أربعة آلاف، فصاروا اثني عشر ألفاً(٢).

ولهذا كتب عمر رضي الله عنه إلى عمرو يقول له: اعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة(٣).

خرج تيودور قائد الروم بجيشه، فسر عمر رضي الله عنه ورسم خطة محكمة، فقد بعث خمسمائة فارس، بقيادة خارجة بن حذافة، فساروا ليلاً من وراء الجبل حتى دخلوا مغارة بني وائل قبل الصباح، وهو مكان قريب من القلعة الحالية، وبعث كتيبة أخرى إلى أم دنين، وأمر عمرو الكتيبتين أن تختفيا، حتى إذا حانت لهم الفرصة كروا على العدو من جانبه ومؤخرته، وخرج عمرو في أكثر جند المسلمين للقاء العدو(٤).

وخرج الروم بقيادة تيودور من الشمال الشرقي للحصن، وشقوا الأديرة

---

(١) انظر: الخطط للمقريزي ٢٨٩/١ وكانت روايات قد ذكرت أن الزبير كان على رأس اثني عشر ألفاً وهو ما ذكرناه في رواية سابقة، وسنرى قول ابن الحكم.

(٢) فتوح مصر لابن عبدالحكم ٨١/١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) د. محمد السيد الوكيل ـ جولة تاريخية ص٢٢٠.

والبساتين، والتقوا مع عمرو في وسط الطريق بالقرب من العباسية الآن، واشتد القتال ودارت معركة رهيبة مفزعة في أول النهار، فبينما عمرو يقاتلهم من الأمام، حملت عليهم الخيل من الخلف فأما الكتيبة التي كانت في مغارة بني وائل فاجتاحت مؤخرة جيش تيودور، ففر الروم منهزمين إلى أم دنين فاستقبلتهم الكتيبة الكامنة هناك، وعندئذ فر الروم مولين الأدبار، ولحقتهم سيوف المسلمين، فلم ينج منهم سوى ثلاثمائة، ركبوا السفن وعادوا إلى حصن بابليون[1].

٥ ـ معركة حصن بابليون

عزم عمرو على محاصرة حصن بابليون، وعزم اللاجئون إليه على الدفاع عنه حتى الموت.

وتوجه عمرو بجيشه المظفر نحو الحصن، فحاصره، وكانت حاميته ومن انضم إليها من الفارين من معركة عين شمس قد أصابهم الذعر، وانفرط عقد نظامهم، ولم يعد لهم أي أمل في مقاومة لا يجنون من ورائها إلا الهزيمة النكراء، والموت المحقق.

واستمر حصار المسلمين للحصن دون أن يملُّوا أو يولوا، وعلم الروم أن الحصن مفتوح لا محالة مهما طالت مقاومتهم، وبخاصة وقد رأوا ماء النيل يأخذ في الهبوط.

كان المقوقس بالحصن منذ ابتداء الحصار، وكان على إمرة جنود الحصن قائد رومي يسمى «الأعيرج»، وكان جند الحصن كلهم من الروم إلا قليلاً من القبط، لعلهم كانوا في خدمتهم، وكان الروم بالحصن يرمون العرب بالمنجنيق، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهام.

ودام الحصار على ذلك شهراً، والمسلمون لا توهن لهم عزيمة ولا ينفذ لهم صبر، ورأى المقوقس وأصحابه أن النيل قد بدأ فيضانه ينزل،

---

(١) انظر: فتوح مصر لابن عبد الحكم ٨٧/١ وما بعدها.

فاجتمعوا في سرٍّ ممن معهم، وتشاوروا في الأمر، وبسط لهم المقوقس رأيه، وكان يرى أن المدد لن يأتي ليرفع عنهم الحصار قبل أشهر، وأن العرب سيضيقون عليهم الخناق في هذه الأثناء ويرهقونهم، ورأوا من الخير أن يفتدوا أنفسهم بالمال ليرحل هؤلاء العرب ولتعود مصر إلى ملك الروم؟

وما زال المقوقس يسوق الحجج حتى انضم الحاضرون جميعاً إلى رأيه. لكنهم رأوا أن من الخير أن تجري المفاوضة مع العرب سرًّا حتى لا يقف أحدٌ من المدافعين عن الحصن على شيء من أمرها، وأن يتولاها المقوقس بنفسه، وركب المقوقس ظلام الليل خارجاً من الباب الخلفي للحصن، وأقلعت السفن به وبمن معه حتى وصل إلى جزيرة الروضة[1].

ولما استقر المقوقس «فيرس» في الروضة، أرسل إلى عمرو بن العاص رسالة جاء فيها: إنّكم قوم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلكم الروم، وجهزوا إليكم ومعهم من العدَّة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إذا كان الأمر مخالفاً لطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجلاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به على شيء[2].

ولما وصلت رسل المقوقس إلى عمرو حبسهم يومين عنده، ثم ردَّ على المقوقس بقوله: «إنه ليس بيني وبينكم إلاّ إحدى ثلاث خصال: إما إن دخلتم الإسلام فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وإما إن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم، وهو خير الحاكمين»[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المقريزي ٢٩٠/١.

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٩٧/١.

دهش المقوقس لما سمع، فليس هذا جواب من يريد المفاوضة، بل هو جواب المنتصر يريد أن يفرض حكمه، وسأل رسله كيف رأوهم، فأجابه رئيسهم: رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما كان جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كأنه واحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم»[1].

أطرق المقوقس حين سمع هذا الوصف، ثم رفع رأسه وقال لأصحابه: والذي يُحلفُ به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، ولا يقدر على قتال هؤلاء أحد!! ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم[2].

ثم لم يطل تفكيره بعد ذلك، بل أرسل إلى عمرو رسله يقول له: ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم على ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم[3].

ولم يرفض عمرو ما طلب إليه، بل اختار عشرة رجال من خيرة رجاله، وأمّر عليهم عبادة بن الصامت، وكان عبادة أسود اللون طويل القامة، وأمره ألا يقبل من المقوقس إلا إحدى الخصال الثلاث.

ركب وفد المسلمين السفن، وتوجهوا نحو المقوقس في جزيرة الروضة، فلما دخلوا عليه، تقدمهم عبادة بن الصامت، فهابه المقوقس لسواده، وقال: نحوا عني هذا الأسود، وقدِّموا غيْره يكلمني.

فردوا عليه: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا

(١) الخطط للمقريزي ١/٢٩٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ص ٢٩١.

والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا لما أمره به، وأمرنا ألاّ نخالف رأيه وقوله.

قال المقوقس: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم.

قالوا: كلا، إنّه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة ورأياً وعقلاً، وليس ينكر السواد فينا.

قال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود، وكلمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لذلك هيبة.

وعلم عبادة أن الله ألقى في نفس المقوقس الرعب، فقال له: «قد سمعت مقالتك، وليس فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود، كلهم أشد سواداً مني وأفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي»[(١)].

بهذا الحديث أراد عبادة أن يبث الرعب فيه وفي حاشيته من المسلمين جميعاً، فأخذ يصف له شجاعة أصحابه وشدّة بأسهم، وزهدهم في الدنيا.

أظهر المقوقس لعبادة وداً وشفقة على المسلمين وخوفاً عليهم من جنود الروم، ثم قال له: لقد توجه إلينا لقتالكم من جميع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم لضعفكم وقلّتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا شهراً وأنتم في ضيق وشدّة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم، وتطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به[(٢)].

---

(١) ابن الحكم ٩٨/١.

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٠.

خلط المقوقس بين الإغراء والتهديد، والوعد والوعيد في حديث ماكر خبيث، فهو يعرض على عبادة ثلاثون ألف دينار ثمناً لترك مصر كلها، وترك القتال، فإن رفضها كان مهدداً بمدد الروم الذي يتكلم المقوقس عنه.

لكن عبادة تذكر أمر عمرو بن العاص، وكان عبادة من رجال الإسلام الشجعان الذين لا يهابون أحداً، ولا يهابون الموت، لذلك أجاب المقوقس قائلاً: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ورد عبادة كلام المقوقس ونقضه من إحساسه، وأخبره بأن أعز أماني المسلمين أن يموتوا في سبيل الله.

وقال له: وأما قولك: إننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت»[١]. وأفهمه عبادة أن الثلاث هي: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب.

حاول المقوقس أن يحظى من عبادة بخصلة أخرى لعلها تكون أرفق به وبقومه، ولكنه لم يجد لديه إلا الإصرار والثبات على الخصال المذكورة.

وعرض المقوقس الرأي على أهل مشورته، فرفضوا العروض الثلاثة، وفضلوا الموت على قبول خصلة من الخصال، ولكنهم تركوا باب المفاوضة مفتوحاً حين قالوا: «لو رضوا منَّا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا»[٢].

عاد المقوقس ينصح أصحابه بمصالحة المسلمين، فسألوه: أي خصلة نجيبهم إليها؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن عبد الحكم ١٠١/١.

قال: إذاً أخبركم، أمّا دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالكم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة، وهي الجزية.

فقالوا: ونكون لهم عبيداً أبدا؟

قال: نعم، تكونوا عبيداً مسلطين في بلادكم، آمنين على أموالكم وأنفسكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيداً تباعون وتمزقون في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهليكم وذراريكم.

قالوا: فالموت أهون علينا، وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة(١).

وعاد عبادة بن الصامت رضي الله عنه ومن معه من وفد المسلمين، وأخبروا عمرواً بما كان بين الفريقين من الحوار، ورفضهم للخصال الثلاث، واستعدادهم للحرب.

بدء القتال

استعد عمرو بن العاص لمعركة صعبة، فالروم قد يئسوا من المفاوضة ويريدون القتال، وندب عمرو أصحابه للقتال ومحاصرة الحصن بمن فيه، واشتد إلحاحهم على الروم بالقتال، وعندئذ قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً، وصعد الزبير إلى أعلى السور، وكبَّر تكبيرة اهتز لها الحصن، وجاوبه المسلمون بالتكبير وتسابقوا إلى السلم محاولين الصعود حتى نهاهم عمرو مخافة أن ينكسر السلم(٢).

واهتز الحصن كله لصوت التكبير، وتردد صدى التكبير في نفوس

---

(١) المقريزي في الخطط ٢٩٢/١.

(٢) ابن عبد الحكم ٩٤/١.

المحاصرين داخله فأرعبهم، فانهارت معنوياتهم، وخارت قواهم، وأيقنوا أنّ المسلمين قد اقتحموا عليهم الحصن ففروا هاربين، وعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، ودخل المسلمون الحصن، فظفروا بمن فيه، ومكّن الله المسلمين فقتلوا من حامية الحصن خلقاً كثيراً، وأسروا منهم عدداً كبيراً.

ولما رأى المقوقس ما حلّ بقومه من الخزي والهزيمة أخذته الشفقة بهم، وقال لهم: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟ ما تنتظرون؟ فوالله لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعاً، أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرهاً، فأطيعوني من قبل أن تندموا؟[1].

وتصالح عمرو والمقوقس على أن يفرض على جميع من بمصر، أعلاها وأسفلها، من القبط دينارين على كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ممن بلغ منهم الحلم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء، وعلى أن للمسلمين منهم النُزل بجماعتهم حين نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبَرّهم وبحرهم، وألا يغزو ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة[2].

ثم عقد هذا الصلح بين المقوقس وعمرو بن العاص، لكن تنفيذه يتوقف على موافقة هرقل، وتعهد المقوقس أن يبعث به إلى هرقل، واتفق الفريقان على أن تبقى جيوشهما كما هي حتى يجيء رد هرقل. وأن يبقى الحصن مع الروم إلى ذلك الحين، وركب المقوقس النهر إلى الإسكندرية، ومنها بعث بتفصيل ما حدث إلى القسطنطينية مصحوبة بمذكرة إضافية طلب في ختامها إلى هرقل إقرار الصلح حتى يكفي مصر شر الحرب وويلاتها.

---

(١) ابن عبد الحكم ١٠٣/١.

(٢) الفاروق عمر لهيكل ص ١٠٨.

هرقل يستهجن الصلح

رد هرقل على المقوقس ردًّا فيه كِبْرٌ وعنجهية فكتب إليه يحقر فعله، ويرد رأيه فيما اصطلح عليه مع المسلمين، فقال له: «إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى، فإن كان القبط قد كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب، واختاروهم علينا فإن عندك من الروم بمصر وبالإسكندرية، ومن معك أكثر من مائة ألف، معهم العدّة والقوة، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم، فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلَّتهم وضعفهم كأكلة، فناهضهم القتال، ولا يكون لك رأي غير ذلك»[1].

وأرسل هرقل كتاباً إلى الروم المقيمين في مصر يستنفرهم ليقفوا في وجه الغزاة الفاتحين[2].

أما المقوقس فلم يلق بالاً بما قاله هرقل، لأنه يعرف أن المصريين سيؤيدوا الصلح، لأنهم لم يروا من الروم ما يشجعهم على قتال المسلمين، وهم أيضاً في حاجة إلى من يخلصهم من ظلم الروم.

فلما بلغه كتاب هرقل قال: الله أعلم أنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منّا على قوتنا وكثرتنا، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منّا، وذلك أنهم قوم: الموت أحب إلى أحدهم من الحياة»[3].

وخطا المقوقس خطوة أكثر واقعية له وللروم، فقد اجتمع مع الروم الموجودين في مصر، وقد بلغه وصول كتاب «هرقل» إليهم فقال لهم: اعلموا معشر الروم، والله إني لا أخرج مما دخلت فيه ولا مما صالحت العرب عليه، وإني لأعلم أنكم سترجعون غداً إلى رأيي وقولي، وتتمنون أن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المقريزي ٢٩٣/١.

(٣) المصدر السابق.

لو كنتم أطعتموني، وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه، ويحكم!! . . أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في داره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة»[١].

وأقبل المقوقس على عمرو بن العاص وقال له: إن الملك قد كره ما فعلت وعجزني، وكتب إليَّ وإلى جماعة الروم ألاّ نرضى بمصالحتك، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه، وعاقدتك عليه، وإنّما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تمَّ صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبلهم نقض، وأنا متمم لك على نفسي، والقبط متمّون لك الصلح الذي صالحتهم عليه»[٢].

وقال: وأما الروم فأنا منهم بريء، وأنا أطلب منك أن تعطيني ثلاث خصال.

قال له عمرو: ما هن؟

قال: الأولى: لا تنقض بالقبط، وأدخلني معهم، وألزمني ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه، فهم متمون لك ما تحب.

والثانية: إن سألك الروم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً، فإنهم أهل لذلك، لأني نصحتهم فاستغشوني، ونظرت لهم فاتهموني.

الثالثة: أطلب منك إن أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يحنس بالإسكندرية.

فأجابه عمرو إلى ما طلب[٣].

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحاكم ١١٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

وتم لعمرو بن العاص والمسلمين فتح مصر، ودخل الإسلام الكنانة، وافتتحت في ربيع الأول سنة ست عشرة[1].

أما مؤرخون آخرون فقد قالوا أن مصر فتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين، وهذا ما أورده المقريزي في خططه.

والمرجح عند المؤرخين أنها فتحت قبل عام الرمادة، أي سنة ست عشرة، والقول لابن الأثير[2] في تعليل ذلك، لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم[3] من مصر إلى المدينة ـ يعني في عام الرمادة ـ وقال المقريزي: إن الرمادة كانت في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثماني عشرة.

وقسم عمرو سهام جنوده، فبلغ عددهم اثني عشر ألفاً وثلاثمائة. وبذلك يكون جملة من استشهد ألفان ومائتي رجل، حيث بلغ عدد الجيش عند حصار الحصن خمس عشرة ألفاً وخمسمائة.

وظل الحصن محاصراً من المسلمين سبعة أشهر حتى تم فتحه، ومن مات من المسلمين أو قتل أثناء الحصار دفن في أصل الحصن، وترك الروم حصن بابليون في اليوم السادس من شهر إبريل سنة ٦٤١ ميلادية، وكانوا في شدة الغيظ والحنق بسبب هزيمتهم على يد المسلمين.

ودانت مصر للإسلام وبالإسلام، وبقيت مدينة الثغر الإسكندرية.

فتح الاسكندرية

قرر عمرو بن العاص أن يزحف إلى الإسكندرية، بعد أن استتب الأمن في ربوع البلاد التي فتحها، وأرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يبشره بفتح بابليون، ويستأذنه في الزحف على الإسكندرية[4].

---

(١) اتفق الطبري جـ ١١١/٤، وابن كثير في البداية والنهاية ٩٩/٧ على هذا التاريخ.

(٢) في تاريخه الكامل.

(٣) المقريزي جـ ١.

(٤) انظر: البلاذري فتوح البلدان ص ٢٢١.

وانتظر عمرو جواب الخليفة، وفي هذه الفترة أراد أن يري قبط مصر ما يرهبهم من المسلمين، فأمر بذبح الذبائح وطبخت بالماء والملح، ودعا أمراء الجند فحضروا ومعهم الجنود، وأذن لأهل مصر بالدخول وقدم الطعام للمسلمين، فأكلوا بطريقتهم العربية، والتي ينهشون فيها اللحم نهشاً، ويحتسون المرق وهم متدثرون بالعباء، وليس عليهم سلاح ليرى ذلك أهل مصر، فلما رأوا ذلك ازدادوا طمعاً وجرأة بالمسلمين.

لكن عمرو بن العاص أمر جنوده وأمراؤهم أن يحضروا بثياب أهل مصر وهيئتهم، فحضروا في هيئة المصريين، وأذن لأهل مصر بالدخول، فلما دخلوا رأوا شيئاً غير الذي رأوه بالأمس، لقد رأوا بالأمس المسلمين وهم بدو متلفحون بالعباء، ينهشون اللحم بأفواههم، واليوم رأوا قوماً كأنهم عاشوا في مصر دهراً، يعرفون طعامها وموائدها، ولذلك خرج المصريون من مجلس عمرو بن العاص وقد تملكتهم الدهشة والريبة.

وعرج عمرو بن العاص على أمر آخر، فقد أراد أن يريهم قوته الحربية، فبعث إلى الأمراء أن يلبسوا السلاح وأن يستعدوا للعرض العسكري، فلبسوا وتأهبوا، وأذن للمصريين بحضور هذا العرض العسكري، فحضروا وأمر جنوده بالاستعراض، فسار الأمراء على رؤوس الجند وهم جميعاً بالسلاح والعتاد[1] مما جعل المصريون يشعرون بالابنهار، وخاصة حينما رأوا بالأمس قوماً عليهم بداوة وسذاجة، وبالأمس أيضاً رأوهم مصريين أكثر من أهل مصر في زيهم وسلوكهم.

وأراد عمرو أن يرى آثار حملته الإعلامية التي جمعت بين الترغيب والترهيب، الترغيب في بساطة العرب، وإنهم برغم ما يملكون من قوة وعتاد فإنهم بسطاء لا تعنيهم شؤون الدنيا كثيراً.

ولما رأى منهم عجباً قال لهم: إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم شيء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا، فأحببت أن أريكم حالهم، وكيف كانت أرضهم، ثم حالهم في أرضكم، ثم

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١١٠.

حالهم في الحرب، فظفروا بكم وذلك عيشهم، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني، فأحببت أن تعلموا أنَّ من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني، وراجع إلى عيش اليوم الأول.

عندئذ نظر إليه المصريون وقالوا في عجب ودهشة: لقد رمتكم العرب برجلهم[١].

كل هذا بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقال لجلسائه: والله إن حربة للينة ما لها سطوة ولا ثورة كثورات الحروب من غيره، إن عمراً لعض[٢].

لم ينتظر عمرو بن العاص كثيراً بل جاءه ردَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يأمره بالزحف على الإسكندرية، فاستعدَّ عمرو واستخلف على مصر خارجة بن حذافة بن غانم[٣].

ولما تحرك عمرو علم الروم الذين يعيشون ما بين مصر والإسكندرية بتهيؤ عمرو للزحف إلى الإسكندرية، فاجتمعوا فيما بينهم، واستعدوا لملاقاة عمرو وجيشه، وجاءهم مدد من بلاد الروم على مراكب تحمل الجند والسلاح.

وخرج عمرو بن العاص من مصر قاصداً الإسكندرية، مستعيناً بالله أولاً، ثم استخدم جماعة من القبط في إصلاح الطرق والجسور وتسهيل مهمة سير الجيش في طريقه آمناً.

واختار الضفة الغربية للنيل، لسهولتها عن الشرقية التي تكثر فيها الترع والمصارف، وهي منطقة الدلتا.

وكان عمرو قد درس طريقه إلى الإسكندرية، وعرف أن للروم حصوناً منتشرة على جنبات الطريق، في مناطق نقيون وسلطيس، وفي كريون.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدرالسابق، وعض بمعنى داهية.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢١.

ـ معركة نقيوس:

ويذكر ابن عبد الحكم[1] أن حصن نقيوس يعد من أمنع حصونهم وأشدها رجالاً، ولذلك فقد اتجهت نية عمرو بن العاص إلى الاستيلاء على حصن نقيوس لكي يرهب الروم ويغلب جموعهم، وكانت نقيوس على الضفة الشرقية لفرع رشيد، بالقرب من مدينة منوف.

علم قائد الروم أنَّ القائد الإسلامي عمرو بن العاص يقصد نقيوس، فعزم على ملاقاته وجيشه قبل أن يصبروا إلى نقيوس، فكمن جند الروم للمسلمين عند طرنوب، وهناك دارت معركة، قاتل فيها الروم بشدة، لكن المسلمين سرعان ما هزموهم فولوا مدبرين[2].

تابع عمرو مسيرته حتى كان قبالة نقيوس وحصنها المنيع، وكان أكبر ظنّه أن يعتصم أهل الحصن به، وأن يجعلوا النهر بينهم وبين الغزاة، لذلك اتجه عمرو بن العاص إلى تدبير وسيلة كي يعبر بها إليهم، وشاور رؤساء القبط الذين ساروا معه في هذا الأمر، ولم يفكر عمرو بن العاص أن يترك حصن نقيوس وراءه، متخطياً إياه قاصداً الإسكندرية وهي هدفه الأول، فقد خشي أن يخرج المسلحون من الحصن وأن يهاجموا مؤخرة جيشه، فتكون المصيبة وتفسد خطته، ولم يكن عبور النهر في هذه الأيام بالأمر العسير، فقد انخفض ماء النيل وركد تياره، فأصبح اجتيازه عن طريق السفن أو من فوق الجسور أمراً في متناول جيش المسلمين.

لكن الروم ظنّوا أنهم لو تركوه يمضي في طريقه بعد الذي حدث منه في طرنوب وانهزام جندهم أمامه، فإنه سيمضي إلى عاصمتهم الإسكندرية، وهي آخر معاقلهم في مصر، ولذلك فكروا في الخروج إليه، وكانت مفاجأة لعمرو وجنوده الأبطال، فقد خرجت جموع الروم في السفن، فكانت فرصة رائعة لعمرو، فأمر جنوده أن ينضحوهم بالنبل حتى ألجؤوهم إلى ركوب السفن بعد أن تركوها ليواجهوا المسلمين، وظل المسلمون يرمونهم حتى

---

(١) فتوح مصر والمغرب ١٠٩/١.

(٢) المصدر السابق.

اضطربت صفوفهم، ووهنت عزائمهم، وظنوا أن المسلمين سيقتحمون عليهم، فسلموا أنفسهم، وفر قائدهم بسفينته إلى الإسكندرية، فهي مأمنه الآن، ولعله يجد فيها من قوات الروم ما يمنعه من عدوه، واستولى المسلمون على نقيوس.

أقام عمرو بنقيوس، يطهر ما حولها من البلاد والقرى من الروم وجنودهم، وبعث شريك بن سُمَيّ على كتيبة ليتعقب الروم الذين فروا من نقيوس يريدون الإسكندرية، ولحق شريك بالروم الفارين، فاشتبك الروم معه في قتال، حتى ألجؤوه إلى مكان مرتفع من الأرض، وحاربهم من فوقه، لكنه أحسَّ أنه محاصر، فقد أحاطت به الروم من كل جانب، فلما رأى شريك هذا الحصار أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفي ـ وكان له فرسٌ يقال له: أشقر صدف، وكان هذا الفرس لا يشق في الجري غُبَاره، وكان لا يجارى في سرعته ـ أمره أن يقتحم صفوف الروم وأن يذهب إلى عمرو فيخبره بموقف المسلمين، وحصار العدو لهم.

فانحط أبا ناعمة من فوق هذه الربوة على الروم فاقتحم صفوفهم، وطار عدواً إلى عمرو بنقيوس ولم يدركه أحد.

وأمد عمرو شريكاً عندما بلغه حرج الموقف، وعرف الروم أن عمراً أرسل مدداً فلاذوا بالفرار من قبل أن يلقوه.

من ذلك اليوم أطلق على هذا المرتفع الذي وقع حَولَهُ القتال اسم القائد العربي الذي اعتصم به، فهو يعرف الآن باسم: كوم شريك.

وأدرك شريك والذين معه جيش المسلمين، وسار عمرو من قوته تاركاً فرع رشيد عن يمينه، متابعاً الفرع المؤدي إلى الإسكندرية، وعلم أن الروم أعدوا للقائه عند سُلْطَيْس على ستة أميال إلى الجنوب من دمنهور، فقصد إليهم واشتبك معهم، ودار بين الفريقين قتال شديد، انتهى بهزيمة الروم، وما كان لهم ألا ينهزموا وليس لهم حصون يمتنعون بها[1]؟؟!!

---

(١) الفاروق عمر لهيكل.

ولقد فروا بعد هزيمتهم فلم يقفوا بدمنهور، بل لم يقفوا دون حصون كريون آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية، وهناك انضموا إلى سائر جيش الروم، وتأهب الجميع للقتال يقودهم تيودور[١].

ـ معركة كريون:

قال ابن حوقل: إن كريون مدينة عظيمة وجميلة تقع على ضفتي ترعة الإسكندرية، وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط صيفاً إذا ارتفع ماء النيل.

وكانت هذه المدينة العظيمة مدينة كريون آخر حصن للروم من سلسلة الحصون التي كانت على طول الطريق بين بابليون والإسكندرية، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح، وخطر كبير في الحرب، حيث كانت تشرف على الترعة التي تعتمد عليها الإسكندرية في جلب الطعام واستعمال مائها للشرب، ولكن حصونها لم تكن في منعة حصن بابليون أو نقيوس، وكان لكريون حاكم، تحت إمرته قوة عسكرية من الفرسان والمشاة[٢].

وقدَّر تيودور قائد الروم الأكبر في مصر أنهم إن ينهزموا بكريون تنكشف العاصمة أمام العرب، فيغريهم ذلك بحصارها والتضييق عليها، ولئكن كانت حاميتها قوية والدفاع عنها يسيراً، فإن الخير كل الخير في الحيلولة بين الغزاة وبلوغ أسوارها ما كان إلى هذه الحيلولة سبيل، لذلك خرج بنفسه إلى كريون في جند عظيم اطمأن به إلى قدرته على الوقوف عندها وصد الغزاة دونها، وزاد في اطمئنانه أن الروم كانوا قد رمموا حصون كريون وزادوها قوة، وأن ترعة الثعبان أمامها كانت تحمي المدافعين عنها، وأن الطريق بينها وبين الإسكندرية كانت معبراً يحمل المدد الكثير إذا أحوج الأمر إلى مدد.

وما إن عرف الروم في المواقع المحيطة بكريون أن الموقعة حاسمة،

(١) المصدر السابق ص ١٢١.

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم.

وأن لها لذلك ما بعدها، أقبلوا من كل حدب ينسلون يعززون تيودور وجنوده، أقبلوا من خيس ومن سخا من بلهيب[1] ومن غيرها من البلاد، وانضموا إلى صفوف الإمبراطورية، يؤيدونها ويزيدونها قوة وبأساً[2].

التقى المسلمون والروم في كريون، واشتد القتال بين الفريقين شدة لم تعرف من قبل، واستمر القتال إلى الليل، ولم يحقق أحد من الفريقين النصر، بل لعل الروم كانوا أرجح في ذلك اليوم كفة لكثرة عددهم، ولاستماتهم في الدفاع عن مواقعهم، ولأن حصون كريون كانت تحمي ظهورهم وتشد أزرهم.

ومع طلوع شمس اليوم التالي بدأت المعارك أشد منها بالأمس، وزاد من ضراوة المعركة شعور الروم بانهيار دولتهم إذا هم انهزموا وخلص المسلمون إلى الإسكندرية، ولم تنته المعركة حتى جن الليل، ثم انفصل الفريقان في آخر اليوم كما انفصلا في اليوم الأول.

ويقول ابن عبد الحكم[3]: إن القتال ظل دائراً على هذا النحو بضعة عشر يوماً، كانت المعارك تتراوح فيها بين الفريقين دون أن يحقق أحدهما نصراً ينهي به القتال، ترجح كفة المسلمين تارة، وترجح كفة الروم تارات، وأظهر الروم براعة وشدة بأس وصلابة عود، ما أدخل الروع في قلوب المسلمين، حتى صلى عمرو والمسلمون صلاة الخوف[4].

على أن بأس الروم لم يذهب عزم المسلمين ولم يضعف روحهم، بل زادهم حماسة وإقبالاً على الموت.

وكان وردان مولى عمرو بن العاص يحمل اللواء في مقدمة المسلمين، وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يقاتل إلى جانبه، وأصابت عبدالله في أحد

---

(١) خيس، وسخا، وبلهيب قرى في دلتا مصر.
(٢) انظر: الفاروق لهيكل ١٢١/٢ ط ٩.
(٣) فتوح مصر المغرب ١٠٩/١.
(٤) المصدر السابق.

أيام المعركة جراحات بالغة أجهدته، فالتفت إلى جاره وقال له: «يا وردان، لو تأخرت قليلاً نصيب الرَّوح!» يريد فترة يتنفس فيها وينفس بها عن نفسه.

فأجابه وردان، وهو يندفع أمامه واللواء في يده والحماسة آخذة منه: «الرَّوح تريد، الرَّوح أمامك وليس خلفك.

عندئذ اندفع عبدالله يقاتل متقدماً غير عابىء بجراحه، ولما عرف عمرو بن العاص ما أصاب ابنه عبدالله، بعث إليه رسولاً يسأل عن حاله، فكان جواب عبدالله أن تمثل بقول الشاعر ابن الأطنابة:

أقول لها إذا جَشَأَت وجاشت مكانك تُحمدي أو تستريحي

فرجع الرسول إلى عمرو يحمل له إجابة ابنه، فسر عمرو وقال: هو ابني حقاً[1].

وشد المسلمون على الروم شدة أزالتهم عن مواقعهم، وحطمت معنوياتهم، فقضوا عليهم، فمنهم من قتل، ومنهم من ولى الأدبار هارباً، وقال البلاذري: «وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة»[2].

وفتح المسلمون مدينة كريون وحصنها، وهزموا الروم عنها، واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية، وقد فروا إلى الإسكندرية هرباً من الموت يلتمسون الحياة والنجاة خلف حصونها التي لا ترام، فقد كانت حصناً وراء حصن.

ـ حصار الإسكندرية:

كما ذكرنا فقد فرّ المنهزمون من الروم إلى الإسكندرية وهي المعقل الأخير في مصر لدولة الروم، وكانت الإسكندرية محصنة بحصون منيعة، وكانت مدينة جميلة رائعة، فيها قصور ومسلات وكنائس ومعابد وعمائر وقلاع ومنارات وتماثيل، مما زادها سحراً وجمالاً.

---

(١) المقريزي في الخطط ١/١٦٣، ١٦٤.

(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٢.

استغل عمرو بن العاص معنويات جنوده المرتفعة وانبهارهم بجمال الإسكندرية، وأمرهم بالهجوم على المدينة واقتحام أسوارها الحصينة، ولكن الروم كانوا قد نصبوا المجانيق فوق الأسوار، ولم يكد المسلمون يقتربون منها حتى سقط عليهم وابل من الحجارة الضخمة التي ألقتها المجانيق على صفوف المهاجمين، فأمر عمرو على الفور جنوده بالتراجع بعيداً عن مرمى المجانيق.

وتراجع المسلمون إلى جهة الشرق وهناك ضربوا معسكرهم ما بين حلوة إلى قصر فارس[١].

وكان هذا القصر قلعة بناها الفرس عندما حاصروا الإسكندرية، وأخذ رؤساء القبط الذين صحبوا المسلمين يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والعلوفة[٢].

وأقام عمرو في هذا المكان شهرين[٣] راجياً أن يخرج له الروم في معركة مكشوفة، حتى يستطيع منازلتهم والإيقاع بهم، ولكن أحداً لم يخرج إليهم، بل لم يجرؤ جند الروم على مغادرة حصونهم.

ثم انتقل المسلمون إلى مكان آخر يسمى المقس، وأراد عمرو بذلك تنشيط جنوده، ونشر الرعب في القرى الواقعة بين قصر فارس والمقس، حتى لا يتمردوا على الجيش الفاتح فيساعدوا الروم.

وترك عمرو بن العاص حامية ليظل الحصار قائماً وحتى لا يظن الروم أن المسلمين عجزوا عن فتح الإسكندرية، ورُدوا عنها خائبين، ثم توجه ببقية الجيش نحو الشمال يريد المقس، وبينما هو يسير خرجت عليه من ناحية البحيرة كتيبة من الخيالة، واتخذت الحصن لها ستاراً، فأوقعت بالمسلمين على غرة فقتلت منهم اثني عشر رجلاً عند كنيسة الذهب[٤].

---

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ١/١١٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ١/١١١.

(٤) المصدر السابق ١/١١١.

لذلك احتاط عمرو، ومشى بالجيش حتى نزل المقس، ومن هناك قسم الجيش إلى كتائب، وجعل على كل كتيبة رجلاً من رجاله الشجعان، وبعث بهم إلى جهات مختلفة في مصر ليقتحموها وتصير الأرض كلها أرض خراج.

فوجه عبدالله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط.

ووجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك.

ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ففعل مثل ذلك.

ووجه عقبة بن عامر الجهني، ويقال: وردان مولاه إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك.

وبذلك يكون قد استجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج[(١)]. ودانت أرض مصر كلها للفاتحين، وخضعت لسلطانهم، واستتب الأمر في الوجهين البحري والقبلي (مصر العليا) و (مصر السفلى) وفي مصر الوسطى (الفسطاط).

وعاد عمرو إلى الإسكندرية ليتم فتحها، واستعد الروم لذلك استعداداً كبيراً، فزوّدوا المدينة بكل ما تحتاج إليه لمواجهة المسلمين، فكانت المراكب تفد إلى الإسكندرية من قبل ملك الروم الذي يسيطر على البحر المتوسط (بحر الروم)، حتى أصبحت الإسكندرية متخمة بالسلاح والرجال والتموين، وأصبح أهلها في منعة من عدوهم. وممّا زاد الروم حماساً في الدفاع عن الإسكندرية أن هرقل قد عزم على الدفاع عنها، وأمر بإعداد ما يلزم ليسير إلى الإسكندرية ويباشر القتال بنفسه، كما أمر بألا يتخلف عنه أحد من الروم وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية[(٢)].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢١٨.

(٢) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ١١٢/١.

وفي أثناء الحصار دارت مناوشات بين المسلمين والروم، فقد ذكر ابن الحكم في كتابه «فتوح مصر والمغرب»: أن فريقاً من الروم خرج من باب الحصن وحمل على المسلمين، فقتل رجلاً من مهرة، واحتزّ رأسه، فغضب جماعته من المهريين لذلك، وقالوا: لا ندفنه إلا برأسه.

فقال عمرو بن العاص: «تتغضبون!! كأنكم تتغضبون على من يبالي بغضبكم، احملوا على القوم إذا خرجوا، فاقتلوا منهم رجلاً، ثم ارموا برأسه، يرمونكم برأس صاحبكم».

فلما خرج الروم للقتال، قتل المسلمون بطريقاً من بطارقتهم، واحتزوا رأسه، فرموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهري إليهم.

فقال عمرو: دونكم الآن، فادفنوا صاحبكم[1].

استمر الحال على هذا المنوال بين المسلمين وحامية الإسكندرية، فكلما خرجت طائفة من الروم تصدى لها المسلمون، واشتبكوا معها حتى يردوها على أعقابها، ويجبروها على اللجوء إلى الحصون تمتنع بها، ويبدو أن الروم قد ضاقت صدورهم بهذا الحصار، وصمموا على فض هذا الموقف مهما كان الثمن ومهما كانت النتائج، وقد زادهم ثقة بأنفسهم، وأقنعهم بقدرتهم على التفوق على المسلمين تلك الإمدادات الهائلة التي كانت تتدفق على الإسكندرية من البحر، والتي أمر هرقل بجمعها ليسير بها إلى الإسكندرية.

واجه المسلمون جيشاً ضخماً مدججاً بالسلاح، فقد بلغت قواتهم، خمسين ألفاً مستعدين للقتال، وقد وقفوا ينتظرون قدوم هرقل ليقودهم في تلك المعركة الفاصلة، ولكن الله عز وجل كان قد كتب النصر للمسلمين، وانصرفت مشيئته فسبَّبَ الأسباب لهذا النصر، فبينما الروم في انتظار قدوم هرقل لينهي هذا الحصار الذي ضيّق عليهم الخناق وأصاب نفوسهم بالضيق، فبينما هم على انتظارهم وشوقهم، جاء رسول هرقل بنبأ صاعق

(١) المصدر السابق ١/١١٣.

وقع على رؤوسهم، فقد مات هرقل، عندئذ خارت قواهم، وصدت نفوسهم الجامحة للقتال والمصرة على الدفاع، وحاروا في أمرهم، فقد نفذ الصبر، وأصبح أمل النصر بعيد عنهم.

عندئذ فكر لهم المقوقس أن يعقد صلحاً كالذي عقده لأهل بابليون، ولكن عمراً رفض الصلح وأحسَّ أنهم في حالة ضعف ويراوغون، وحينئذٍ حاول المقوقس خداع المسلمين، فأمر النساء بلبس السلاح والوقوف على أسوار المدينة مقبلات بوجوههن إلى الداخل، وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين، يريد بذلك أن يرهب المسلمين ويخيفهم.

وكتب عمرو إلى المقوقس: «إنا قد رأينا ما صنعت، وما بالكثرة غلبنا من غَلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم، فكان من أمره ما كان».

فقال المقوقس لأصحابه: «قد صدق هؤلاء القوم، أخرجُوهُ من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان»[1].

أغلظ الروم للمقوقس القول، وأبوا إلا المحاربة.

ولم تكن غلظتهم هذه، ورفضهم الصلح، والرغبة في القتال إلاّ لظنّهم أنّ ما لديهم من السلاح والرجال والتموين كافٍ لصد المسلمين، بل كانوا يعتقدون أكثر من ذلك، كانوا يعتقدون أنَّ القسطنطينية ستظل تمدهم بما يلزمهم من الذخيرة والرجال والطعام، ولكن سرعان ما اختفت هذه الظنون، فخاب أملهم وفشلت خطتهم، فانقطعت الإمدادات، وكاد طعامهم ينفد، فندموا على رفضهم الصلح الذي اقترحه المقوقس.

وفي المدينة تململ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من تأخر فتح الإسكندرية، فقد كان ينتظر أخبار هذا الفتح على أحر من الجمر، فهو يتلهف لسماع أنبائه، لكنها تأخرت، فكتب إلى عمرو بن العاص يقول:

«أمّا بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلون منذ

(١) البلاذي في فتوح البلدان ص ٢٢٢.

سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم من الدنيا ما أحب عدوكم، فإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّر غَيْرَهم، فإن أتاك كتابي هذا فاخطب بالناس، وحثهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدّم أولئك الأربعة في صدور النّاس، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليعج النّاس إلى الله ويسألوه النصر على عدوِّهم»[1].

كان عمر رضي الله عنه محقاً فيما جاء في رسالته، إذ أن المسلمين مكثوا أمام الإسكندرية أشهراً دون أن يستطيعوا اقتحامها، وقد طالت هذه الأشهر، فقال البلاذري: إنها ثلاثة أشهر، وتجاوز ابن الحكم في التقدير فقال: أربعة عشر شهراً: خمسة أشهر قبل موت هرقل، وتسعة بعده[2]. وذكر القضاعي أن حصارها دام ستة أشهر، وقد رجح بعض المؤرخين أن الحصار دام أربعة أشهر فقط.

كان قلق عمر بن الخطاب واضحاً، حتى أنه قال لأصحابه يوماً وهو جالس بينهم: «ما أبطأوا في فتحها إلا لما أحدثوا»[3].

استجاب عمرو بن العاص لرسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولكنه قبل أن يقبل على شيء استشار مسلمة ابن مخلد وقال له: «أشر عليَّ في قتال هؤلاء».

فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ، فتعقد له على النّاس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك.

قال عمرو: ومن ذلك؟

---

(١) الخطط للمقريزي ١٦٥/١.
(٢) انظر: البلاذري ص ٢٢٢، وابن عبد الحكم ١١٧/١، والمقريزي ١٩٥/١.
(٣) ابن عبد الحكم ١١٥/١.

قال مسلمة: عبادة بن الصامت.

فدعا عمرو عبادة، فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه، وعقد له، وولاه قتال الروم[(١)].

وجمع عمرو بن العاص المسلمين وقرأ عليهم كتاب الخليفة، ودعا الأربعة الذين أخبره عمر أنهم مقام أربعة آلاف، فقدمهم أمام الناس، وأمر الجميع بأن يتطهروا، ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر ففعلوا[(٢)].

خرج عبادة بن الصامت قائداً على رأس جيش المسلمين، واشتبك الطرفان ودار قتال عنيف بين الطائفتين، استبسل فيه المسلمون، فانهارت مقاومة الروم، وفتحت الإسكندرية على يد عبادة بن الصامت.

وقد جاء نصر الله بأسباب يسرها الله عز وجل للمسلمين حين مات هرقل في الوقت الذي همَّ فيه المسلمون بفتح الإسكندرية.

وتم فتح الإسكندرية يوم الجمعة مستهل شهر محرم سنة ٢١هـ وبلغ عدد شهداء المسلمين اثنين وعشرين رجلاً[(٣)].

بشائر النصر إلى المدينة

وبعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج إلى عمر بن الخطاب وبشره بفتح الإسكندرية. فسأله معاوية: ألا تكتب معي كتاباً، فكان جواب ابن العاص: وما أصنع بالكتاب؟ ألست رجلاً عربيًا تُبلِّغ الرسالة وما رأيت وما حضرت؟!

وقد روى معاوية بن خديج لحظات البشرى فقال: بعثني عمرو بن

---

(١) المصدر السابق ١/١١٦، ١١٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المقريزي في الخطط ١/١٦٥، ١٦٦.

العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب المسجد، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحباً عليَّ ثياب السفر، فأتتني فقالت: من أنت؟

قلت: معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص.

فانصرفت عني، ثم أقبلت تشد، أسمع حفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني.

فقالت: قم فأجب، أمير المؤمنين يدعوك.

فتبعتها، فلما دخلت فإذا عمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه، ويشد إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك.

قلت: خيراً يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.

فخرج معي إلى المسجد، فأمر المؤذن أن يؤذن في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع النّاس، ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم.

ثم صلّى، ودخل منزله، واستقبل القبلة، فدعا بدعوات، ثم جلس فقال: يا جارية هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت.

فقال: كُل، فأكلت على حياء.

ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق.

فقال: كل، فأكلت على حياء.

ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

قال: قلت: أمير المؤمنين قائل.

قال: بئس ما قلت، أو بئَس ما ظننت، لئن نمت النهار لأضيعَنَّ الرعية، ولئن نمت بالليل لأضيعنَّ نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية[1].

---

(١) ابن عبد الحكم ١/١١٩، ١٣٠.

وتعقب عمرو بن العاص الروم في البر ليقضي عليهم خشية أن يتجمعوا ويكيدوا للمسلمين، وكان قد ترك بالإسكندرية حامية ترابط فيها خوفاً من انقضاض الروم، ولكن تلك الحامية لم تكن كافية للدفاع عن المدينة، حيث كان تعدادها ألف رجل(١).

ولهذا لما أحس الروم بمطاردة عمرو للهاربين في البر، عاد الهاربون في البحر إلى الإسكندرية، وقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من استطاع الهرب(٢).

ولما بلغ عمرو ما حدث للمسلمين على يد الروم عاد من فوره واقتحم المدينة، وفتحها بالسيف وكتب إلى عمر بن الخطاب:

أما بعد، فإن الله فتح علينا الإسكندرية عنوة قسراً بغير عهد ولا عقد(٣).

وأرسل عمرو برسالة أخرى إلى عمر وصف فيها الإسكندرية وصفاً موجزاً قال فيه: أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيهاد غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمّام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك(٤).

ونظراً لجمال هذه المدينة الساحرة، والتقدم العمراني الذي يشهد على حضارتها، واقتصادها المزدهر، فقد أراد عمرو بن العاص أن يتخذ الإسكندرية قصراً للحكم والخلافة، وقال: مساكن قد كفيناها.

وكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، يستأذنه، فسأل عمر الرسول، هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل.

---

(١) المصدر السابق ١١٨/١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البلاذري ص ٢١٧.
(٤) ابن عبد الحكم ١٣١/١.

فكتب عمر إلى عمرو: إني لا أُحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاءً ولا صيفاً.

فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية، وجعل الفسطاط عاصمة له[1].

ـ عودة الروم إلى الإسكندرية:

استعد عمرو بن العاص لمغادرة الإسكندرية، واستخلف عليها عبدالله بن حذافة السهمي ومعه جماعة من المسلمين لحمايتها، ورد العدو عنها إذا جاء لغزوها أو حاول ذلك، ولكن الروم الذين كانوا بالإسكندرية نظروا إلى المسلمين فإذا هم قلّة لا يستطيعون دفعاً ولا نصراً.

أغرت قلة المسلمين الروم، فاعتبروها فرصة لاستعادة المدينة، فكتبوا ذلك إلى قسطنطين ابن هرقل الذي تولى أمر الروم بعد وفاة أبيه هرقل.

فلما جاءته الرسالة عبأ ثلاثمائة مركب بالرجال والسلاح، وأسند قيادتهم إلى منويل الخطي، وكانت حملة ضخمة اتجه بها منويل إلى الإسكندرية، وانضم إليه من كان مقيماً بها من الروم[2]، وهاجم المسلمين فقتل منهم من قتل وهرب من هرب[3].

بلغت أنباء الإسكندرية عمرو بن العاص فعاد من فوره، فلما بلغ الإسكندرية وجد جنود الروم قد خرجوا منها يعيثون في القرى المجاورة لها فساداً، وهناك التقى الفريقان، ورشق الروم المسلمين بالنشاب، وتترس المسلمون منهم، ثم التحمت الحرب بينهما، وشد عليهم المسلمون شدة رجل واحد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الروم وولوا الأدبار، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الإسكندرية فتحصنوا بها، ونصبوا العرادات، وقاتلهم

---

(١) المصدر السابق ١/١٣٢.

(٢) الخطط للمقريزي ١/١٦٧.

(٣) فتوح البلدان ص ٢٢٣.

عمرو على أبواب الإسكندرية، ونصب المجانيق، وضرب بها أسوارها حتى نال منها، ولا زال يقصفها حتى وهنت قوة الروم، وألح عليها حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلين، وسبى الذرية، وهرب بعض رومها إلى الروم، وقُتِل عدو الله منويل، وهدم عمرو بن العاص أسوارها، وكان قد نذر لئن فتحها ليهدمن أسوارها[١].

وتم لعمرو فتح الإسكندرية مرة أخرى، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الله فتح علينا الإسكندرية عنوة وبالقوة بغير عقد ولا عهد.

فرد عليه عمر يقبّح رأيه، ويأمره ألا يجاوزها[٢].

ولما طلب المسلمون من عمرو أن يقسمها بينهم، استشار عمرو الخليفة، فقال له: «لا تقسمها، وذرهم يكون خراجهم فيئاً للمسلمين، وقوة لهم على جهاد عدوهم»[٣].

ولما انتصر المسلمون استحلوا القرى التي ساعدت الروم وظاهرتهم وأعانتهم على المسلمين، وهي قرى: بلهيب وسلطيس ومصيل والخيس وقرطسا وسخا.

فكتب عمرو إلى الخليفة يخبره بما فعله المسلمون بالقرى وأهلها، وعلم الخليفة بأن للقوم عهداً سابقاً، فأمر عمراً أن يجعل هذه القرى ذمّة للمسلمين كما فعل بالإسكندرية، ونهى أن يتخذ أهلها فيئاً وسلباً وعبيداً. وأمر كذلك برد سباياهم، وبتخيير أهلها بين الإسلام وبين دينهم، فمن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن اختار دينه خلي بينه وبين قريته.

وكتب الخليفة عمر بن الخطاب كتاباً إلى عمرو بن العاص جاء فيه: أما بعد، فإنه جاءني كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١١٨/١.

(٣) المصدر السابق ١٢٢/١.

الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليَّ من فيء يقسم، ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه الجزية ما يوضع على أهل دينه، فأما من تفرَّق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردِّهم، ولا نحب أن نصالحهم على أمر لا نفي لهم به.

عرض عمرو على صاحب الإسكندرية ما أمره به أمير المؤمنين.

فأجاب: قد فعلت.

فجمع عمرو ما بأيدي المسلمين من الأسرى، وحضر النصارى ليشهدوا التخيير، وأخذ المسلمون يخيرون الأسرى واحداً واحداً، فإذا اختار أحدهم الإسلام كبر المسلمون، وحازوه إليهم، وإذا اختار دين قومه نخرت له النصارى وحازوه إليهم، ويحزن المسلمون لذلك حزناً شديداً، ويضربون عليه الجزية، وظل ذلك دأبهم حتى انتهوا من الأسرى، وكان ممن اختار الإسلام أحد رؤسائهم وهو «أبو مريم»(١).

وأحضر عمرو خراج أهل مصر، فكان مجموع ما جبي ألف ألف دينار(٢).

وفتحت الإسكندرية عام ٢٣ هجرية في نهاية خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان حريصاً على تأمينها بالرجال والسلاح.

عمر وإدارة الدولة

لما انطلقت جيوش الفتح لنشر الإسلام في البلاد والأمصار وحققت النصر، حصلت على غنائم كثيرة، نال المجاهدون حظاً وفيراً منها، وأرسل

---

(١) الطبري ١٠٦/٤.

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٧.

الباقي إلى عاصمة الدولة: «المدينة المنورة»، ورغم أن هذا الجزء المرسل لا يشكل إلا خمس الغنائم إلا أنه كان ضخماً لضخامة الغنائم.

كان المجاهدون يحصلون على أربعة أخماس الغنائم، توزع عليهم بالتساوي، للراجل سهم، وللفارس سهمان، ومن قتل قتيلاً فله سلبه، وكان الخمس الأخير يشكل مبالغ ضخمة، وخيراتٍ كثيرة، وهذا ما أدى إلى جمعهما في بيت خاص عرف ببيت المال.

وكان بيت المال يضم عدة أقسام، في كل قسم صنف من الأغذية، إضافة إلى المكان الذي فيه المال والذي يعادل البنك المركزي الآن، وكان على كل قسم خازن.

وكان خمس الغنائم أيام الرسول ﷺ يقسم إلى خمسة أقسام هي:

١ ـ لله.

٢ ـ لرسول الله ﷺ.

٣ ـ لذي القربى.

٤ ـ للمساكين.

٥ ـ لابن السبيل (عابر السبيل المنقطع: من مسافر وغيره).

وذلك حسبما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

وقد كان رسول الله ﷺ يأخذ نَفَقة سنته من نصيبه، ويضم ما بقي إلى الأموال العامة.

فلما توفي رسول الله ﷺ وتولى أبو بكر رضي الله عنه، أسقط نصيب رسول الله ﷺ، ونصيب ذوي القربى بناءً على حديث رسول الله ﷺ: **«نحن معاشِرَ الأنبياء لا نُورِّثُ، ما تركناهُ صدقةٌ»** وأصبح خمس الغنائم يوزع على ثلاثة أقسام.

فلما توفي الصديق رضي الله عنه وتولى عمر رضي الله عنه التزم بطريق أبي بكر رضي الله عنهما.

ـ **بيت المال**: أنشأ عمر بيت المال لما رأى كثرة الأموال، فجعل لها داراً خاصة، وخازناً قائماً عليها، وجعل أجنحة تابعة لبيت المال تضم المواد الغذائية، ولها من يقوم عليها، وفرض الأعطيات للمسلمين، وجعل الفاروق سجلاً للأعطيات هو الديوان، ودون الأسماء حسب القرابة من رسول الله ﷺ، الأقرب فالأقرب، وكان الفاروق قد جمع ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ما ترون؟ فإني أرى عطاء الناس في كل سنة، وأجمع المال فإنّهُ أعظم للبركة[1].

ـ **عمر والولاة**: شهد عهد عمر الفاروق انتشاراً للإسلام والفتوحات، ولا بد لهذه البلاد التي دخلت الإسلام من ولاة يتولون أمرها:

فكان أبو عبيدة أمير الشام.

وسعد بن أبي وقاص أمير العراق.

ومن بعد كان عمرو بن العاص والي مصر.

هذا بالنسبة للأقاليم الكبرى.

أما الصغرى، فكان لها فاتحون، فهم ولاتها مثل:

شرحبيل بن حسنة أمير البلاد الواقعة إلى الشرق من الغور.

ويزيد بن أبي سفيان أمير دمشق.

وخالد بن الوليد أمير قنسرين...

وكان اختيار الولاة من الفاروق وعزلهم يقدم على أسس عادلة، فلم يقتصر منصب على مجموعة أشخاص أو شخص، فقد عزل عمر سعد بن

---

(١) الخراج لأبي يوسف.

أبي وقاص، وعزل أبا موسى الأشعري، وهم من قادة الصحابة، كما عزل غيرهم ممن هم دونهم.

ـ **اختيار الولاة:** كانت هناك مواصفات لاختيار الولاة، بعضها إدارية، وبعضها اجتهادية[(١)]، ومن هذه المواصفات التي اعتمدها عمر رضي الله عنه:

١ ـ كان عمر يحرص أن يبقى كبار الصحابة في المدينة ليستفيد من رأيهم، وليفيد الناس من علمهم، ولتبقى لهم هيبتهم، وليحفظ لهم مكانتهم، فإن الولاية تجعل المسؤول وجهاً لوجه مع مصالح الأفراد وأمام مشكلاتهم. فلم يعهد إلى أمثال: عثمان وعلي وعبدالرحمن بن عوف والزبير وطلحة وغيرهم من كبار الصحابة بالقيام على ولاية من الولايات.

وعندما سُئِلَ عمر: ما لك لا تولي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ؟؟

قال: أكره أن أدنسهم بالعمل[(٢)].

أما ولاية أبي عبيد بن الجراح وسعد بن أبي وقاص فقد اقتضها المصلحة والأحداث، فسعد بن أبي وقاص، اقترح اسمه عبدالرحمن بن عوف ليكون أميراً على عدد من القادة ولمواجهة دولة الفرس، وأبو عبيدة بن الجراح بعثه أبو بكر أميراً لعددٍ من القادة ولمواجهة دولة الروم.

٢ ـ كان الفاروق يحرص على أن يبقى آل البيت بعيدين عن الولاية، حتى لا يظن بعض الناس أن القرابة لها دور في الولاية والحكم، أو لها شأن في القيادة والسلطة.

٣ ـ كان الفاروق يختار الرجل القوي الأمين للولاية، ويترك الضعيف

(١) الفاروق وأسرته للأستاذ محمود شاكر ص ٢٧٥.

(٢) طبقات ابن سعد.

مهما كانت له من مميزات أخرى كعلم وصلاح، لأن صلاح الرجل يفيد نفسه، وقوته تفيد الأمة[1]، وكان يقول: إني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه.

- **أوّليّات عمر**: وكان لعمر أوليات لم يسبقه إليها أحد، فقد أدخل أموراً رائعة، لم تكن معروفة من قبل، ومن هذه الأوليات:

١ - **لقب أمير المؤمنين**: يعد عمر بن الخطاب أول من لُقِّب بأمير المؤمنين، وذلك أن رسول الله ﷺ لما توفي استُخلِف أبو بكر، فكان يقال له: خليفة رسول الله، فلما توفي أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر، قيل لعمر: خليفة خليفة رسول الله.

فقال المسلمون: ومن جاء بعد عمر ماذا نقول له؟؟

فأجمع بعض أصحاب رسول الله ﷺ على لقب أمير المؤمنين، عندما قالوا: نحن المؤمنون، وعمر أميرنا، فدعي عمر أمير المؤمنين، فهو أول من سمي بذلك[2].

وقيل: إن عمر قال للناس: أنتم المؤمنون، وأنا أميركم، فسمي أمير المؤمنين[3].

٢ - **التقويم**: لم يكن للعرب قبل الإسلام تقويم خاص بهم، بل كانوا يؤرخون بالأحداث البارزة في مناطقهم، مثل حادثة الفيل في مكة، وفي المدينة أيام الأوس والخزرج، وفي البادية «يوم البسوس، ويوم داحس والغبراء» بين «عبس وذبيان».

وقد اتخذ الفاروق الأشهر القمرية تقويماً، بدأها بالمحرم، ثم صفر... وهكذا.

---

(١) الفاروق وأسرته للأستاذ محمود شاكر ص ٢٧٩.

(٢) طبقات ابن سعد.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

٣ ـ الديوان: الديوان كلمة فارسية، معناها: السجل الذي تدون فيه أعطيات الموظفين، وتسجل فيه أسماء الجند وأرزاقهم.

ولم يكن هناك ديوان أيام الرسول ﷺ وأيام أبي بكر، إذ لم تكن هناك حاجة لذلك، فلما كانت أيام الفاروق توسعت الفتوحات.

ويروى أن أبا هريرة رضي الله عنه، قدم من البحرين بمال كثير، وكان والياً عليها، ويقدر ذلك المال بخمسمائة ألف دِرْهَم، فلمّا وصل إلى المدينة أخبر عمر بهذا المبلغ فلم يصدّقه، وقال له: هل تدري ما تقول؟

قال: نعم، مئة ألف وعد خمس مرات.

ومع ذلك لم يصدّقه عُمر لاحتمال أن الرجل متعب بعد السفر وبحاجة إلى الراحة والنوم، فقال له: اذهب ونم وائتني في الصباح.

فذهب ونام وأتاه صباح اليوم التالي بالخبر نفسه وسلمه المال، فنادى في الناس وجمعهم، وأخبرهم بمقدم أبي هريرة، وما أتى به من المال الكثير، وقال لهم: إن شئتم وزنّا لكم وزناً! وإن شئتم كلنا لكم كيلاً، وإن شئتم عَدَدْنَا لكم عداً.

فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدونون ديواناً، فدون لنا أنت ديواناً(١).

وقيل: إن الفاروق رضي الله عنه، بعث بعثاً وعنده الهرمزان، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلّف منهم رجل، وبقي في مكانه، فمن أين يعلم صاحبك به؟ فأثبت لهم ديواناً.

فسأله عمر عن الديوان حتى فسَّره له(٢).

٤ ـ العسس: ويقصد به الطواف بالليل لتفقد الرعية، فكان عمر لا يأوي إلى مضجعه قبل أن يطمئن على رعيته، فيطوف بالأحياء، ويخرج إلى أطراف المدينة حيث ينزل الأعراب.

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي.

(٢) المصدر السابق.

ونأخذ على سبيل المثال جولة واحدة، فقد قال أسلم مولى عمر: قَدِم المدينة رفقة من تجار فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبدالرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم هذه الليلة؟

قال: نعم!

فباتا يحرسانهم ويصليان، فسمع عمر بكاء صبي، فتوجّه نحوه، فقال لأمه: اتق الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخِر الليل سمع بكاء الصَّبيِّ، فأتى إلى أُمِّهِ، فقال لها: ويحك إنَّك أُم سوءٍ، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة من البكاء؟

فقالت: يا عبدالله، إني أُشغله عن الطعام فيأبىٰ ذلك.

قال: وَلِمَ؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم.

قال: وكم عمرُ ابنك هذا؟

قالت: كذا وكذا شهراً.

قال: ويحك لا تعجليه عن الفطام.

فلما صلى الصبح، وهو لا يستبين للناس قراءته من البكاء، قال: بؤساً لعمر، كم قَتَل من أولاد المسلمين، ثم أمر مناديه فنادى: لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق(١).

٥ ـ **الجزية ومراتبها**: فرض الرسول ﷺ الجزية على نصارى نجران، ويهود اليمن، وعلى أكيدر دومة الجندل، وعلى مجوس البحرين، وكانت أوضاعهم المادية متشابهة، فكان قد ضرب عليهم ديناراً على كل حالم في السَّنة، وهذا أقلُّ الجزية، وسار الصديق رضِي الله عنه على ذلك.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

فلما امتدت رقعة الإسلام أيام عمر رضي الله عنه، نتيجة الفتوحات، وشملت أقاليم متباينة من حيث الثروة، ومن حيث أنواع الزراعات، ويقيم عليها سكان يختلفون في دخلهم المادي، لذا رأى أن الجزية يجب أن تختلف حسب غنى الأفراد، فجعل على الغني أربعة دنانير، وعلى المتوسط دينارين، وعلى العادي دينار واحد، ومعلوم أن الدينار كان اثني عشر درهماً، كما ميَّز بين الزراعات، حيثُ يدرُّ بعضها ربحاً أكثر من الآخر، كما فرَّق بين الأرض التي تُسقى من مياه الأنهار، وبين التي تروى من ماءِ السماءِ.

وقد أسقط عمر الجزية عن الفقراء والعجزة، بل أعطاهم من بيت المال اجتهاداً منه.

عام الرمادة

كانت المدينة تنعم بما أفاء الله عليها من خير وفيء، ولم تكن المدينة وحدها، بل المسلمين في شتى أرجاء الجزيرة العربية، وذلك من أخماس الفيء التي ترد إليها من قادة الفتح الإسلامي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفيما هم ينعمون بما أفاء الله عليهم من خير ونعم وافرة، وفي أخريات السنة السابعة عشرة وطيلة السنة الثامنة عشرة، حدث في هذا العام وهو العام الخامس في خلافة عمر رضي الله عنه، حدث جدب شديد، وقحط عم الناس جميعاً، وجاع المسلمون فيه جوعاً كاد يهلكهم، حتى جفل الناس من البادية إلى المدينة، لعلهم يجدون عند أمير المؤمنين ما يسد حاجتهم.

ويعود ما وقع من المجاعة إلى أسباب من إمساك المطر في شبه جزيرة العرب كلها تسعة أشهر كاملة، وتحرك الطبقات البركانية من أرضها، فاحترق سطحها وكل ما عليها من نبات، فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب، فإذا تحركت سَفَتْ رماداً، لذا سمي هذا العام عام الرمادة،

ونشأ عن إمساك المطر، وهبوب الرياح، وهلاك الزرع والضرع: جوعٌ أهلك الناس والأنعام، فقد فني الكثير من قُطعان الغنم والماشية، وجفَّ ما بقي منها، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها برغم جوعه وبلواه(١).

ولقد كان في زمن الخصب يبث لعمر بن الخطاب الخبز باللبن والسمن، فلما اشتدت المجاعَة حدث أن جيء عمر بخبز مفتوت بسمن، فدعا رجلاً بدوياً فأكل معه فجعل البدوي يتَّبع باللقمة الودَكَ إلى جانب الصحفة، فقال له عمر: كأنك مقفر من الودك؟

وأجابه الرجل: أجل! ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت أكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم.

فأقسم عمر ألاّ يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يشبع الناس. واشتدَّ الأمر حتى أوت الوحوش إلى الناس لشدّة ما نزل بها من الجوع(٢).

وجعل عمر لا يقرب طعاماً إلا الزيت بالخل، وكان لا يشبع منه حتى اسودَّ لونه وتغير جسمه، وخاف المسلمون عليه من الضعف(٣).

وضرب عمر رضي الله عنه المثل بنفسه والتزم بالتقشف والصبر، فقد قَدِمت السوق عُكَّةٌ من سمن وَوَطْبٌ من لبن، فاشتراهما غلام له بأربعين درهماً، وذهب إليه الغلام فقال له: قد لبى الله يمينك وعظَّم أجرك، قَدِم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فاتبعتها بأربعين درهماً.

قال عمر: أغليت فتصدق بهما، فإني أكره أن آكل إسرافاً، وأطرق هنيهة ثم قال: كيف يعنيني شأن الرعية، إذا لم يمسني ما يمسهم.

ولما اسود لونه وقد كان أبيض مشرباً بحمرة، ذلك أنه كان يأكل السمن واللبن واللحم، فلما أصيب الناس بالمجاعة حرّمها على نفسه، وأكل الزيت، وأكثر من الجوع، حتى كان الناس يقولون وقد رأوا ما أصابه: لو

---

(١) هيكل ـ الفاروق عمر.

(٢) تاريخ الطبري ٩٨/٤.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٩٠/٧.

لم يرفع الله ما نزل من البلاء في عام الرمادة لظنّنا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين.

وقد أورد الطبري وابن كثير روايات كثيرة عن أحداث عام الرمادة، فقد روى سيف عن عاصم بن عمير بن الخطاب أن رجلاً من قبيلة مُزينة عام الرمادة طلب منه أهله أن يذبح لهم شاة.

فقال: ليس فيهن شيء، فلم يزالوا به حتى ذبح لهم الشاة، فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمداه.

فأري فيما يرى الناس أن رسول الله ﷺ أتاه فقال: أبشر بالحيا، إئت عمر فأقرئه مني السلام، وقل له: إن عهدي بك وأنت وفيّ العهد، شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر.

وذهب الرجل إلى بيت عمر، وقال لغلامه: استأذن لرسول رسول الله، وأتى الغلام عمر فأخبره، ففزع عمر وقال: أرأيت به مساًّ؟

قال: لا.

قال: فأدخله.

فدخل فأخبره الخبر.

فخرج عمر، ونادى في الناس، وصعد المنبر، وقال: أنشدكم بالذي هداكم للإسلام، هل رأيتم مني شيئاً تكرهونه؟

فقالوا: اللهمَّ لا.

قالوا: وما ذاك؟

فأخبرهم، ففطنوا ولم يفطن[1].

فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء، فاستسق بنا.

---

(١) أي أنهم فطنوا إلى أن عمر لم يصل بهم صلاة الاستسقاء، ومن هنا كانت رؤيا النبي ﷺ في المنام.

فنادى الناس: فقام فخطب فأوجز، ثم صلى ركعتين فأوجز، ثم قال: اللهم عجزت عنّا أنصارنا، وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلاّ بك، اللهمّ فاسقنا، وأحيي العباد والبلاد.

وروي أنه قال عند الاستسقاء: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنّا، ثم انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا بالغدران[1].

وعن هذا جاءت رواية للبيهقي عن أبي صالح عن مالك قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استسق الله لأُمتك فإنهم قد هلكوا.

فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: ائت عمر، فأقرئه مني السلام، وأخبرهم أَنَّهم مسقون، وقل له: عليك بالكيس الكيس.

فأتى الرجل، فأخبر عمر، فقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه[2].

وقد اهتم عمر رضي الله عنه بأمر المسلمين، فكتب إلى عماله في العراق والشام يستنجدهم لغياث أهلهم في شبه الجزيرة.

فكتب إلى عمرو بن العاص بفلسطين يقول: سلامٌ عليك! أما بعد، أفتراني هالكاً ومن قِبلي، وتعيش أنت ومن قِبلك! فيا غوثاه! يا غوثاه يا غوثاه!

وأجابه عمرو: «أمّا بعد، فلَبِّث[3]، لأبعثن إليك بعيراً أولها عندك وآخرها عندي».

وبعث بمثل هذا الكتاب إلى معاوية بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح بالشام وإلى سعد بن أبي وقاص بالعراق، فأجابوه جميعاً بنحو مما أجاب عمرو بن العاص.

---

(١) الطبري ٤/٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧/٩٢، وإسناده صحيح.

(٣) لبّث: بمعنى انتظر واصبر.

وكان أبو عبيدة أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر وغياثاً لأهل شبه الجزيرة، سبقهم جميعاً، فقدم في أربعة آلاف راحلة محملة طعاماً، فولاه عمر قسمته فيمن حول المدينة، وكان عمر قد أراد أن يستقر الناس في مواطنهم، وأن يطمئنوا إلى أن الخليفة لن يغفل عنهم، وأن الطعام سيأتيهم إلى حيث يقيمون، وعمر بذلك يكافح ظاهرة فشت في الناس، تلك هي هجرة الناس إلى المدينة وفرارهم إلى مقر الخلافة، ولو أن الناس فعلوا ذلك كلهم لضاقت بهم المدينة، وأصبحت المشكلة مضاعفة، فبدلاً من أن تكون محصورة في عدم الطعام تضاف إليها مشكلة السكن[1].

قسم أبو عبيدة عمر الأربعة آلاف راحلة المحملة بالطعام، فلما فرغ من ذلك أمر له عمر بأربعة آلاف درهم.

فقال: لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين! إنما أردت الله وما قِبَلَه، فلا تُدْخِل عليَّ الدنيا!

لكن عمر أجابه: خذها فلا بأس بذلك إذا لم تطلبها، وإني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا فأعطاني بعد أن قلت له مثل ما قلت لي، وقبض أبو عبيدة المال وانصرف إلى عمله.

وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل وفي السفن من ثغر أيلة ـ وهي العقبة اليوم ـ بعث في البحر عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك، وبعث في البر ألف بعير تحمل الدقيق.

وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام.

وبعث سعد بن أبي وقاص ألف بعير من العراق تحمل كلها الدقيق، هذا خلا خمسة آلاف كساء أرسلها عمرو، وثلاثة آلاف عباءة أرسلها معاوية.

---

(١) الدكتور محمد السيد الوكيل في كتابه: جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص ٢٦٧.

ونظم عمر رضي الله عنه دولته في مواجهة هذه الكارثة تنظيماً رائعاً يرقى إلى ما يدعيه أدعياء الحضارة هذه الأيام، فقد ولّى رضوان الله عليه من يطعم الناس ويكسوهم من أمصار خلافته وباديتها، وتولى هو بنفسه إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم من العرب، وانصرف إلى أرجاء شبه الجزيرة يخففون عن الناس بلواهم، فلقي الموكلون بالتوزيع، ما بعث به سعد بن أبي وقاص من الأقوات عند أفواه العراق، فأقاموا ينحرون للناس الجزر، ويطعمونهم الدقيق، ويلبسونهم العباء، حتى رفع الله البلاء، وكذلك فعل الرسل ما بين مكة والمدينة.

وقال عمر لرسوله الذي بعثه يلقى عير الشام: «أمّا ما لقيت من الطعام فمل به إلى أهل البادية، فأما الظروف فاجعلها لُحفاً يلبسونها، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحملون من ودكها، ولا تنتظر أن يقولوها ننتظر بها الحيا، وأما الدقيق فيصطنعون ويحرزون حتى يأتي أمر الله بالفرج».

وتولى عمر إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليها، فكان يأدم الخبز والزيت يجعله ثريداً، وينحر بين الأيام الجزور فيجعلها على الثريد، ويأكل مع القوم مما يأكلون، فلما أقبلت الإبل من العراق والشام كان ينحر على مائدته كل يوم عشرين جزوراً يطعمها الناس، وكان له عيون يجتمعون عنده إذا أمسوا فيخبرونه بكل ما رأوه يومهم.

وأمر ليلة بعد أن فرغ الناس من العشاء بإحصاء الذين طعموا على موائده، فكانوا سبعة آلاف رجل.

وأحصيت العيالات التي لم تأت والمرضى والصبيان فكانوا أربعين ألفاً، وزاد هؤلاء وأولئك بعد أيام، فكان الذين تعشوا عنده عشرة آلاف، والآخرون خمسون ألفاً، وكان العمَّال يَقْدَمون في السَّحر إلى قدور عمر فيعملون حتى يصبحوا، ثم توزع العصيدة، ويوزع اللحم على المرضى والصبيان والعيالات ممن لا ينالون طعامهم على موائد أمير المؤمنين، وكان عمر يتعهد هؤلاء جميعاً بنفسه ليطمئن إلى أنهم حصلوا على ما يدفع عنهم غائلة الجوع.

وكان يرسل الدقيق والتمر والأدم إلى منازل القادرين على تهيئتها لغذائهم شهراً بشهر، يوزع ذلك عليهم في نظام يشبه نظام «البطاقات» أيام الحروب في عهدنا الحاضر، يزيد فيه وينقص منه على قدر ما عنده، وكان لذلك يقول: لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا فعلت، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم.

وقد اعتنى عمر رضي الله عنه بالناس، وقسى على نفسه وأولاده، ومن ذلك أنه رضوان الله عليه أُتي بلحم فيه سمن، فأبى أن يأكله، وقال: كل واحد منهما آدم[1].

واستسقى رجلاً، فأتاه بعسل، فردّه وقال: والله لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة!

ورأى رضوان الله عليه بطيخة في يد بعض ولده فقال: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين! تأكل الفاكهة وأُمه محمد هزلى! فخرج الصبي هارباً يبكي، فسكت عمر بعد أن علم أنّه اشتراها بكف من نوى.

ومر عمر في عام الرَّمادة على امرأة وهي تعصد العصيدة فقال: ليس هكذا، فأخذ المسوط فأراها، ورآه أبو هريرة يحمل جرابين وعكة زيت، فرأى قوماً مسنين فطبخ لهم حتى شبعوا[2].

ومع عناية عمر هذه بالناس جميعاً، ورغم ما فعله، فقد فشا المرض في الناس، وهلك منهم كثيرون، فكان يتعهد المرضى، ويبعث بالأكفان لمن مات ويصلي عليهم، وقد استطاع خلال الأشهر التسعة التي قاسى فيها الناس هول الكارثة أن يخفف منها ما قدر أمراء الأنصار على إمداده.

فلما قصرت مواردهم ازداد في شبه الجزيرة المرض والموت، وبلغ الهول منهم أشدّه، فلم ير عمر ملجأً من الله إلا إليه، لقد كان طيلة هذه

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) المصدر السابق.

الأشهر التسعة يصلي بالنّاس العشاء ثم يدخل إلى بيته، فلا يزال يصلي حتى آخر الليل، ضارعاً إلى الله ألا يجعل هلاك الأمة على يديه، فلما لم تعجل إجابة دعائه، ولم يمطر الناس، عزم على أن يستسقي، فكتب إلى عماله أن يخرجوا بالناس في يوم عيَّنه وحدده، وأن يتضرعوا إلى ربهم أن يرفع المحل عنهم، وخرج هو بالنّاس ذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى المصلى تضرع الناس، وألحُّوا في الدعاء، وبكى عمر بكاءً طويلاً حتى أخضل لحيته، وكان العباس بن عبد المطلب قائماً إلى جنبه، فأخذ عمر بيده ورفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إنا نستشفع بعم رسولك إليك!».

ودعا العباس ربه وعيناه تهملان، وأقام الناس يدعون ربهم تضرعاً وخشية وقد أيقنوا الموت إن لم يسعفهم الله بالمطر، واستجاب الله لعباده المؤمنين الذين صدقوه ما عاهدوا الله عليه، إنَّ الله بعباده لرؤوف رحيم(١).

ولم يبعث عمر جباته لجمع الزكاة في عام الرمادة، بل أخَّرهم إلى أن ارتفع الجدب(٢).

فلما اطمأن الناس إلى العيش، وكثرت عندهم مادته، أمر الجباة أن يسيروا إليهم، وأن يأخذوا من كل قادر حصتين: حصة عن عام الرمادة، وأخرى عن العام الذي بعده، وأن يقسموا إحدى الحصتين على المعوزين، ويَقْدموا عليه بالثانية، وبذلك زاد في تخفيف الفقر عن الفقراء.

وقد استجاب الله لدعاء عمر رضي الله عنه وعباده المسلمين، ففتح السماء بماء منهمر وسيل دافق، وسرعان ما ربت الأرض واخضرت، فلم يبق للأعراب الذين قدموا المدينة أن يقيموا بها، لذلك جعل عمر يسير بينهم يقول: اخرجوا! اخرجوا! الحقوا ببلادكم! يخشى أن يظل بالمدينة

---

(١) الدكتور هيكل في الفاروق عمر ص ٢٦٩.

(٢) طبقات ابن سعد.

منهم من يظن أنها ألين عيشاً؛ بل إنّه وكل بكل هؤلاء الأعراب من يخرجونهم إلى باديتهم ويعطونهم قوتاً وحُملاناً تبلغهم منازلهم، فلما عادوا إلى منازلهم رجعوا إلى مألوف حياتهم اليومية، وإن لم يجدوا من أعطيات الفيء ما يرفه عنهم.

وبالنسبة للجند فقد شدد أوامره إليهم ألاّ يقاتلوا عدوهم إلا إذا أكرهوا دفاعاً عن أنفسهم.

وقد كانت مواجهة عمر رضي الله عنه لهذه الأزمة نموذجاً للخليفة الذي يحسن تقدير الموقف، مستغلاً كل ما أحل الله له، فأول قرار اتخذه أنه نزل بعيشه إلى مستوى الفقراء الذين لم يجدوا إلا مائدته يجلسون إليها بالألوف جائعين، لينالوا ما يسد رمقهم ويبقي على حياتهم.

ثم يقول: «كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم» فقد شعر بآلام الناس، وبذلك اطمأن عامة الرعية إلى أن أمير المؤمنين يشاركهم المحنة، فلا تثور نفوسهم، لأنه يشاركهم في سرائهم وضرائهم، وبذلك ضرب أروع المثل للقائد والخليفة الإسلامي.

محنة طاعون عمواس

لم يكد ينتهي عام الرمادة وتنتهي المجاعة، ويرفع الله عن الناس الضر، حتى ظهر مرض خطير في عمواس من أرض فلسطين، ثم انتقلت عدواه إلى الشام.

كان الوباء ينتشر بسرعة هائلة، فجعل يفتك بكل من يصابون به فتكاً ذريعاً، وقد طال هذا الوباء شهراً، هلك في أثنائه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً، فيهم من أكابر الناس وأجلاء الصحابة مثل: أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل... وغيرهم.

وقد كان الحارث بن هشام قد خرج من المدينة إلى الشام في سبعين من أهل بيته، فماتوا جميعاً لم يبق منهم إلا أربعة، وقيل: إن أربعين من

ولد خالد بن الوليد ماتوا في هذا الطاعون الذي انتشر في الجند كما انتشر بين المدنيين، لذلك فقد أفزع هذا الوباء اللعين الناس وأخافهم عواقبه، فلو أن أعداءهم حاولوا العود إليهم لعجزوا هم عن مقاومتهم، ولكن الروم فكروا أيضاً وأشفقوا من الوباء أن يصيبهم منه ما أصاب المسلمين، فلم يفكروا في الرجعة إليهم خوفاً على أنفسهم هذا الهول الذي فدح عدَّوهم.

في بداية الوباء لم تكن أنباؤه مزعجة، وكان عمر قد عزم على الخروج إلى بلاد الشام، ولكن أمراء الأجناد، قد استقبلوه على الحدود، وأخبروه بأن الأرض سقيمة، وأن الوباء منتشر يعصف بأرواح الناس، وطلبوا منه العودة إلى المدينة، وراع عمر ما سمعه منهم، فلما أمسى جمع المهاجرين الأولين يستشيرهم: أيتابع طريقهُ إلى الشام مع ما فيها من وباء، أم يعود أدراجه إلى المدينة؟

فاختلف رأيهم، فمن قائل: خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده، وما نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك؛ ومن قائل: إنه لبلاء وفناء وما نرى أن تقدم عليه.

واختلف الأنصار كما اختلف المهاجرون كأنما سمعوا قولهم فأعادوه، هنالك جمع عمر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم، فلم يختلف عليه اثنان، بل قالوا جميعاً: ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء(١).

وأمر عامر فنادى ابن عباس في الناس ليُعِدُّوا رواحلهم، فلما صلوا الصبح التفت عمر إليهم وقال: «إني راجع فارجعوا».

ولم يكن أبو عبيدة حاضراً مشاورات عمر وما انتهى إليه من رأي، فلما عرف ذلك، قال له: أفراراً من قدر الله يا عمر(١)!

وأجابه عمر: نعم، فراراً من قدر الله إلى قدر الله.

هكذا دهش الخليفة لهذا الاعتراض، ونظر مليّاً إلى أبي عبيدة ثم

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٥٧.

قال: لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة! نعم! فراراً من قدر الله إلى قدر الله، وأطرق هنيهة ثم أردف: أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عُدْوتان: إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس يرعى مَنْ رَعَى الجدبة بقدر الله، ويرعى من رعى الخصَبة بقدر الله!».

وانصرف عمر رضي الله عنه عن هذا الحديث ليتحدث مع أبي عبيدة رضي الله عنه في شؤون أخرى، كشؤون الشام مثلاً، وفيما يجب أن يقابل الوباء به، وإنهما لفي حديثهما إذ أقبل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، فرأى الناس في هرج، فسألهم ما شأنهم، فلما أخبروه الخبر قال: عندي من هذا علم، سمعت رسول الله ﷺ: **«إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه»**.

فاطمأن عمر لهذا الحديث وقال: «الحمد لله، انصرفوا أيها الناس»[(١)].

وعاد عمر بالناس إلى المدينة، وعاد أمراء الأجناد ومن معهم إلى أعمالهم، عادوا وعمر رضي الله عنه لا يحمل في نفسه شيئاً لأبي عبيدة، فخلاف الرأي بينهم لا يتعدى الألسن التي تتكلم، فلا يصل إلى القلوب، فلكل منهم رأي واجتهاد يعتد به، والمجتهد حتى لو أخطأ فهو مأجور على اجتهاده.

ويتحدث أبو موسى الأشعري فيقول: كنت مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام عام طاعون عمواس، فلما اشتعل به الوجع، وبلغ ذلك عمر، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه فقال:

«أن سلام عليك، أما بعد، فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك بها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلي»[(٢)].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥٦٠/٢، وابن كثير ٧٧/٧، والحديث متفق عليه.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧٨/٧.

وقرأ أبو عبيدة الكتاب فأدرك مراد عمر، وأنه إنما حرص على أن يستخرجه من الوباء، فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين!

ثم كتب إليه: «إني قد عرفت حاجتك إليَّ، وإني في جند من المسلمين، لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أُريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه، فحللني من عزمك يا أمير المؤمنين ودعني في جندي».

وقرأ عمر هذا الكتاب فبكى، فسأله من حوله: أمات أبو عبيدة؟

فأجاب ولا يزال الدمع آخذاً بخناقه: «لا! وكأن قد».

فكر عمر في كتاب أبي عبيدة، وشاور أهل الرأي، وأخذ يفكر في وسيلة لإنقاذ أهل الشام مما نزل بهم، ثم كتب إلى أبي عبيدة يقول: «إنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة»[١].

وإن أبا عبيدة يفكر في تنفيذ هذا الأمر، واستدعى أبو عبيدة أبا موسى الأشعري، وأطلعه على كتاب الخليفة عمر، وطلب منه أن يرتاد للناس منزلاً، وأخذ يتجهز ليتبع أبا موسى، ولكنه طعن وهو يركب راحلته، فأخبر أصحابه بذلك، وسار بالناس حتى نزل الجابية، ورُفِع عن الناس الوباء، ومات هو بالجابية[٢]، فخلفه معاذ بن جبل فطعن هو ومات، واستخلف معاذ عمرو بن العاص فخطب في النّاس فقال: إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتحصَّنوا منه في الجبال، ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في المرتفعات، فأذهب ذلك شدّة الوباء وانتهى بزواله.

وبلغت عمر مقالة ابن العاص فلم يكرهها، بل رأى فيها تنفيذاً للأمر الذي بعث به إلى أبي عبيدة.

وقد ذكر المؤرخون أسباباً كثيرة للوباء، فالمتقدمون منهم يردون سببه إلى غضب من الله استنزله أبو عبيدة على أهل الشام لشرب جماعة من

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤/٦٨.

(٢) ابن كثير ٧/٩٤.

المسلمين فيه الخمر، فقد كتب إلى عمر: «أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، فسألناهم فتأولوا، وقالوا: خَيَّرنَا فاخترنا، قال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، ولم يعزم علينا، ولم يكن القرآن قد نصَّ على حد للخمر، ولم يحدَّ رسول الله ﷺ ولا حدَّ أبو بكر شارباً لها».

لذلك جمع عمر أصحاب الرأي بالمدينة، وقص عليهم ما جاء في كتاب أبي عبيدة، فرأوا أن عبارة القرآن ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ تعني الأمر، أي فانتهوا، وأجمعوا على أن يُضرَب الذين شربوها ثمانين جلدة، وأن يُفسَّقوا.

فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهم، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين.

فدعاهم أبو عبيدة وسألهم أمام الناس، فقالوا: إن الخمر حرام، فجلدهم ثمانين، وقال: ليحدثن فيكم ـ بأهل الشام ـ حادث، فكان الطاعون.

أما المؤرخين المتأخرين فيرون أن السبب كثرة القتلى في الميادين، وعدم القدرة على إحكام دفنهم، سبَّبَ وجود الميكروبات في الجو حتى تلوث بالوباء وانتشر بين الناس.

ولما انكشف الوباء وارتفع، خرج عمر متوجهاً إلى بلاد الشام، ليتفقد رعيته، ويقف بنفسه على ما هي فيه، وليورث الأحياء من الأموات بعد أن التبس الأمر على الأمراء، فدخل عمر الشام فقسم الأرزاق، وسمى الشواتي والصوائف، وعزل شرحبيل بن حسنة لا عن سخط، بل يريد رجلاً سياسياً محنكاً قوياً ليستقيم الأمر.

ولما هم بالرجوع خطب في الناس قائلاً: ألا إني قد وليت عليكم، وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاني الله من أمركم إن شاء الله...

وحضرت الصلاة، فأذن بلال وكان قد انقطع عن الأذان، فأحيا في نفوس الذين أدركوا رسول الله ﷺ عهداً جميلاً عظيماً، وبكى بعضهم، بل جميعهم، ولما تمت الصلاة عاد عمر إلى المدينة، وكانت رحلته هذه هي آخر رحلة لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه خارج شبه جزيرة العرب.

وفاة عمر

«اللهم كبرت سني، ورق عظمي، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط»(١).

قال عمر رضي الله عنه هذه الكلمات حين عودته من آخر حجة حجّها، فقد كان رضي الله عنه يحج كل عام، وفي هذه الحجة التي كانت في السنة الثالثة والعشرين للهجرة، وحج معه أزواج رسول الله ﷺ، فلما قضى مناسكه وأفاض من منى، أناخ بالأبطح فكوّم كومة من بطحاء ألقى عليها بطرف ثوبه؛ ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء ودعا بدعائه هذا الذي افتتحنا به هذه الفاجعة فقال: «اللهم كبرت سني، ورق عظمي، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم!».

ومهما يكن من اختلاف لفظ الرواية، فإن عمر رضي الله عنه لا بد وأنه شعر بريب الوهن في جسمه، فكان يستعجل لقاء ربه.

وروى ابن سعد أنّه لم يلبث حين نزل المدينة عائداً من حجه أن خطب الناس يوم الجمعة، فذكر نبي الله وذكر أبو بكر ثم قال: أيها الناس! إني أُريت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلي، رأيت ديكاً أحمر نقرني نقرتين.

وقال أيضاً: أيها النّاس قد فُرِضَتْ لكم الفرائض، وسنّت لكم السنن، وتُركتم على الواضحة، إلا أن تَضِلُّوا بالناس يميناً وشمالاً.

وقيل: إنه رضي الله عنه حين رأى في منامه أن ديكاً أحمر نقره نقرتين فقصها على أسماء بنت عميس رضي الله عنها، فأوَّلتها له بأنه سيقتله رجل من الأعاجم(٢)، فأحس بدنو أجله حتى كان يقول: «اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، وموتاً في بلد رسولك»(٣).

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٣٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٣/٣٣٤.

(٣) البداية والنهاية ٧/١٣٧.

وما كان اغتيال عمر إلا مؤامرة دبرها موالي الفرس، حينما شعروا بأن عمر قد دمّر بلادهم، وأسر ذراريهم، وسبى نساءهم، وكانوا كلما رأوا الأطفال من بني جنسهم يمشون في شوارع المدينة، ينظرون إليهم تملؤهم الحسرة عليهم، وكان أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة بن شعبة ـ وهو من «نهاوند» ـ، كان من أكثر الموالي حقداً على عمر، حتّى أنه كان إذا مرَّ به الأطفال من أبناء بلده ـ نهاوند ـ يمسح رؤوسهم بيده ويبكي ويقول: إن العرب أكلت كبدي[1].

وهنا تبدو دوافع القتل واضحة على أبي لؤلؤة المجوسي، وقد ذكرت بعض الروايات ما يشير إلى مؤامرة خبيثة دُبرت لاغتيال عمر رضي الله عنه، فقد رُوي أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه لما رأى الخنجر الذي قُتِلَ به عمر قال: رأيت هذا أمس مع الهرمزان وجفينة، فقلت: ما تصنعان بهذه السكين؟؟

فقالا: نقطع بها اللحم، فإنا لا نمس اللحم[2].

ويقول عبدالرحمن بن أبي بكر: مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى، فلما بغتهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب في وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذي نعته عبدالرحمن[3].

تبين للمسلمين من كل هذا أن هناك مؤامرة دبرت بين هؤلاء الثلاثة: الهرمزان وجفينة وأبو لؤلؤة.

فقد يكون هذا الاستنتاج صحيحاً لو استعرضنا كلاً من الثلاثة وقصته مع الإسلام والمسلمين.

(١) **الهرمزان**: فارس شديد التعصب ضد العرب، وقد عاهده

---

(١) الطبقات لابن سعد ٣/٣٤٧.

(٢) الطبقات ٣/٣٥٠.

(٣) المصدر السابق ٣/٣٥٥.

المسلمون مرات، وفي كل مرة كان ينقض العهد، وأسلم خوفاً من القتل والسيف.

فقد جيء به بعد استسلامه إلى المدينة للقاء أمير المؤمنين عمر، فرأى عمر قائماً في المسجد، فسأل: أين حُجّابه، وأين حرّاسه؟

فقالوا: ليس له حجاب ولا حرس.

فقال: ينبغي أن يكون نبياً.

فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء.

واستيقظ الخليفة فرأى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟

قال: نعم.

فنظر عمر إليه، وتأمل ما يلبسه من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلى ثم قال: أعوذ بالله من النار وأستعين به، الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، والتفت إلى الهرمزان وقال: يا هرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟

وسأله الخليفة، ما عذرك وما حجتك في إنقاضك العهد مرّة بعد مرّة؟

أجاب الهرمزان: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك.

فقال عمر: قل ولا تخف ذلك، ولكن الهرمزان لم يقل شيئاً.

واعتبر الهرمزان قول عمر تأميناً له من القتل، وغضب عمر واعتبرها خدعة خدعه بها الهرمزان وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلاّ أن تسلم.

وعندئذ أسلم الهرمزان، لأنه أيقن أنه إن لم يسلم سيقتل، فدخل الإسلام[1].

(٢) **جفينة**: كان رجلاً نصرانياً، وكان صديقاً لسعد بن أبي وقاص،

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٨٧/٧، ٨٨.

أقدمه المدينة لما كان يستملحه من حديثه، وكان جفينة يُعلِّم الكتاب بالمدينة[1].

عاش هذا الرجل في المدينة، وخالط كبار الصحابة ولكنه ظل متمسكاً بدين النصارى، مما يدل على أنّه ربما لم يضمر خيراً للمسلمين.

(٣) **أبو لؤلؤوة:** هو فيروز النصراني، غلام المغيرة، وكان فارسياً، أشر في نهاوند ثم وقع في ملك المغيرة بن شعبة.

هؤلاء هم الذين تدل الشواهد على أنهم أعدوا مؤامرة قتل عمر رضي الله عنه، فالهرمزان وجفينة شاركا في التدبير وحثا أبو لؤلؤة على تنفيذ المؤامرة الخبيثة والتي قتل فيها أمير المؤمنين عمر.

ـ كيف قتل عمر؟

خرج عمر من منزله قبل مطلع الشمس من يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة، يؤم النّاس لصلاة الفجر، وكان يوكّل رجالاً في المسجد بالصفوف يسوونها قبيل الصلاة، فإذا استوت جاء هو فنظر إلى الصف الأول، فإذ رأى فيه متقدماً أو متأخراً علاه بالدرة، حتى إذا انتظم الجميع في أماكنهم كبَّر للصلاة.

ودخل في تلك الساعة من ذلك اليوم ولما يكد يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ولما أراد أن يبدأ بتكبيرة الإحرام إذا رجلٌ ظهر فجأة قبالته، فطعنه بخنجره ثلاث طعنات أو ست طعنات، إحداها تحت سُرَّته، وأحسَّ عمر حرَّ السلاح، فالتفت إلى المصلين باسطاً يديه يقول: «أدركوا الكلب فقد قتلني».

وكان الكلب أبا لؤلؤة النصراني فيروز غلام المغيرة، وكان فارسياً، أُسر في نهاوند كما ذكرنا ووقع في ملك المغيرة بن شعبة[2].

---

(١) الطبقات ٣/٣٥٦.

(٢) الطبري ١٩١/٤، وطبقات ابن سعد ٣٤٧/٣، ٣٤٨.

وكان قد اختبأ في أحد أركان المسجد، حتى إذا بدأت الصلاة ارتكب فعلته، ثم اندفع يريد الفرار نجاةً بنفسه، وماج الناس مضطربين، وأقبل كثيرون منهم على الخبيث يريدون القبض عليه والتنكيل به، ولم يدعهم فيروز يأخذون بتلابيبه بل جعل يطعنهم يمنة ويسرة حتى طعن اثني عشر رجلاً، مات منهم ستة على قول وتسعة على قول آخر. ثم اجتمع عليه رهط من قريش، عبدالله بن عوف الزهري، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ورجل من بني سهم، وطرح عبدالله بن عوف على المجرم خميصة - ثوباً أسود - فتعثر فيه ووقع على الأرض، فلما رأى نفسه مقبوضاً لا محالة، طعن نفسه بالخنجر حتى مات، واحتز عبدالله بن عوف رأسه[1].

وسقط الخليفة على الأرض بين أيدي المسلمين، والمسلمون في هرج ومرج، وصاح الخليفة، أفي القوم عبدالرحمن بن عوف؟

قالوا: نعم يا أمير المؤمنين هو ذا.

قال: قولوا لعبدالرحمن بن عوف فليصل بالناس[2].

فصلى بهم بأقصر سورتين في القرآن العصر والكوثر.

وقيل: بل ماج الناس بعضهم في بعض لمصاب عمر ومصاب الذين طُعنوا من حوله، واشتدَّ اضطرابهم حين رأوا عمر محمولاً إلى داره في جوار المسجد، وظلوا في مرجهم واضطرابهم حتى قال قائل: الصلاة عباد الله، قد طلعت الشمس؟ فدفعوا عبدالرحمن بن عوف فصلى بأقصر سورتين.

ثم دعا عبدالله بن عباس وقال له: اخرج يا عبدالله بن عباس فسل من قتلني.

وخرج ابن عباس فسأل الناس: من طعن أمير المؤمنين؟

---

(١) الطبقات لابن سعد ٣٤٧/٣.

(٢) تاريخ الطبري ١٩١/٤.

فقالوا: طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة.

ودخل ابن عباس على عمر فأخبره الخبر.

فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط، ما كانت العرب لتقتلني[1].

وجاء الطبيب بناءً على طلب عمر حين قال: أرسلوا إليّ طبيباً ينظر إلى جُرحي هذا.

وحضر الطبيب، ثم قال: اعهد يا أمير المؤمنين ـ أي أنه لن يبرأ من طعنته ـ.

فقال عمر: صدقتني، ولو قلت غير ذلك لكذبتك.

وبكى الحاضرون لما سمعوا تقرير الطبيب، ونهى عمر عن البكاء حوله، وقال: من كان باكياً فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ **«يعذب الميت ببكاء أهله عليه»**.

ولما سقي عمر اللبن خرج من جرحه أبيضاً كما شربه، فلما رأى عمر بياضه أحسَّ بدنو أجله، فبكى.

فقال الصحابة: وما أبكاك؟

قال: هذا حين! لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع، وما أبكاني غيره.

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمين، والله إن كان إسلامك لنصراً، وإن كانت إمامتك لفتحاً، والله لقد ملأت إمارتك الأرض عَدْلاً، ما من اثنين يختصمان إليك إلا انتهيا إلى قولك.

فقال عمر: أجلسوني، فلما جلس قال لابن ع
كلامك، فلما أعاد عليه قال: أتشهد لي بذلك عند الله يوم

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٤٥، ٣٤٦.

فقال ابن عباس: نعم.

ففرح عمر بذلك وأعجبه[١].

وروى ابن الأثير أنّه قال لابنه عبدالله: «خذ رأسي عن الوسادة فضعه في التراب لعل الله ينظر إليَّ فيرحمني»[٢].

والتفت عمر إلى ابنه عبدالله وقال له: «اقتصدوا في كفني، وأقصدوا في حضرتي، ولا تخرجن معي امرأة، ولا تزكوني بما ليس فيَّ، فإن الله هو أعلم بي، وإذا خرجتم بي فأسرعوا في المشي، فإنه إن يكن لي عند الله خير قدمتموني إلى ما هو خير لي، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه»[٣].

وألح الناس على الخليفة عمر بن الخطاب أن يستخلف، فتمنى لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا لاستخلفه، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفه، وقال لعبدالرحمن بن عوف: إني أريد أن أعهد إليك.

وقال عبدالرحمن: أتشير عليَّ بذلك؟

قال عمر: اللهم لا.

قال عبدالرحمن: والله لا أدخل فيه أبداً.

قال عمر: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً فقال: انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم[٤].

وكان على عمر ديناً لبيت مال المسلمين قدره ثمانين ألفاً، فدعا ابنه عبدالله وقال له: بع فيها أموال عمر، فإن وفت وإلا فسل فيها بني عدي، فإن وفت وإلا فسل قريشاً ولا تعدهم.

---

(١) المصدر السابق ٣/٣٥٤، ٣٥٥.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/٥٢.
(٣) طبقات ابن سعد ٣/٣٥٩.
(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/٥٠.

قال عبدالرحمن بن عوف: ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤديها؟

فقال عمر: معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدي: أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر فتعزوني بذلك، فتتبعني تبعته، وأقع في أمر لا ينجيني إلاّ المخرج منه.

والتفت إلى ابنه وقال: اضمنها؟!

فضمنها، ولم يدفن عمر حتى أشهد بها ابن عمر على نفسه أهل الشورى وعدّة من الأنصار، وما مضت جمعة بعد دفن عمر حتى حمل ابن عمر المال إلى عثمان بن عفّان، وأحضر الشهود على البراءة بدفع المال[1].

ودعا عمر رضي الله عنه ولده عبدالله فقال له: يا بني!! إني قد أرسلت إلى عائشة أستأذنها أن أُدفن مع أخوي، فأذنت لي، وإني أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان، فإذا أنا مت فاغسلني وكفني ثم احملني حتى تقف بي على باب عائشة فتقول: هذا عمر يستأذن، فإن أذنت لي فادفني معهما، وإلا فادفني بالبقيع[2].

وظل عمر رضي الله عنه، يعاني من الطعنات ثلاثة أيام أو أربعة، فقد طعن يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة، ومات يوم الأحد صبيحة هلال المحرم وذلك بعد مضي اثنان وعشرين سنة وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وبضع ليال. وصلى عليه صهيب، ودفن في حجرة عائشة مع صاحبيه رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة على الأرجح[3].

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٣.

(٣) تاريخ الطبري ٤/١٩١، طبقات ابن سعد ٣/٣٦٤، ٣٦٥.

رواية عن كعب

روى الطبري[1] وابن الأثير فيما يخص مؤامرة قتل عمر: «أن عمر خرج يوماً إلى السوق بعد عوده من حجه يطوف بالسوق، فلقيه أبو لؤلؤة فقال له: يا أمير المؤمنين أعِدني على المغيرة بن شعبة فإن عليَّ خراجاً كثيراً.

قال عمر: وكم خراجك؟

قال: درهمان في كل يوم.

قال عمر: وما صناعتك؟

قال: نجارٌ، نقاش، حداد.

قال عمر: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت!

قال: نعم.

قال عمر: فاعمل لي رحى.

قال: لئن سَلِمتُ لأعملن لك رحى يتحدث بها مَنْ بالمشرق والمغرب! ثم انصرف عنه.

قال عمر: لقد توعدني العبد آنفاً!

وعاد عمر إلى منزله، فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين اعْهَدْ فإنّك ميت في ثلاثة أيام.

وكان كعب هذا من كبار أحبار اليهود في عهد النبي ﷺ، وكان يتردد عليه مظهراً ميلاً إلى الإسلام، مرجئاً إعلان إسلامه حتى يتحقق من كل الإمارات التي يجدها في كتب قومه عن النبي العربي وأصحابه، فلما انتهى أمر الخلافة إلى عثمان أعلن إسلامه.

---

(١) الطبري ٤/١٩١.

وعجب عمر لنذير كعب، فسأله: وما يدريك؟؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل: التوراة.

ودهش عمر لهذا الكلام فقال: الله! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟!

قال كعب: لا، ولكني أجد صفتك وحليتك، وإنه قد فني أجلك.

وإذ كان عمر لا يحسُّ وجعاً ولا ألماً زادت دهشته لهذا الحديث، ثم لم يعره عناية خاصة.

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين، ذهب يوم وبقي يومان.

وفي الغداة من ذلك اليوم قال له: ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها.

وفي فجر الغداة طعن أبو لؤلؤة عمر طعناته المميتة.

هذه هي الرواية التي أثارت جدلاً بين المؤرخين، فمنهم[1] من ذكر أن كعباً كان رجلاً مطيعاً لرسول الله ﷺ حتى أنه لما قال عليه السلام: **«لا يقص إلاّ أمير أو مأمور أو محتال»** ترك القصص.

وهذا يدل على ورع كعب الأحبار والتزامه بما يجب أن يكون عليه المسلم.

وقد أثنى المسلمون على علم كعب الأحبار، فأبو الدرداء يقول عن كعب: إن عند ابن الحميريّة لعلماً كثيراً.

ومعاوية يقول: ألا إنّ كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عنده لعلم البحار، وإن كنا فيه لمفرطين.

وقال معاوية: إنه كان لمن أصدق المحدثين عن أهل الكتاب.

---

(١) الدكتور محمد السيد الوكيل في كتابه جولة تاريخية.

وقد اقتصرت رواية كعب هذه على الطبري، وابن الأثير الذي نقلها فيما يبدو عن الطبري، فلم تروَ في تاريخ الخلفاء، وفي تاريخ الإسلام السياسي وغيرها من كتب التاريخ.

وابن كثير يقول: إن وعيد أبي لؤلؤة كان عشية يوم الثلاثاء، وإنه طعنه صبيحة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة![1].

فإذا كانت هذه هي الساعات المعدودة، فكيف يكون كعب على علم بالمؤامرة؟؟

وينفي بعض المؤرخين اطمئنانهم لهذه القصة، أما هيكل فيقول: «والذي نستطيع أن نستخلصه من حديث أبي لؤلؤة مع عمر، ومن قصة كعب، أن الفارسي توعد أمير المؤمنين، وأن اليهودي (كعب) عيَّن الموعد الذي تم فيه القتل قبل حدوثه بثلاثة أيام، وما أخال أحداً يظن أن الكتب السماوية تعلن الأحداث التي تقع لأفراد الناس بمثل هذه الدقة، فهذه الكتب كلها تُرجع علم الغيب إلى الله وحده، لا بد إذاً أن يكون كعب عرف سر ما كان يجري، فوجه النذير إلى عمر، وأغفل عمر أمر هذا النذير بعد أن توعده أبو لؤلؤة بما توعده به، فحدث ما حدث، ونذير كعب وطعنات أبي لؤلؤة تدل على أن في الأمر سرّاً لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة، لكنه ظهر من بعد»[2].

بقي أن نقول أن عمر قد مات، وطويت بوفاته صفحة العدل الذي يعتز به المسلمين، بل طويت صفحة من أنصع صفحات تاريخ المسلمين رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) ابن كثير ١٣٧/٧.

(٢) هيكل الفاروق عمر ص ٢٨٠.

عثمان بن عفان

من هو عثمان

ولد عثمان في بيتٍ جميلٍ، فسيحٍ، يدل على ثراء أهله، ويقع في مدينة الطائف، جنة الحجاز وروضته النضِرة، فهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّةَ بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي الأُموي[1].

ولد في السنة السادسة من عام الفيل.

أُمه أروى بنت كريز بن ريعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وقد أدركت الإسلام وأسلمت.

وجدَّته لأُمِّه: البيضاء ـ أم حكيم ـ بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

وكان في الجاهلية والإسلام يكنى أبا عبدالله وأبا عمرو، كنيتان مشهورتان، إلا أن أبا عمرو أشهر[2].

هاجر عثمان الهجرتين، الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة، وسُمي بذي النورين رضي الله عنه لأنّه تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٤٧.

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة ٣/٥، ٦.

فماتت عنده، فزوّجه رسول الله ﷺ بعدها أختها أُم كلثوم.

ويقول السيوطي رحمه الله في تاريخ الخلفاء[١] عن هذه التسمية:

قال العلماء: ولا يعرف أحدٌ تزوج بنتي نبيٍ غيره، ولذلك سمي ذا النورين، فهو من السابقين الأولين، وأوّل المهاجرين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن، بل قال ابنُ عباد: لم يجمع[٢] القرآن من الخلفاء إلاّ هو والمأمون[٣].

نشأ عثمان في الطائف وترعرع تحت سمائها، وتمتع بنسيمها الهادىء، فأصبح هادىء الطبع، لطيف السمات.

ولحب الناس لعثمان كانت النسوة في مكة يغنين لأبنائهن أرجوزة جميلة تقول: أحبك والرحمن، حب قريشٍ عثمان.

إلى هذا الحد كان عثمان محبوباً لعامة الناس من قريش في مكة، فكان اسمه يقرن بأحب إنسان لإنسانٍ آخر، إنّه حبُّ الأُم لوليدها!![٢]

صفاته

وإذا أردنا أن نكمل الصورة عن صفات هذا الرجل العظيم ذي النورين عثمان رضي الله عنه، فلا بد أن نثبت ما جاء في وصفه على لسان أحد الرواة.

يقول المحب الطبري[٤]: كان رضي الله عنه رجلاً ربعة ليس بالقصير ولا الطويل، حسن الوجه.

---

(١) ص ١٤٨.

(٢) المراد: لم يجمعه حفظاً عن ظهر قلب، أو لم يجمعه في مصحف، وإلاّ فإن السابق إلى جمع القرآن هو أبو بكر الخليفة الأول.

(٣) انظر: العشرة المبشرون بالجنة، عبد المنعم الهاشمي، دار الوفاء ـ مصر، الطبعة الرابعة.

(٤) الرياض النضرة ٦/٣.

ويقول السيوطي[1]: كان رجلاً ربعة، ليس بالقصير، ولا الطويل، حسن الوجه، أبيض، مشرباً بحمرة، بوجهه نكتات حُدَريٍّ، كثير اللحية، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، خدْلُ الساقين، طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه، جعد الرأس، أصلع، أحسن الناسِ ثغراً، جمَّتهُ أسفل من أُذنيه، يخضب بالصفرة، وكان قد شدَّ أسنانه بالذهب.

ونكتفي بهاتين الروايتين لكثرة ما جاء عن صفته في كتب السِّير، وننتقل من هذا الإطار عن صفاته، وكنيته ومولده، إلى يوم إسلامه المبارك، فلقد كان عثمان من السابقين، فهو خامس خمسة دخلوا الإسلام.

إسلامه

كان عثمان في الجاهلية رجلاً عصامياً ناجحاً في تجارته، حتى امتلأت طرقات رحلة الشتاء والصيف بقوافله التي تحمل البضائع من كل حدب وصوب، وقد امتلأت خزائنه بالمال، ففاض به على من حوله من أصحاب الحاجة، فازداد حُبهُ في قلوب النَّاس.

إلى جانب كل هذا فقد التزم عثمان رضي الله عنه بالخلق القويم، فابتعد عن مجالس اللهو والخمر، ولما حان الموعد الحقُّ، وبزغ نورُ الدعوة، كان خامس خمسة أسلموا.

ويتحدث عثمان رضي الله عنه في شأن إسلامه فيقول[2]:

كنت رجلاً مستهتراً بالنساء، وإني ذاتِ ليلةٍ بفناء الكعبة قاعد في رهط من قريش، إذ أَتينا؛ فقيل لنا؛ إنَّ محمداً قد أنكح عتبة بن أُبي لهبٍ رقيَّة ابنته، وكانت رقية ذات جمالٍ رائعٍ، وأضاف عثمان: فدخلتني الحسرة، لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك! فلمْ ألبث أن انصرفت إلى منزلي، فوجدت خالة لي جالسةً، وهي سعدى بنت كريز، وكانت قد طرقت وتكهنت عند قومها، فلما رأتني قالت:

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٠.

(٢) وردت القصة في الرياض النضرة ٣/٧، ٩.

أَبشر وحييت ثلاثاً تترى ... أتاك خير ووُقيتَ شرّا
أُنكِحْتَ والله حصاناً زهرا ... وأنت بكرٌ ولقيت بِكْرا
وافيتها بنتَ عظيمٍ قَدْرا ... بنت امرئٍ قد شادَ ذِكرا

قال عثمان: فعجبت من قولها، فقلت: يا خالةُ ما تقولين؟؟

فقالت:

يا عثمان لك الجمال ولك اللسانُ ... هذا نبيٌّ معهُ البُرْهانُ
أرسلَهُ بحقّهِ الدَّيانُ ... فاتبعْهُ لا تغتالُكَ الأَوثانُ

قال عثمان: يا خالة إنَّك لتذكرين شيئاً ما وقعَ ذكره في بلدنا، فأبينيه لي.

قالت: محمد بن عبدالله، رسول من عندِ الله، جاء بتنزيل الله، يدعو إلى الله.

ثم قالت: مصباحهُ مصباحٌ، ودينهُ فَلاَحٌ، وأَمرُهُ نجاحٌ، وقرنه نطاح، وأنت له البطاح.

قال عثمان: ثم انصرفت ووقع كلامها في قلبي، فجعلت أفكر فيه، وكان لي مجلسٌ عند أبي بكر، فأتيته وليس عنده أحد فجلست إليه، فرآني مفكراً، فسألني عن أمري، وكان رجلاً متأنياً، فأخبرته بما سمعتُ من خالتي.

فقال: ويحك يا عثمان! إنَّكَ لرجلٌ حازمٌ ما يخفى عليك الحقُّ من الباطِلِ، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومُنا!! أليست من حجارة صُمٍّ لا تسمع ولا تبصرُ؟

قلت: بلى، والله إنها كذاك!

فقال أبو بكر: والله لقد صَدَقَتْكَ خالتُكَ، هذا رسول الله محمد بن عبدالله قد بعثه الله تعالى برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه فتسمع منه؟

قلتُ: بلى!!

قال عثمان: فوالله ما كانَ أسرَعُ من أَنْ مَرَّ رسول الله ﷺ ومعه عليٌّ بن أبي طالب يحمل ثوباً، فلما رآه أبو بكر قام إليه فسَارّه في أُذنه، فجاء رسول الله ﷺ فقعد، ثم أقبلَ عليَّ فقال: **«يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإنّي رسول الله إليك وإلى خلقه»**.

قال عثمان رضي الله عنه: فوالله ما تمالكتُ حين سمعت قوله أن أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﷺ.

ولما علمتْ سُعدى بنتُ كريز خالة عثمان بإسلامه أنشدت تقول:

هدى الله عُثماناً بقولي إلى الهُدى ... وأرشده والله يهدي إلى الحق
فتابع بالرأي السديد محمداً ... وكان برأي لا يُصدُّ عن الصِّدْقِ
وأنكحه المبعوث بالحقّ بنتهُ ... فكان كَبَدْرٍ مازجَ الشمس في الأُفقِ
فدى لك يا ابن الهاشميين مهجتي ... وأنت أمين الله أُرسلت للخلقِ

هكذا انضم عثمان إلى قافلة الإيمان في مكة، وبدأ يجاهدُ في معركةِ الدعوة، دعوةِ الحقِّ والعدل.

ولم ينته الأمر عند إسلامه وإعلان ذلك أمام رسول الله ﷺ والالتزام به، وإنما كانت البدايةُ بدايةَ جهادِ عثمان مع عمِّهِ الحكم بن أبي العاص بن أُميَّةَ، فقد كان رجلاً عنيفاً فظًّا غليظَ القلب، فعندما علِمَ بإسلام عثمان بن عفان أخذهُ فأوثقهُ رِباطاً، وقال لهُ في عنفٍ وغلظةٍ: أترغبُ عن ملَّةِ آبائك وأجدادِك إلى دينٍ مُحْدَثٍ؟

والله لا أُحِلُّ رباطكَ أبداً حتى تَدَعَ ما أنت عليه من هذا الدين!!.

فقال عثمان في إصرارٍ وتحدٍّ واضحٍ: يا عمُّ، والله لا أَدَعُهُ أبداً ولا أُفارقه[1].

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ٣/٥٥.

رأى الحكمُ صلابة ابن أخيه، وإصراره على رأيه، فلم يشأ أن يتمادى في مواجهته، وقد كان محبوباً لدى أعمامه وأهلِهِ وذويه، بل وأهل مكة جميعاً، ورأى أَنَّ من الحكمة أن يترك الفَتَى وشأنه، فإنّه في هذا العمر قادر على التحدي، وكُلّما اشتدَّ الضغط عليه، زادَ إصرارُهُ وَعنادُهُ، وتمسَّكَ بهذا الأَمر، ولو كلَّفه حياتَهُ، فتركه وشأنه، وكان إيمان عثمان أكبر من عنادِ فتى وإصرارِ شابٍّ جامحٍ، وإنما هي تقوى القلوب.

هجرته إلى الحبشة

نزل بالمسلمين الأذى، وزادت قريش في تعذيبها للمستضعفين منهم، ولما رأى رسول الله ﷺ ما نزل بالمسلمين من استمرار وتتابع الأذى عليهم من كفار قريش مع عدم قدرته ﷺ على إنقاذهم والذود عنهم، قال لهم ﷺ: «**اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**»[1].

فهاجر الناس خوفاً من الفتنة، وفراراً إلى الله تعالى بدينهم.

وكان عثمان بن عفّان رضي الله عنه ممن هاجر فارّاً إلى الله تعالى بدينه، هاجر ومعه زوجته رقية بنت النبي ﷺ، وكانت رقية رضي الله تعالى عنها ذات جمالٍ بارع، وكذا عثمان رضي الله تعالى عنهما، ومن ثم كانت النساء تغنينها بقولهن:

أحسن شيءٍ قد يرى إنسانُ   رقية وبعدها عثمان

وقد خرج عثمان ورقية رضي الله عنهما، ومعهما عدد كبير مثل أبي سلمة ومعه زوجته أمُّ سلمة رضي الله عنها، وقد ذكرت بعض الروايات أن عددهم كان فوق الثمانين ما بين رجال ونساء[2].

---

(١) انظر: السيرة الحلبية، ط دار المعرفة ٣/٢.

(٢) هذا العدد ورد في السيرة الحلبية، لكن ابن سعد في الطبقات قال: أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، ولم يذكر من النسوة أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ.

ويروي ابن سعد في طبقاته عن خروجهم إلى الحبشة فيقول: فخرجوا متسللين سرّاً، وكانوا أحَدَ عشر رجلاً وأربع نسوةٍ، حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب ومنهم الماشي، ووفّق الله تعالى المسلمين ساعة جاء سفينتين للتجّار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة[1].

وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نُبِّىءَ رسول الله ﷺ.

وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحرَ، حيث ركِبَ المهاجرون السفينتين، فلم يدركوا منهم أحداً.

وقد قال النّاس فيما بعدُ عن هجرتهم إلى الحبشة: قدمنا أرض الحبشة، فجاورنا بها خيرَ جارٍ، أمِنّا على ديننا، وعَبَدْنَا الله، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه.

هجرة الحبشة الثانية

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر، أسلمَ أثناءها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد بلغ مهاجري الحبشة ما حدث على أثر إسلامه رضوان الله عليه، فعاد بعضهم بعد أن أسلم عمرُ، وقد نصر الإسلام بمثل الحمية والشجاعةِ التي كان يحاربُ بها المسلمين قبل إسلامه.

ولكنهم حينما عادوا وجدوا قريشاً قد ازدادت في عنادها وبطشها، بل واتجهت إليهم بصفةٍ خاصَّةٍ، فاشتدت عليهم، وسلطت عليهم عشائرهم، فلقوا منهم أذىً شديداً، فأذنَ لهم الرسول ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرّة ثانيةً، فكانت خرجتهم الثانية أعظم مشقة من الأولى، فقد لقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى، واشتد على قريش ما بلغهم عن النجاشي من حُسْن جوارِهِ.

فلما أمر رسول الله ﷺ عثمان بالهجرة، قال عثمان رضي الله عنه: يا

---

(١) الطبقات ٢٠٤/١ ط دار صادر بيروت.

رسول الله!! فهجرتنا الأُولى هذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا؟؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً**»[1].

فقال عثمان رضي الله عنه: فحسبنا.

فخرج مهاجراً هجرته الثانية إلى الحبشة.

مع الرسول ﷺ في المدينة

لما أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، هاجر عثمان رضي الله عنه إليها، وترك ماله الكثير في مكة، غَيْرَ نادم على ما فقد، فقد امتلأ قلبه بنور الإيمان، ووحدانية الخالق. ولم تتوقف تجارته ولا بيعهُ وشراؤه، بل جاهد في سبيل الله بأمواله كما جاهد بنفسه، وهاجر إلى الله ورسوله، وقد استطاع عثمان رضي الله عنه، رغم ما ترك في مكة من أموال أن يعيد عجلة البيع والشراء، وقد تسلحَ بالصدق والأمانة فكان له الفلاح والنجاح.

وفي العام الثاني للهجرة خرج الرسول ﷺ بأصحابه إلى بدر، بينما كانت رُقَيَّةُ مريضةً، واشتدَّ عليها المرض فأذن رسول الله ﷺ لعثمان أن يبقى بالمدينة لتمريض رقية رضي الله عنها.

وما إن عادَ رسولُ الله ﷺ من معركة بدر منتصراً مستبشراً بما أفاء الله عليه من نصر لدعوتِه، وذُلٍّ لأشرافِ قريش الذين كفروا وضلّوا، ما إن عادَ عليه الصلاة والسلام إلى المدينة حتى عَلِمَ أنَّ رُقيَّة قد ماتت، فتألم لفقدها وحزن عليها.

وجاء عثمان إلى رسول الله ﷺ باكياً، وهو يقول: يا رسول الله خفتُ أن ينقطع صهري مِنْكَ.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٠٧/١.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**هذا جبريل يأمرني بأمر الله عز وجل أن أزوجك أختها أمَّ كلثوم**»[١].

سكن عثمان وذهب عنه الحزن والهم، وتزوج أم كلثوم على صداق أُختها، وعلى مثل صحبتها رضي الله عنهما.

صفاته وشمائله

عاش عثمان رضي الله عنه بصحبة رسول الله ﷺ في المدينة، يذود عن دينه بماله ونفسه، وكان له من الخصال والشمائل الكثير الذي لا يحصى ولا يعد، فقد كان عثمان رجلاً رفيع الخلق لطيفاً، يمتلىءُ وجههُ بالحياء، وقد كان لحيائه قصة مع رسول الله ﷺ تتحدث عنها عائشة فتقول:

كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيته، كاشفاً عن فخذيه أو عن ساقيه، فاستأذَن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه، فدخل فتحدث، فلمّا خرج، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله!! دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تبال به، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تبال به، ثم دخل عثمان فجلست وسوَّيت ثيابك!!؟

فقال النبي ﷺ: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»[٢].

بئر رومة

عندما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة وجدوا أن الماء يكاد يكون المشكلة الأُولى التي تواجههم، وكان لرجل من بني غِفار عين يقال لها: بئر رومة، وكان يبيع منها القِربةَ بدراهم للناس، فقال له الرسول ﷺ: «**تبيعها بعين في الجنة؟**».

---

(١) الرياض النضرة ١١/٣.

(٢) الرياض النضرة ١٣/٣، ورواه المحب الطبري عن أحمد ومسلم.

فقال: يا رسول الله!! ليس لي ولا لعيالي عينٌ غيرها، لا أستطيع ذلك.

بلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: اجعل لي مثل الذي جَعلْتَ له عيناً في الجنة.

قال: «نعم».

قال عثمان: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين.

وفي رواية أخرى أنها كانت ليهودي، فساومه عثمان، فرفض البيع، فاشترى عثمان نصفها فجعله للمسلمين، واتفق على أن يكون لليهودي يوم ولعثمان يوم يشرب فيه المسلمين.

فكان إذا جاء يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فاحتج اليهودي الذي كان يحب جمع المال من وراء البئر كي يرضي رغبته الجامحة في الاستحواذ على أموال المسلمين وتخزينها واستغلال حاجتهم، قال الرجل لعثمان: أفسدت عليَّ ركيتي!!

فاشترى عثمان رضي الله عنه النصف الثاني من اليهودي ووهبها للمسلمين[1].

كل ما هنالك أنَّ الروايات أجمعت على شراء عثمان هذه البئر وإهدائها للمسلمين، فكانت فيضاً من غيث، فاض به عثمان رضي الله عنه على إخوانه في الدعوة، الذين سبقت كلمتهم، فكانوا من المهاجرين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

في يوم العُسْرة (تبوك)

ومآثر عثمان أضواء تنيرُ الطريق، وقدوةٌ حسنةٌ تفوح بعطرها على مرِّ الزمان، وجهاده الأكبر تجلّى، ووصل ذروته يوم عُسْرَة المسلمين، فكان نِعْمَ المسلم الغني، تمثلت فيه أمانةُ العبد الشكور، فكان مالُهُ وسيلةً لنصرة

(١) انظر الرياض النضرة ١٨/٣ ـ ١٩.

الحق، فلم يحتفظ به، بل ودَّعهُ قبل أنْ يودَّع منه، فالمالُ يكون أولَ مودعٍ لصاحبه، بل هو أسرعُ عَرَضٍ من أعراض الدنيا يتخلى عنْ صاحبه، ويبقىَ العمل الصالح في صحبة صاحبه بدءاً من القبر وحتّى البعث والنشور.

كان يوم تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة، وكان يوم عسرة وحاجة، أمر الرسول ﷺ النّاس بالجهاز، وأخبرهم مباشرة أنّه يريد غزو الروم الذين جمعوا لمحاربته، ووصلت مقدمتهم إلى البلقاء وهي أرض بالشام.

أمر عليه السلام الناس بالتجهز، فتجهزوا، وقد أصابهم جزع وكراهية لما عرفوه من كثرة عدوهم، وضعف عتادهم، وقد بدا ذلك واضحاً على وجوه الناس.

وبدأ عليه الصلاة والسلام يعرف الجوَّ النفسي للناس، فها هو الجد بن قيس يأتيه فيقول: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عَرَف قومي أنّه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ـ يقصد نساء الروم ـ ألاّ أصبر.

فأعرض عنه الرسول ﷺ وقال: «**قد أذنت لك**»، وفيه نزل قول الله عز وجل في سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

وفي بيت رجل يهودي يسمى سويلم، جلس المنافقون يثبطون النّاس عن الخروج مع رسول الله ﷺ في الغزو، ويقولون لهم: لا تنفروا في الحر.

فنزل قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

عند ذلك أرسل الرسول ﷺ طلحة بن عبيد اللّه رضي الله عنه في نفر من أصحابه ليخربوا مجلس النفاق هذا، فنفَّذ طلحة بن عبيد اللّه رضي الله عنه وأصحابه أمر رسول الله ﷺ، وقضى على وكر النفاق والفساد.

وتفرغ الرسول ﷺ للتهيؤ للسفر، وأمر النّاس بالإسراع، وحضَّ أهل الغنى على التبرع بالمال في سبيل الله.

كان عثمان رضي الله عنه في هذه اللحظة من السبّاقين إلى الجهاد بماله، فما إن حثَّ ﷺ المسلمين على التبرع حتى وقف عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال: علي مائة من الإبل بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

ثم حضَّ النبي ﷺ على التبرع، فوقف عثمان قائلاً: علي مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

ثم حضَّ النبي ﷺ مرة ثالثة، فقال عثمان رضي الله عنه: يا رسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

واختلفت الرواياتُ في وصف هذا المشهد من عظمة وندرة هذا العمل بين النَّاس في وقت العسرة، فقد قيل: جهَّزَ عثمان جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً، وأتم الألف بخمسين فَرَساً.

وقال ابن شهاب الزُّهريّ: حمل عثمان بن عفان في غزوة تبوك (العسرة) على تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتمَّ بها الألف[1].

ودعا رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه فقال: «**غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة**».

ثم قال ﷺ: «**ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**».

يوم الحديبية

رأى النبي ﷺ في منامه أنّه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وطاف هو وأصحابه واعتمر.

ولما كان الصبحُ أخبر النبي ﷺ أصحابه بما رأى، ففرحوا لذلك، وأخبرهم أنَّهُ يريد الخروج للعمرة فليستعدوا وليتجهزوا للسفر، فتجهزوا.

---

(١) أورد هذه الروايات المحب الطبري في كتابه الرياض النضرة ١٦/٣ ـ ١٨.

خرج رسول الله ﷺ قاصداً مكة لزيارة البيت، لا يبغي حرباً ولا قِتالاً، وكان ذلك في السنة السادسة من هجرته ﷺ إلى المدينة، وعلى الرغم من أنّه كان لا يريد حرباً ولا قتالاً، إلا أنه استنفر المسلمين ومن حوله من الأعراب أن يخرجوا معه، خشية أن تعرض له قريش بحرب، أو يصدوه عن البيت، فتثاقل الأعراب، وقالوا: أنذهب إلى قوم قد غزوا محمداً في عقر داره بالمدينة؟

كان ﷺ قد اغتسل قبل أن يخرج من بيته ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء من عند بابه، وخرجت معه أُم سلمة، وأُم عمارة، وأم منيع، وأُم عامر الأشهلية، رضي الله عنهنَّ، ومعه المهاجرون والأنصار، ومن لحق بهم من الأعراب، وساق عليه الصلاة والسلام معه من الهدي سبعين بدنة(١).

وصحب رسول الله ﷺ في هذه الرحلة المباركة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى «عُسفان» وهي موضع بين مكة والمدينة، لقيه رجل ـ هو بشر بن أبي سفيان ـ فقال له: يا رسول الله!! هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور، ونزلوا بذي طوى ـ وهو موضع قرب مكة ـ وعاهدوا أنفسهم ألاَّ تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم بالقرب منك بـ «كراع الغميم»(٢).

فقال ﷺ: «**يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني، كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ، فما تظنُّ قريشٌ؟!**

فوالله لا أَزالُ أُجاهدُ على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة» ـ كنّى عليه السلام بانفرادها عن الموت ـ بمعنى أو الموت دونها.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام جـ ٢، والسيرة الحلبية ٢/٦٨٩.

(٢) كراع الغميم: هو موضع بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال.

ونزل رسول الله ﷺ بأقصى الحديبية، ولما اطمأن به المقام جاءه بُدَيلُ بن ورقاء الخزاعيُّ في رجاله من بني خُزاعة، وهم من أهل تهامة وحلفاء الرسول ﷺ، وممن يثق فيهم، حتى أصبحوا موضع سِرِّه.

قال بُدَيْلُ بن ورقاء الخزاعيُّ: يا رسول الله، إني تركتُ كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد نزلوا عند مياه الحديبية، ومعهم أسلحتهم، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنا لم نأت لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين**».

ولم يمض وقت طويل حتى بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليهم يقول: إن محمداً مطاعٌ في أصحابه، ولم يأت لقتال.

ثم دعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أَنَّه لم يأتِ لحربٍ، وأنّه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، وأمر ﷺ عثمان أن يأتيَ رجالاً مسلمين بمكةَ ونساء مسلمات، ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن نَصْرَ الله وشيكٌ - أي قريبٌ - وأن الله مظهرٌ دينَهُ بمكةَ حتى لا يستخفى فيها بالإيمانِ.

انطلقَ عثمانُ رضي الله عنهُ حتَّى أتى أبا سفيانَ وعظماءَ قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسلهُ به.

فقالوا لعثمانَ، حين فرغ من رسالته: إنْ شئت أن تطوف بالبيت فطُف به[1].

قال عثمانُ رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري ٧١/٣، وسيرة ابن هشام ٣٢٩/٣.

وكانت قريش قد حجزتْ عثمان رضي الله عنه واحتبسته ثلاثة أيامٍ، فبلغ رسول الله ﷺ أنَّ عثمان رضي الله عنه قد قُتِلَ.

فقال ﷺ: **«لا نبرح حتى نناجز القوم»**.

ودعا رسول الله ﷺ النّاس إلى البيعة بعد أن قال لهم: **«إن الله أمرني بالبيعة»**.

ونادى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً: أيُّها الناس! البيعة البيعة.

فسارَ الناسُ جميعاً إلى رسول الله ﷺ وبايعوهُ تحتَ الشجرةِ، وقد بايعهُ النّاسُ على الموت وعدم الفرارِ، وعلى أنّهُ: إمّا الفتح وإمّا الشهادة[1].

وبايع النبيُّ ﷺ عن عثمان فوضع يَدَهُ على يدهِ الأُخرى، يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: **«اللهم إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله، فأنا أبايع عنه»**، فضرب بيمينه على شماله.

ثم جاءت الأخبار لرسول الله ﷺ أنَّ الذي علمه من أمر عثمان باطِلٌ ولم يحدث أبداً.

أحست قريش بإصرارِ رسول الله ﷺ، وبلغها ما كان تحت الشجرة من بيعة الرجال، وإصرارهم على الجهاد، فأرسلت سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، وقالوا لسهيل: ائت محمداً فصالحه، ولا يَكُن من صُلْحِهِ إلا أن يرجع عنّا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أن دخلها علينا عنوة أبداً[2].

وجرت مفاوضات الصلح بين الرسول ﷺ، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، تكلّم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جَرَى بينهما الصلح المعروف بـ (صلح الحديبية).

وقد كان عثمان رضي الله عنه من الذين بايع عنهم رسول الله ﷺ، فأثابهم الله فتحاً قريباً.

---

(١) السيرة الحلبية ٣/٧٠١، وسيرة ابن هشام ٣/٣٣٠.

(٢) المصدر السابق.

فضائله

١ ـ من مآثر جوده وسخائه: كان عثمان من الجود والكرم بحراً لا قاعَ لَهُ، وطريقاً لا نهاية لعطائه، يعطي بلا حساب مما أفاء الله عليه من فضلٍ، ومن هذا المعنى نسوقُ قصة مجيء قافلة كبيرة لعثمانَ رضي الله عنه محملةً بالبضائع والخيراتِ، فاجتمع عليها تجار المدينة، وقد كانت المدينة تعاني من ضائقةٍ شديدةٍ، يهبُّ من أجلها التاجر أينما كان ليفوز بما هو آتٍ من بضائع تَدرُّ عليه ربحاً وفيراً.

ويتحدث الرواة عن هذه القصة ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما الذي يقول: قحط الناس في زمان أبي بكر، فقال أبو بكر لهم: إن شاء الله لا تُمْسونَ غداً حتى يأتيكم فرج الله.

فلمّا تنفس الصبحُ في المدينةِ، سمع الناس هدير أقدام الجمال، تضرب الأرض وتنثر الرمال عليها، ولما سألوا عن القافلةِ إذ هي لعثمان رضي الله عنهُ.

ويضيف ابنُ عباس قائلاً: فلما كان الصبح قدمت قافلة عثمان رضي الله عنه، فغدا عليه التُّجار، فخرج إليهم وعليه مُلاءةٌ قد خالفَ بين طرفيها على عاتقهِ، وسألوه أن يبيعهم القافلة وما جاء فيها من بضائع.

قال عثمان: كم تربحونني؟

قالوا: العشرة اثني عشر.

قال عثمان رضي الله عنهُ: قد زادوني!!

قالوا: فالعشرة خمسة عشر.

قال: قد زادوني.

قالوا: ومن الَّذي زادك؟

قال عثمان: إنه الله، زادني بكل درهمٍ عشراً، فهل لديكم أنتم مزيدٌ؟

فانصرف التجار عنه... ثم نادى فيِ الناس قائلاً: اللهم إنّي وهبتها لفقراء المدينة بلا ثمن وبلا حساب.

رحم الله عثمان، فقد كان ينفق بلا حساب، وكان من الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، لا يمنُّ بها على الناس، إنما يطعمهم لوجه الله، ويعطيهم حُبّاً في الله، لا يريدُ منهم جزاءً ولا شكوراً.

وبالرغم من ماله الوفير، فقد كان عثمان رضي الله عنه زاهداً فيه، زاهداً في الدنيا، راجياً ما عند الله عز وجل.

٢ ـ زهد عثمان: كان عثمان رضي الله عنه زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، فقد كان يطعم الناس طعامَ الإمارة، ويأكل الخلَّ والزيتَ[١].

قال عبدالله بن شداد: رأيت عثمان يوم الجمعة يخطبُ وهو يومئذٍ أمير المؤمنين، وعليه ثوب قيمته أربعةُ دراهمَ أو خمسة دراهم[٢].

وقد سئل الحسن بن علي رضي الله عنه عن ملابس عثمان، فذكر منها ما يدلُّ على أنها من ملابس العامة، بل وأقل الناس امتلاكاً للمالِ.

فمما قاله السائل: ما كان رداء عثمان؟

قال الحسن: قطريٌّ.

قال الرجل: كم ثمنه؟

قال الحسن: ثمانية دراهم.

ثم أضاف السائل قائلاً: ما كان قميصه؟

فقال الحسن: سنبلانيٌّ.

قال: كم ثمنه؟

قال الحسن: ثمانية دراهم[٣].

وهذه أقل الملابس قيمة في أسواق مكّة آنذاك.

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة ٣/٤٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ٣/٤٥.

٣ ـ **الخوف من الله**: كان عثمانُ رضي الله عنه كثير الخشية من الله، ما يقوم بعمل إلا ويتصور أمامه يوم الحساب، ولا يرى منظراً إلا ويتذكر السؤال، وما يشاهد عاجزاً أو صغيراً إلا ويشعر بالمسؤولية.

فقد روي عنه رضوان الله تعالى عليه أنه قال: لو أنّي بين الجنَّةِ والنار، لا أدري إلى أيهما يؤمر بي، لاخترتُ أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيهما أصير.

وعن أبي الفرات قال: كان لعثمان عبداً فقال له: إني كنت عَرَكْتُ أُذُنَكَ فاقتصَّ مني، ثم قال عثمان: اشْدُدْ!! يا حَبذا قِصاصٌ في الدُّنيا لا قصاصٌ في الآخِرةِ[١].

٤ ـ **عبادة عثمان**: كان عثمان رضي الله عنه كثير العبادة، يصوم النهار ويقوم الليل.

فعن محمد بن سيرين قال: كان عثمان يُحْيي اللَّيل كله بركعة يجمع فيها القرآن[٢].

وعن ابن سيرين أيضاً قال: قالت امرأة عثمان ـ حين طافوا به يريدون قتله ـ: إن تقتلوه أو تتركُوهُ فإنه كان يُحْيي الليل كله بركعةٍ يجمع فيها القرآن[٣].

وعن مولاةٍ لعثمان قالت: كان عثمان يصوم الدّهر.

وعن الزبير بن عبدالله عن جدته قالت: كان عثمان يصوم الدَّهر ويقوم الليل إلاَّ هجعةً من أوَّلِهِ.

٥ ـ **طعام عثمان**: عن عمرو بن أُمية الضمري قال: إن قريشاً كان من أسنَّ منهم مولعاً بأكل الخزيرة ـ والخزيرة: قُطع اللحم تسلق حتى تنضج

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الرياض النضرة.
(٣) المصدر السابق.

تماماً، ثم يذر عليها الدقيق وتعصد به، ثم يضاف إليها السمن واللبن - وإني كنت أتعشى مع عثمان خزيراً مِنْ طبخ مِنْ أجود ما رأيت قط، فيها بطون الغنم، وَأُدْمُهَا اللبن والسمن، فقال عثمان: كيف ترى هذا الطعام؟

فقلت: هذا أطيبُ ما أكلتُ قط.

فقال: يرحم الله ابنُ الخطاب، هل أكلتَ مَعَهُ هذه الخزيرَةِ قَط؟

قلت: نعم، فقد كادَتِ اللقمة تَفْرُثُ[1] بين يدي حين أهوي بها إلى فمي، وليس فيها لَحْمٌ، وكان أَدُمُها السَّمْنُ، ولا لبنَ فيها.

فقال: صدقت، إن عمر رضي الله عنه، أتعب والله من تبع أثره، وإِنَّهُ كان يَطْلُبُ بثينة عن هذه الأمور ظلفاً[2]، أما والله ما آكُلُهُ من مالِ المسلمين، ولكنّي آكله من مالي، أنت تعلم أنّي كنت من أكثر قريش مالاً، وَأَجَدُّهُمْ في التجارة، ولم أزل آكُلُ من الطعام ما لاَنَ مِنْهُ، وقد بلغت سِنًّا، فَأَحَبُّ الطعام إليَّ أَلْيَنه، ولا أعلم لأحدٍ عَلَيَّ في ذلك تَبِعَةً.

وعن عبدالله بن عامر قال: كنت أفطر مع عثمان في شهر رمضان، فكان يأتينا بطعام هو أَلْيَنُ من طعام عمر، وقد رأيت على مائِدَةِ عثمان الدرمك[3]، وصغار الضأن كل ليلة، وما رأيت عمر قط أَكَلَ من الدقيق منخولاً، ولا أَكَلَ من الغنم إلا مسانها، فقلت لعثمانَ في ذَلِكَ؟؟

فقال: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق.

٦ - **اللين**: كان عثمان رضي الله عنه لين الجانب، ليِّناً على رعيته حتى أصبح يخشاهم لكثرة لينِهِ، عطوفاً على أُمَّتِه، يخاف أن يُصاب أحدٌ دون علمِهِ، فلا يتمكن من تلبية حاجته، دائم الصلة لِرَحِمِهِ، يتفقد جِوَارَهُ، ويسأل عن النّاس في أي وقت كان.

---

(١) تفرُثُ: تتفتت.

(٢) الظلف: شدة المعيشة.

(٣) الدرمك: الدقيق المنخول.

ولو تحدثنا عن شمائل عثمان رضي الله عنه وصفاته، لطالت الصفحات لكثرة ما كان عليه من طيب الشمائل وحلوها.

عثمان وجمع القرآن

يُعدُّ عثمان رضي الله عنه من أكثر الصحابة ارتباطاً بعملية جمع القرآن، وذلك حين أكمل مهمةً قام بها عمر رضي الله عنه، وذلك بعد أن أشار على أبي بكر رضي الله عنه بجمعه بعد موقعة اليمامة ومقتل عدد كبير من القراء الذين حفظوا القرآن في حياة رسول الله ﷺ.

وقد اختص عثمان رضي الله عنه بآيات كريمة نزلت فيه، ففي إنفاقه نزلت الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

قال ابن عمر رضي الله عنهما: نزلت في عثمان رضي الله عنه[١].

هكذا كان لعثمان الشرف العظيم، وأي شرف أسمى من آيات الكتاب تتحدث عن المسلم، فَبُشّر رضوان الله عليه بالجنة وكان أهلاً لها.

مبايعته للخلافة

شيع الناس عمر بن الخطاب إلى مثواه الأخير بعد أن أدى الأمانة على خير وجه، وعاد الناس إلى ديارهم وهم يتطلعون إلى من سيخلف عمر بن الخطاب.

وجمع المقداد أهل الشورى وهم: عثمان وعلي وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام، جمعهم وكانوا خمسة لأن

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٣٠٥.

طلحة بن عبيد اللّه كان غائباً في مال له بالسراة، وكان معهم عبدالله بن عمر، وكان عمر قد أوصاهم بإشراك طلحة في الأمر إذا حضر قبل اختيار الخليفة، وكان عمر قد حدد ثلاثة أيام بعد وفاته لاختيار الخليفة.

وقف عبدالرحمن بن عوف وقال لأهل الشورى: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟

فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أخلع نفسي منها.

فقال عثمان: أنا أول من رضي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أمين في الأرض أمين في السماء»**.

فقال القوم: قد رضينا، وعلي ساكت لا يتكلم.

فقال عبدالرحمن: ما تقول يا أبا الحسن؟

قال علي: أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألوا الأمة فصحاً.

قال عبدالرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على بدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم، وعليّ ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلوا المسلمين، فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله[1].

وأخذ عبدالرحمن أهل الشورى واحداً واحداً في خلوة يشاورهم في الأمر، وبدأ بعلي فقال له: تقول أنّك أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين، ولم تبعد، ولكن أرأيت لو حرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به؟

قال: عثمان.

وخلا بعثمان فقال له: تقول: شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه، ولي سابقة وفضل، فأين يصرف هذا الأمر عني، ولكن لو لم تحضر، أي هؤلاء الرهط تراه أحق به؟؟

---

(١) الطبري ٢٣١/٤.

قال: علي[1].

وسأل الزبير وسعداً فقال كل منهما: عثمان.

فلما كانت الليلة الثالثة، قال عبدالرحمن: يا مسور (المسور بن مخرمة وكان أهل الشورى في داره).

قال المسور لعبدالرحمن: لبيك.

قال: إنك لنائم، والله ما اكتحلت بغماض منذ ثلاث ليال، اذهب فادع لي علياً وعثمان.

قال المسور بن مخرمة: قلت: يا خال، بأيهما أبدأ؟

قال: بأيهما شئت.

قال: فخرجت فأتيت علياً، وكان هواي فيه، فقلت: أجب خالي.

فقال: بعثك معي إلى غيري؟

قلت: نعم.

قال: إلى من؟

قلت: إلى عثمان.

قال: فأينا أمرك أن تبدأ به؟

قلت: قد سألته، فقال: بأيهما شئت، فبدأت بك، وهو هواي فيك.

قال - أي المسور -: فخرج علي معي حتى أتينا المقاعد فجلس عليها علي، ودخلت على عثمان فوجدته يوتر مع الفجر، فقلت: أجب خالي.

فقال: بعثك معي إلى غيري؟

قلت: نعم، إلى علي.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦٨/٣، ٦٩.

قال: بأينا أمرك أن تبدأ؟

قلت: سألته فقال: بأيهما شئت، وهذا عليٌّ على المقاعد، فخرج معي حتى دخلنا جميعاً على خالي، وهو في القبلة قائم، فانصرف لما رآنا، ثم التفت إلى علي وعثمان فقال: إنّي قَدْ سأَلتُ عَنْكُما وعَنْ غَيْركُما، فلم أجد الناس يعدلون بكما؛ هل أنت يا علي مبايِعِي على كتاب الله، وسُنَّةِ نبيِّه، وفِعْلِ أبي بكر وعمر؟

فقال: اللهم لا، وَلَكِنْ على جَهْدي من ذلك وطاقتي.

فالتفت إلى عثمان، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله، وسنة نبيه، وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم نعم، فأشار بيده إلى كتفه، وقال: إذا شئتما!

فنهضنا حتى دخلنا المسجد، وصاح صائح: الصلاة جامعة.

قال عثمان: فتأخرت والله حياءً لما رأيت من إسراعه إلى علي، فكنت في آخر المسجد.

قال: وخرج عبدالرحمن بن عوف وعليه عمامته التِي عَمَّمَهُ بها رسول الله ﷺ متقلداً سيفه، حتى ركبِ المنبر، فوقف وقوفاً طويلاً ثم دعا بما لم يسمعه الناس.

ثم تكلم فقال: أيها الناس إنّي قد سألتكم سرّاً وجهراً عن إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، إمّا عليٌّ، وإما عثمانُ، فقم إليَّ يا علي، فقام إِلَيْهِ عَلِيٌّ، فوقف تحت المنبر، فأخذ عبدالرحمن بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّةِ نبيه وفعل أبي بكر وعُمر؟

قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي.

قال: فأرسل يده ثم نادى: قم إليَّ يا عثمان، فأخذ بيده ـ وهو في موقف عليّ الذي كان فيه ـ فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنةِ نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم نعم.

قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، ثم قال: اللَّهُمَّ اسمع واشهد، اللهم إني جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان.

قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر، فقعد عبدالرحمن مقعد النبي ﷺ وأقعد عثمان على الدرجة الثانية، فجعل الناس يبايعونه، وتلكأ علي فتلا عبدالرحمن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(1) [الفتح: ١٠] إلى آخر الآية، فرجع علي يشقُّ الناس حتى بايع، ولزم أبو طلحة أصحاب الشورى حتى بويع عثمان.

أول قضايا الخلافة

كانت أول قضية واجهها عثمان رضي الله عنه هي قضية عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب.

تبدأ القضية بقول عبدالرحمن بن أبي بكر في شأن مقتل عمر رضي الله عنه وقاتله.

قال عبدالرحمن: قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهما يتناجيان، فلما باغَتّهم ثاروا، فسقط من بينهم خِنجر له رأسان ونصابه وسَطُهُ، فانظروا ما الخنجر الذي قُتِل به عمر؟؟

فلما نظروا فيه وجدوه الخنجر الذي وصفه عبدالرحمن بن أبي بكر.

فلما سمع عبيد اللّه بن عمر كلام عبدالرحمن بن أبي بكر، ووجدوا الخنجر الذي قُتِلَ به أبوه هو الخنجر نفسه الذي وصفه عبدالرحمن بن أبي بكر، انطلق ومعه السيف حتى دعا الهرمزان، فلما خرج إليه قال: انطلق معي حتى تنظر إلى فَرَس لي، وتأَخَّرَ عنه، حتى إذا مضى بين يديه عَلاهُ بالسَّيفِ.

قال عبيد اللّه بن عمر: فلمّا وَجَدَ حَرَّ السيف، قال: لا إله إلا الله.

---

(1) انظر: تاريخ الطبري ٤/٢٢٣.

وقال عبيد اللّه: ودعوت جفينة، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة، قال: فلما علوته بالسيف صَلَّبَ بين يديه.

ثم انطلق عبيد اللّه فقتل ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة، وأراد عبيد اللّه ألاّ يترك سبباً يومئذ بالمدينة إلا قتله، إلا أن الصحابة قد نهروه، ثم قبض عليه وسُجن حتى ينظر في أمره الخليفة الجديد[١].

وكان سعد بن أبي وقاص قد انتزع السيف من يد عبيد اللّه بعد أن قتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة، وجذبه من شعره حتى بطحه على الأرض وحبسه في بيته.

فلما ولي عثمان طلبه وهو جالس في المسجد وحوله أصحابه ليحاكمه على ما ارتكب من قتل هؤلاء.

فلما حضر قال عثمان: أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق.

فقال علي: أرى أن تقتله.

وقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

فقال عثمان: أنا وليهم وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي( ).

ودفع عثمان الدية عن عبيد اللّه بن عمر للقمباذان بن الهرمزان (أبو لؤلؤة) بعد أن سلمه إليه ليقتله في أبيه، ولكنه قال: فتركته لله ولهم، فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم.

فالقتل إذن خطأ، والدية لا بد منها، وإن تم العفو، وقد دفعها عثمان[٢] وانتهى الأمر.

---

(١) تاريخ الطبري ٢٣٩/٤.

(٢) دفعها من ماله الخاص، انظر: تاريخ الطبري.

كتب عثمان إلى الولايات وأمراء الجند

كتب عثمان رضي الله عنه كتاباً حدّد فيه سياسته وقال فيه:

«أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذا الأُمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا إن من أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تعتنوا بالذمّة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء»(١).

وأما الكتاب الثاني إلى أمراء الأجناد والثغور فجاء فيه:

«أما بعد، فإنكم حماة الإسلام وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحدٍ منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونوا، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه».

وكتب الثالث إلى عمال الخراج فقال:

«أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد إن الله خصم لمن ظلمهم».

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار:

«أما بعد، فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأُمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم:

- تكامل النعم.

---

(١) المصدر السابق ٤/٢٤٥.

ـ وبلوغ أولادكم من السبايا.

ـ وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن.

فإن رسول الله ﷺ قال: **«الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا»**.

أول خطبة لعثمان

بايع أهل الشورى عثمان، فخرج وهو أشدهم كآبة، فأتى قبر رسول الله ﷺ، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: إنكم في دار قلعة[1]، وفي بقية الأعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صُبِّحتم أو مسيتم.

ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بمن مضى، ثم جدُّوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعَمَرُوها، وَمُتِّعوا بها طويلاً، ألم تلفظهُمْ، ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلاً، وللذي هو خَيْرٌ، فقال عز وجل: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦][2].

وبعد أن انتهى من خطبته هذه أقبل الناسُ عليه يبايعونه.

واتخذ عثمان له خاتماً نُقِشَ عليه: «آمن عثمان بالله العظيم».

وكان أيضاً من أولى أعماله أن زاد في أرزاق الناس وأعطياتهم.

فكان ينادي مناديه: يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم،

---

(١) قلعة: ارتحال.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢١٤/٧.

فيأخذونها موفورة، ثم يقال لهم: اغدوا على أرزاقكم، فيأخذونها موفورة، ثم يقال لهم: اغدوا على السمن والعسل[1].

وكان رضي الله عنه، ليناً عطوفاً ودوداً، يسأل عن أحوال رعيته حتى وهو على المنبر.

فقد روى ابن سعد عن موسى بن طلحة قال: رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران، فيجلس على المنبر، فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسفارهم وعن قدّامهم وعن مرضاهم[2].

وكان يؤثر الحق على كل شيء، فيرسل إلى عماله بحضور موسم الحج كل عام، ويكتب إلى الرعية: من كانت له عند أحد من العمال مظلمة فليواف إلى الموسم فإني آخذ له حقه من عامله[3].

الفتوحات في عهد عثمان

حدد المؤرخون[4] الأمصار والأمراء في بداية عهد عثمان بما يلي:

١ ـ مكة وأميرها نافع بن الحارث الخزاعي.

٢ ـ الطائف وأميرها سفيان بن عبدالله الثقفي.

٣ ـ صنعاء وأميرها يعلى بن منبه حليف بني نوفل بن عبد مناف.

٤ ـ الجند وأميرها عبدالله بن أبي ربيعة.

٥ ـ البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي.

٦ ـ الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢١٤/٧.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٥٩/٣.

(٣) البداية والنهاية ٢١٩/٧.

(٤) الشيخ محمد الخضري في كتابه محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٥٩، ٢٦٠ ط العلمية بيروت.

٧ ـ البصرة وما يتبعها وأميرها أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري ـ بالعراق ـ.

٨ ـ دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي.

٩ ـ حمص وأميرها عمير بن سعد.

١٠ ـ مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي.

وكانت البصرة والكوفة تموج بتمرد الناس على الأمراء بتغيير الأمير مرّة بعد مرة، حتى أن عمر بن الخطاب الشديد البأس، ضاق بأفعالهم، وقال لأبي موسى الأشعري وقد استعمله على البصرة بعد المغيرة بن شعبة: يا أبا موسى إني مستعملك، إني أبعثك إلى أرض قد باض فيها الشيطان وفرَّخ(١).

وأما الكوفة فكانت أشد تمرداً على الأمراء حتى أنهم قد ولي عليهم أربعة أمراء في سنتين، وحتى أنهم أيضاً شكوا سعد بن أبي وقاص واتهموه بما ليس فيه، فعزله عمر وولى مكانه عمار بن ياسر، ثم اشتكوا من عمار فعزله وولى مكانه سعداً مرة أخرى، فشكوا سعداً فولى مكانه جبير بن مطعم، فتحاملوا عليه فعزله وولى مكانه المغيرة بن شعبة الثقفي(٢).

وظلت هذه المشاكل بين سكان الكوفة والبصرة ومن يوليه عليهم عمر رضي الله عنه أميراً إلى أن مات عمر، فوجد عثمان هذا الأمر في أول حُكمِهِ، وكان عليه أن يواجه ذلك.

ولم تكن الكوفة والبصرة وحدها، بل كان أعداء المسلمين التقليديين الفرس والروم يتربصون بهم، ويترقبون اللحظة كي ينقضوا عليهم ويستردوا ما فقدوه على يد الفاتح الإسلامي.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٧٠/٤.

(٢) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر ٢٢/٢ حاشية الإصابة.

فهذا يزدجرد ملك الفرس قابع في سمرقند ينتظر فرصته، وذاك ملك الروم وقومه ينتظر في العاصمة البيزنطية فرصة هو الآخر.

وما إن مات عمر وتولى عثمان حتى استغل الأعداء ما يقال عن عثمان من لين وهدوء ودماثة خلق: ففي أذربيجان أعلن الفرس عصيانهم ومنعوا الجزية التي كانوا قد صالحوا عليها المسلمين.

وفي الشام بدأ الروم هجومهم على الشام ظانين أنّ بالمسلمين ضعفاً.

وفي الإسكندرية نُقِضَ الصلح، واستعان أهلها بقوة الروم البحرية وسفنهم التي أمدوهم بها محملة بالرجال والسلاح.

ولكن عثمان رضي الله عنه ورجاله لم يكونوا صيداً سهلاً لكل هؤلاء.

١ ـ **غزو أذربيجان**: فتحت أذربيجان مع الري في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد نهاوند في سنة اثنتين وعشرين على يد حذيفة بن اليمان قائد جيوش المسلمين بعد استشهاد النعمان بن مقرن المزني في نهاوند.

ولما تولى أمر الكوفة الوليد بن عقبة[١] سنة ست وعشرين بعد سعد بن أبي وقاص، وكان أهل أذربيجان وأرمينيا قد نقضوا الصلح الذي صالحهما عليه حذيفة بن اليمان.

عندئذ أصدر الخليفة عثمان أمراً للوليد بن عقبة بالتوجه إلى أذربيجان، فسار إليهم الوليد في السنة التي تولى فيها أمر الكوفة، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي[٢] مقدمة له، وانطلق هو في أثره حتى دخل أذربيجان.

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن عبد شمس بن عبد مناف الأمير، أبو وهب أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم الفتح، بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، تولى أمر الكوفة، وجاهد مع أهلها، وشارك في فتوح الشام، وكان رجلاً سخياً يقول الشعر، اعتزل بالجزيرة بعد قتل أخيه، له صحبة قليلة، ورواية يسيرة، انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء، انظر: الفهارس.

(٢) سلمان بن ربيعة الباهلي: صحابي، شهد فتوح الشام، وسكن العراق، وولاه عمر قضاء الكوفة، واستشهد في غزوة أرمينيا عام ٣٠هـ.

وبعث الوليد بن عقبة عبدالله بن شبيل بن عوف الأخمسي، فأغار على موقان والعيلسان، فغنم وسبى.

فلما أغار ابن شبيل على موقان والبيرو والعيلسان، أصاب من أموالهم وغنم، وتحرز القوم منه بعد أن سبى منهم بعض السبي، ثم أقبل على الوليد بن عقبة، وقد أيقن أهل أذربيجان بالهلكة، فطلبوا الصلح، فصالحهم الوليد على مثل ما كان حذيفة قد صالحهم عليه: ثمانمائة ألف درهم في كل سنة، ولم يبرح حتى قَبض منهم جزية سنة، ورجع سالماً غانماً إلى الكوفة[1]، وقد ولى عليها الأشعث بن قيس[2].

وبعث الوليد بن عقبة إلى أرمينيا سلمان بن ربيعة على رأس اثني عشر ألفاً، فهاجم الأرمن ورجع منهم غانماً منتصراً.

ورجع الوليد من أذربيجان فمرَّ على الموصل، ومنها إلى الحديثة (وهي مدينة في العراق على نهر الفرات قرب الحدود السورية)، وفيها جاءه كتاب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه يطلب منه تسيير قوة إلى الشام لدعم المسلمين فيها حيث حشد لهم الروم حشوداً كثيفة، فسيَّر لهم ثمانية آلاف بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي.

استعمل سعيد بن العاص والي الكوفة سلمان بن ربيعة على بلنجر (وهي مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، وهو على الساحل الغربي لبحر قزوين)[3].

وأمدَّ سعيد الجيش الذي كان ببلنجر، أمده بأهل الشام وكان عليهم حبيب بن مسلمة الفهري، وذلك سنة اثنتين وثلاثين، لأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان كتب إليه بذلك يقول: اغْزُ الباب.

وكتب إلى عبدالرحمن بن ربيعة، وهُوَ على الباب: إن الرعية قد أَبْطَر كثيراً منهم البِطْنَةُ، فقصِّر، ولا تقتحم بالمسلمين، فإِني خاشٍ أن يبتلوا.

---

(١) البداية والنهاية ١٥٠/٧.

(٢) فتوح البلدان ص ٣٢٤.

(٣) انظر: فتوح البلدان للبلاذري.

فلم يمنع ذلك عبدالرحمن بن ربيعة عن غايته، وكان لا يُقَصِّرَ عن بلنجر، فغدا سنة تسع من إمارة عثمان حتى إذا بلغ بلنجر، حصروها ونَصَبُوا عليها المجانيق والعَرَّدات، فجعل لا يدنو منها أحدٌ إلا أعنتوهُ أو قتلوه[1].

ثم إن الترك اتَّعدوا يوماً، فخرج إليهم أهل بلنجر، وتوافد إليهم الترك، فاقتتلوا مع المسلمين فأُصيب عبدالرحمن بن ربيعة، وكان يقال له: «ذُو النور»، وانهزم المسلمون فتفرقوا، فأما من أخذ طريق سلمان بن ربيعة (أي الذين رجعوا إلى الخلف صوب الجنوب) فحماه حتى خرج من الباب، وأما من أَخَذَ طريق الخزر وبلادها (وهو السير على ساحل بحر قزوين الشمالي حتى وصل إلى جرجان وجيلان على الساحل الجنوبي لبحر قزوين) فإنه خرج على جيلان وجرجان وفيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة، وأخذ الأعداء جسد عبدالرحمن وجعلوه في سَفَطٍ.

وروى الطبري عن رجل من بني كنانة قال: لما تتابعت الغزوات على الخزر، وتذامروا وتعايروا وقالوا: كُنَّا أُمَّةً لا يقوم لنا أَحَدٌ حتى جاءت هذه الأُمَّةُ القليلةُ، فصرنا لا نقوم لها.

فقال بعضهم لبعض: هؤلاء لا يموتون، ولو كانوا يموتون ما اقتحموا علينا ـ وما أُصيب في غزواتها أحدٌ إلاَّ في آخر غزوة عبدالرحمن ـ فقالوا: أفلا تجربون؟؟

فكمنوا في الفيافي، فمر بأولئك الكمين مُرَّارٌ من الجند، فرموهم منها، فقتلوهم، فواعَدُوا رُؤُوسهم، ثم تداعوا إلى حربهم، ثم اتعدوا يوماً فاقتتلوا، فقُتِلَ عبدالرحمن، وأسرع الناس فافترقوا فرقتين، فرقة نحو الباب فحماهم سلمان حتى أخرجهم، وفِرْقةٌ أخذوا نَحْوَ الخَزَر، فطلعوا إلى جيلان وجرجان، وفيهم سلمان الفارسي، وأبو هريرة.

(١) انظر: تاريخ الطبري فتح أذربيجان سنة ٣٣.

قال الشعبيّ: والله لسلمان بن ربيعة كان أَبْصَر بالمضارب من الجازِرِ بمفاصل الجزور.

وغزا أهلُ بلنجر سنين من إمارة عثمان لم تَئِمْ[1] فيهن امرأة، ولم يَيْتم فيهن صَبيٌّ مِن قَتْلٍ، حتى كان سنة تسع من إمارة عثمان[2].

ولم تهدأ أذربيجان إلا بعد أن دخل أهلها الإسلام وقرأوا القرآن[3].

٢ ـ **الري**: كانت الري كثيرة التمرد ونقض الصلح، فتحها في زمن عمر عروة بن زيد الخيل بعد أن هزم جموع الديلم ومن ساعدهم من أهل الري، وفي ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة انتفضت الري فأرسل إليها المغيرة بن شعبة: كثير بن شهاب الحارثي، فقاتل كثير أهل الري حتى اضطرهم إلى التسليم والعودة إلى الطاعة، وأذعنوا بالخراج والجزية التي كانوا قد صالحوا عروة عليها، ومقدارها خمسمائة ألف.

وظلت الري كذلك تصالح، وتنقض الصلح فيفتحها المسلمون، حتى فتحها قرظة بن كعب الأنصاري في ولاية أبي موسى الأشعري الكوفة زمن عثمان بن عفان، فاستقامت واستقر الأمر فيها للمسلمين[4].

٣ ـ **البصرة**: نقض أهل خراسان عهدهم مع المسلمين بعد مدة من خلافة عثمان بن عفان، فاجتمع المسلمون في مرو الرّوذِ ـ وهي مدينة في خراسان ـ وعليهم عبدالرحمن بن سمرة، فكتب إلى أمير المؤمنين عثمان يخبره بخلع أهل خراسان الطاعة، فأرسل أمير المؤمنين عثمان إلى عامله على البصرة عبدالله بن عامر[5] الذي تولى أمرها بعد أبي موسى الأشعري أن يستعيد فتح خراسان.

---

(١) لم تئم: أي لم تصبح أمة أو تسبى.

(٢) تاريخ الطبري.

(٣) البلاذري ص ٣٢٤.

(٤) البلاذري ص ٣١٤، ٣١٥.

(٥) عبدالله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن خال أمير المؤمنين عثمان، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ البيضاء تولى البصرة، ووفد على عثمان فزوجه بابنته هند، كان سخياً كريماً أسلم يوم أسلم أبوه يوم الفتح، توفي عام ٥٩ هجرية، فقال معاوية: بمن نباهي وبمن نفاخر بعده.

فخرج عبدالله بن عامر في الجند ودخل خراسان، وكان على مقدمته الأحنف بن قيس، وتمكن من استعادتها بسرعة، وأرسل الأحنف بن قيس إلى «مرو الرَّوذِ» ففتحها بعد أن أجبر أهلها المتحصنين بها على الصلح، وكذلك أرسل إلى الجوزجان وهو إقليم في شمال أفغانستان أرسل الأقرع بن حابس ففتحها بعد قتال شديد، استشهد فيه عدد كبير.

وسار الأحنف إلى «بلخ» إحدى مدن خراسان وهي اليوم في شمالي أفغانستان، فصالح أهلها، واستناب أسيد بن المتشمس على المال، فقال أُسيد بعد استرداد خراسان: رميناهم بالخيل من كل جانب، فولوا سراعاً واستقادوا النوائحا.

وخَرَجَ ابن عامر من خراسان معتمراً قد أحرم منها، وخلف على خراسان الأحنف، وجمع أهل خراسان جمعاً كبيراً وتجمعوا بمرو، فالتقاهم الأحنف فهزمهم، وكان ذلك الجمع لم يسمع بمثلِهِ[١].

وغزا ابن عامر وعلى مقدمته عبدالله بن بديل بن ورقاء، فأتى أصبهان فصالحوه، وتوجَّه إلى خراسان على مقدمته الأحنف، فافتتحها، بعضها عنوة وبعضها صلحاً، وخرج يزدجرد في مائة ألف، فنزل مرو، واستعمل على إصطخر رجلاً، فأتاها ابن عامر فافتتحها وقتل يزدجرد ومن كان معه بمرو، ونزل ابن عامر بأبرشهر، وبها بنتا كسرى، فحاصرها فصالحوه، وبعث الأحنف فصالحه أهل هراء، وبعث حاتم بن النعمان إلى مرو فصالحوه، ثم سار معتمراً من نيسابور إلى مكة شكراً لله، وقد افتتح كرمان وسجستان[٢].

٤ ـ **البحرين**: فتح عثمان بن أبي العاص عامل البحرين إصطخر عام سبع وعشرين، وكان عمير بن عثمان بن سعد على خراسان، فوصل إلى فرغانة عام تسع وعشرين.

---

(١) سير أعلام النبلاء، انظر: ترجمة الأحنف.

(٢) سير أعلام النبلاء، ترجمة عبدالله بن عامر.

ووصل عبدالله بن عمير الليثي الكنانيُّ والي سجستان إلى كابل عام تسع وعشرين.

ووصل عبيد اللّه بن معمر التميمي عامل مسكران إلى النهر ـ نهر السند ـ عام تسع وعشرين(١).

٥ ـ **فتح أرمينية**: عندما بلغ الروم نبأ وفاة عمر وتولية عثمان رضي الله عنهما، وعلم ملكهم بهذه الأخبار طمع في استرداد ما أخذه المسلمون الفاتحون، ولذلك أعد جيشاً قوياً أرهب أهل الشام وأخافهم، فأرسلوا إلى عثمان رضي الله عنه يستمدونه ويتعجلون المدد حتى لا يفاجئهم ملك الروم بجيوشه.

فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة الذي فَرَغَ لتوه من أذربيجان، فكتب إليه يقول: «إذا جاءك كتابي هذا، فابعث رجلاً أميناً كريماً شجاعاً في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إلى إخوانكم في الشام»(٢).

أحسَّ الوليد بخطورة الموقف فقام في الناس خطيباً، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد، أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً، ردَّ عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردّهم سالمين غانمين مأجورين والحمد لله رب العالمين. وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي(٣).

ولم تمض أيام حتى نفر من الناس ثمانية آلاف ومضى بهم سلمان بن ربيعة حتى دخل الشام، وانضم الجيشان هناك، وتوجه الجميع إلى أرض

---

(١) انظر: تاريخ الطبري السنة التاسعة والعشرون.

(٢) البداية والنهاية ١٥٠/٧.

(٣) الطبري ٢٤٨/٤.

الروم، يقود أهل الشام حبيب بن مسلم الفهري، ويقود المدد سلمان بن ربيعة الباهلي، وشن الجيشان الغارات على بلاد الروم، فغنموا وسبوا شيئاً كثيراً، وفتحوا حصوناً كثيرة، وملؤوا أيديهم من المغنم[1].

كان هذا الموقف تمهيداً لفتح أرمينية، بيَّن ما لعثمان من قوة، وأنه لا يختلف كثيراً عن عمر بن الخطاب.

أما أرمينية فهي المنطقة الجبلية الوسطى العالية في غرب آسيا، ويحدها من الشمال والشمال الشرقي البحر الأسود وبلاد القوقاز، ومن الجنوب الركن الشمالي الغربي من أرض الجزيرة، ومن الشرق والجنوب الشرقي أذربيجان وبحر قزوين، ومن الغرب آسيا الصغرى.

وكانت هذه البلاد واسعة المساحة ومقسمة إلى أربعة أقاليم:

١ ـ أرمينية الأولى.

٢ ـ أرمينية الثانية.

٣ ـ أرمينية الثالثة.

٤ ـ أرمينية الرابعة[2].

ولوصف موقعها، مع الأخذ في الاعتبار سعة مساحتها، نجد أنفسنا نخلص سريعاً إلى أنها كانت تمتد بين بلاد الروم وبلاد الفرس، ولا بد من صراع بينهما عليها.

فقد أدى موقعها الجغرافي المتميز إلى نشوب نزاع بين الفرس والروم، ونتيجة لهذا النزاع فقد سقط الجزء الشرقي وهو الأكبر في يد الفرس، وبقي القسم الغربي الأصغر في يد الروم.

شجع هذا الصراع فيها المسلمين على فتح أرمينية، ولما كانت أرمينية واقعة على حدود أذربيجان فإن الوليد قد عزم على فتحها، فوجه إليها جيشاً

---

(١) ابن كثير ١٥٠/٧.

(٢) البلاذري ص ١٩٧.

بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي، قوامه اثنا عشر ألفاً، فسار حتى دخل أرض أرمينية، فقتل وسبى وغنم، ثم عاد إلى الوليد وقد ملأ يديه من المغنم[1].

وكتب عثمان من جهة أخرى إلى معاوية واليه على الشام، يأمره بتوجيه جيش إلى أرمينية بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري، فأطاع معاوية، وأنفذ حبيب نحو أرمينية في جيش مقداره ستة أو ثمانية آلاف جندي من أهل الشام والجزيرة.

ولما وصل حبيب إلى قاليقلا ـ عاصمة أرمينية البيزنطية ـ أناخ عندها، وخرج إليها أهلها، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى اضطرهم إلى الاعتصام بالمدينة، ومن هناك طلبوا الصلح على الجلاء والجزية، فصالحهم حبيب، وخرج كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم[2].

وظل حبيب في قاليقلا فترة من الزمن، يعد نفسه، وفي قاليقلا بلغه أن الروم يجمعون له حشوداً ضخمة ليخرجوه من أرمينية، وقد انضم إلى جيش الروم جنود من بلاد الخزر والترك، حتى بلغ عدد الجيش ثمانين ألفاً[3].

أقبل جيش الروم بعدده ومدده، ونزل على شاطىء الفرات واستعد لمنازلة المسلمين، وكان حبيب بن مسلمة ينتظر قدوم المدد من العراق.

لكن حبيب عزم على أن يبدأ عدوه بجيشه المتواضع، فاختار من جنوده ألفي رجل، وأسكنهم قاليقلا العاصمة ليدافعوا عنها، وأمرهم أن يصبحوا قوة مرابطة بها لحمايتها من الغزاة.

جمع حبيبُ أمراء الجيش، وأخذ يستعرض معهم خطته، فسمعته امرأته ـ أُم عبدالله بنت يزيد الكلبية ـ فقالت: أين موعدك؟

فقال: سرادق الطاغية أو الجنة[4].

---

(١) الطبري ٤/٢٤٧.

(٢) البلاذري ص ٢٠٠.

(٣) تاريخ الطبري ٤/٢٤٨.

(٤)

والتقى الجيشان، جيش المسلمين بقيادة حبيب بن مسلمة، وجيش الروم بقيادة خيرة قوادهم وهو «الموريان»، فبيتهم حبيب بن مسلمة وهم غافلون، فقتل حبيب من تعرض له حتى دخل سرادق الموريان، وهناك وجد امرأته أم عبدالله قد سبقته إلى السرادق، فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب السرادق.

وانهزم الروم، وتقدم حبيب بجيشه إلى «دوين» أو دبيل عاصمة أرمينية الفارسية، فحاصرها وشدد عليها، فتحصن أهلها، فرماهم بالمنجنيق حتى أضعف أسوار المدينة، واضطر أهلها إلى طلب الصلح والأمان، فأعطاهم إيّاه، وبعث سراياه فغلبت على جميع قرى دبيل، مما اضطر «البطريق» ـ بطريق المدينة ـ أن يعقد مع حبيب كتاب صلح جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا كتاب حبيب بن مسلمة لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها، شاهدهم وغائبهم، إني قد أمنتكم على أنفسهم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم، فأنتم آمنون، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج، شهد الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

واشترط حبيب على البطريق أن ينصح للمسلمين ويعاونهم على أعدائهم[1].

وبفتح أرمينية أمَّنَ حبيب بن مسلمة حدود دولة الإسلام من هجمات الروم.

ومضى حبيب بجيشه حتى التقى بجيش عياض بن غنم في أرض الجزيرة بالعراق، وفتحا معاً أرمينية الرابعة، وكتب لهم عياض أماناً وأنفده لهم[2].

وفتح حبيب مدينة تغليس الأرمينية صلحاً، وختم كتابه لهم بقوله: هذا لكم وهذا عليكم، شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً.

وقد بلغ ما قضاه حبيب في فتح أرمينية عشر سنين.

---

(١) البلاذري ص ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق.

فتوحات في مصر وإفريقيا

١ ـ تمرد الإسكندرية: لم يستطع الروم نسيان الإسكندرية، فقد كانت عاصمتهم في مصر، ومدينتهم الجميلة، التي تأتي إليها خيرات المصريين التي تستنزف منهم بالبطش الروماني وجبروته، ولذلك راحوا يحلمون بإعادتها إليهم من أيدي المسلمين، وكان دأبهم في ذلك تحريض من في الإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على طاعة وسلطان المسلمين.

وجدّوا في السعي لاسترداد الإسكندرية لأنهم كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون الاستقرار في بلادهم بعد خروج الإسكندرية من حوزتهم[(١)].

واستجاب سكان الإسكندرية لتحريض الروم، فكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلة عدد المسلمين، ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من المذلة والهوان[(٢)].

في هذا الوقت•كان عثمان رضي الله عنه، قد عزل عمرو بن العاص، وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبي السرح، وفي هذه الأثناء أيضاً وصل منويل الخصي قائد قوات الروم لتخليص الإسكندرية من يد المسلمين، وصل منويل ومعه قوات ضخمة تحملها ثلاثمائة سفينة، وقد شحنت جميعها بالرجال والسلاح[(٣)].

ولم يخف عن المصريين وصول هذه القوات إلى الإسكندرية، فكتبوا إلى عثمان يطلبون عودة عمرو بن العاص لمواجهة الروم الغازين، لأن عمرو بن العاص خبير بحرب هؤلاء، وهم ـ أي الروم ـ يهابونه.

فما كان من عثمان إلا أن أجاب طلبهم، وأبقى عمرو بن العاص أميراً على مصر[(٤)].

---

(١) الكامل في التاريخ ٨١/٣.
(٢) البلاذري ص ٢٢٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

كان مبدأ الروم هو النهب والسلب، مما جعل المصريون لا يرغبون في وجودهم، بل وجدوا الإسلام والمسلمين ملاذاً لهم من ظلم واستبداد الروم وفسادهم.

فلما دخل الروم الإسكندرية نهبوها عن آخرها، وخرجوا إلى القرى التي تناثرت حولها، وفعلوا ما فعلوا بالإسكندرية، مما زاد تعاطف أهلها مع المسلمين.

لم يكتف منويل بذلك، بل توجه بجيشه إلى مصر السفلى، .وفي الوقت الذي كمن فيه عمرو بن العاص ينتظر، مما جعل القلق يساور الناس خوفاً من سطوة الروم وانضمام الناس لهم خوفاً وجزعاً ويأساً من قدرة العرب والمسلمين على مواجهتهم، فلما سئل عمرو في هذا الأمر قال: «دعهم يسيروا إليَّ، فإنهم يصيبون من مروا به، فيخزي بعضهم ببعض»(١).

ظل الروم يمعنون في نهبهم وسلبهم وإفسادهم في الأرض، مما جعل المصريين يضجوا من فعالهم، ويسعون إلى طريق يخلصهم من هؤلاء.

وفي الوقت نفسه كان عمرو بن العاص يستعد بقوة، ويعد جيشه لملاقاة هؤلاء، كي يوجه إليهم ضربات تقضي على تطلعاتهم هذه.

انطلق الروم جنوباً ووصل منويل إلى نقيوس، ونقيوس ليست بجديدة على عمرو والمسلمين، فقد خبروا أرضها، والتقى الجيشان هناك، ودار قتال عنيف، أدى إلى دخول عمرو بسيفه وفرسه في صفوف العدو يقاتل كجندي من جنوده حتى أصيب فَرَسَهُ بسهم فترجل عنه، وانضم إلى المشاة يقاتل رجل لرجل، مما جعل المسلمين يقاتلون ببراعة دون يأس أو كلل.

وفيما القتال على أشده لا يدري أحد من الفريقين لمن ستكون الغلبة، في هذه اللحظة خرج من الروم رجل يطلب المبارزة، فخرج له بطل مسلم

---

(١) انظر: عثمان لهيكل.

يدعى حومل، ودار بين الفارسان قتال مثير، جعل القتال يتوقف لمشاهدة هذا النزال بينهما الذي لم يحدث له مثيل من قبل، وحمل الرومي على حومل بسيفه، فتلقاه حومل بحركة بارعة فأرداه قتيلاً، وأصيب حومل، وحمل جريحاً إلى صفوف المسلمين، ولكنه مات متأثراً بجراحه بعد أيام، فبعث عمرو بجثمانه إلى الفسطاط ليدفن هناك، ورُئي عمرو يحمل سريره بين عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم[1].

كان لمقتل الرومي وهو فارس مشهود له بينهم، كان لمقتله أثراً نفسياً سيئاً على الروم، فاندفع المسلمون في معنويات عالية تضرب في الروم، حتى خارت قواهم وانهزموا أمام أبطال المسلمين، وفروا في اتجاه الإسكندرية، لعلهم يجدون خلف حصونها أماناً ونجاةً من الموت.

وفي طريقهم إلى الإسكندرية أخذوا يفسدون الطرق المعبدة حتى لا يلحق بهم المسلمون، ويدمرون الجسور القائمة أملاً في تعطيل المسلمين عن ملاحقتهم وتعقبهم، ولكن الله سخر المصريين الذين فرحوا بنصر الله، فجعلوا يصلحون ما أفسده الروم الهاربين، ويقيمون ما دمروه من الجسور، وأبدى المصريون سرورهم وغبطتهم بانتصار المسلمين على العدو الذي انتهك حرماتهم، واعتدى على أموالهم وممتلكاتهم، وقدّموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمؤونة[2].

أما عمرو بن العاص فقد دفن الشهيد البطل «حومل» وتوجه بجيشه نحو الإسكندرية، فوجد الروم قد تحصنوا بأسوارها وحصونها، ونصبوا العرادات يرمون بها كل من حاول الاقتراب منها[3].

ولما رأى عمرو ارتفاع أسوارها ومناعة حصونها، تأكد أن ذلك هو سبب صمودها أمام جيشه، ولذلك فقد أقسم عمرو رضوان الله عليه لئن

---

(١) الخطط للمقريزي ١٦٨/١.
(٢) هيكل في كتابه عثمان ص ٦٩.
(٣) فتوح البلدان ص ٢٢٣.

فتحها الله عليه، وتم له الاستيلاء عليها ليهدمن سورها، وليجعلنها بلا أسوار تؤتى من كل مكان[١].

حاصر عمرو المدينة، ثم نصب عليها المجانيق، وضربها ضرباً شديداً حتى ضعف أهلها وتصدعت أسوارها وحصونها، وفتحت المدينة أبوابها ودخل المسلمون الإسكندرية.

وقاتل المسلمون الروم قتالاً شديداً، وقتلوا الذين حملوا السلاح ضدهم وقاتلوهم، وأسروا النساء والذرية، وهرب من نجا في اتجاه البحر فركبوا السفن، وقُتِلَ قائدهم منويل، ولم يكف المسلمون عن القتل والسبي حتى توسط المسلمون المدينة، وانعدمت المقاومة، ولم يكن هناك من يقاوم أو يتصدى لهم[٢].

وفي المكان الذي توقف فيه القتال بنى عمرو مسجداً سماه مسجد الرحمة[٣].

وعادت الإسكندرية إلى الإسلام وأهلها مطمئنة غير خائفة، وعاد بنيامين بطريق القبط إلى الإسكندرية بعد أن فرَّ مع الفارين، وأخذ يرجو عمراً ألا يسيء معاملة القبط لأنهم لم ينقضوا عهده مع المسلمين، ولم يتخلوا عن واجبهم، ورجاه ألا يقصد صلحاً مع الروم، وأن يدفنه إذا مات في كنيسة يحنس[٤].

وشكى المصريون نهب الروم لأموالهم، وقالوا لعمرو بعد أن شكروه على تخليصهم من الروم وأبلغوه ولاءهم وطاعتهم: إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا، ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة.

---

(١) المقريزي ١٦٧/١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) عثمان لهيكل ص ٧٠.

فطلب منهم عمرو أن يقيموا البينة على ما ادعوا، ومن أقام بينة وعرف ما له بعينه رده عليه[1].

وهدم عمرو سور الإسكندرية وتركها بغير سور.

وأصبحت الإسكندرية آمنة تحت حكم المسلمين، وذلك في عام ٢٥ هجرية.

٢ ـ **فتح شمال إفريقيا:** تطلع عمرو بن العاص إلى فتح إفريقيا بعد أن حقق النصر على الروم في مصر، وبلغ بالفعل طرابلس، وأرسل إلى عمر يقول: إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقيا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل.

فردَّ عليه عمر ينهاه قائلاً: ما هي بإفريقيا، ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها[2].

فرجع عمرو بن العاص رضي الله عنه والتزم بأمر الخليفة رضي الله عنه، ولقد صدق توقع عمر بن الخطاب، فقد تمردت الإسكندرية كما تحدثنا عن هذا التمرد في عهد عثمان في الصفحات السابقة.

ولما تولى عثمان رضي الله عنه، كرر عمرو بن العاص طلبه ورغبته في فتح إفريقيا، وكان عثمان رضي الله عنه قد عزم على أن يوليَّ عمرو بن العاص على الحرب، ويولي عبدالله بن سعد بن أبي السرح على الخراج، فأبى عمرو ذلك وقال: أنا كماسك قرني البقرة والآخر يحلبها[3].

عزل عثمان عمرو بن العاص واستقدمه إلى المدينة، فقدم مغضباً، ودخل على عثمان وعليه جبة محشوة قطناً، فلما دخل على عثمان أراد عثمان أن يداعب عمراً ليذهب ما في نفسه من غضب فقال: ما حشو جبتك؟

---

(١) الكامل في التاريخ ٨١/٣.

(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٥.

فرد عمرو: محشوة عمرو.

قال عثمان: قد علمت أن حشوها عمرو، ولم أرد هذا، إنما سألت، أقطن هو أم غيره؟[1].

ومضى عثمان رضي الله عنه في قراره، فولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح الخراج والجند، وخلص له الأمر في مصر بعد عزل عمرو بن العاص.

وتطلع عبدالله هو الآخر إلى غزو إفريقيا، فطلب الإذن من عثمان، فتردد عثمان في بداية الأمر، واستشار المسلمين، فأشاروا عليها بغزوها[2].

فكتب إلى عبدالله بن سعد يأمره بغزوها، بعد أن أمده بجيش عظيم فيه الكثير من الصحابة الأجلاء وعظماء الناس، مثل: عبدالله بن الزبير، والمسور بن مخرمة، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وبسر بن أرطأة، ومروان بن الحكم، ومعبد بن العباس بن عبد المطلب، والحارث بن الحكم، وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وعاصم بن عمر، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي، وتوفي بها، فقام عليه ابن الزبير حتى واراه في قبره[3].

وخرج جمع كثير ممن حول المدينة مع الجيش الذاهب إلى إفريقيا، ولما وصل الجيش استقبله ابن أبي السرح، وأعدّه إعداداً جيداً، ثم مضى به إلى إفريقيا حتى وصل إلى برقة، وهناك التقى بعقبة بن نافع ومن معه من المسلمين، وانضم الجيشان وساروا نحو طرابلس الغرب.

كانت طرابلس جزءاً من مملكة «جرجير» التي تمتد إلى طنجة، وكان «جرجير» والياً عليها من قبل هرقل، يجمع له خراجها كل عام ويرسله إليه.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٨٨.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢٨.

(٣) المصدر السابق.

وكان جرجير قد استقل عن هرقل بهذه المملكة لنفسه، ولما بلغه أن المسلمين في طريقهم إليه أعدَّ جيشاً ضخماً قوامه مائة ألف وعشرون ألف فارس، خرج من عاصمته سبيطلة والتقى بالمسلمين خارجها.

وكعادة المسلمين في بداية كل قتال أو فتح أرسل عبدالله بن أبي سرح إلى جرجير يدعوه إلى الإسلام، فأبى؛ فطالبه بالجزية فرفض واستكبر، فلم يكن هناك بد من القتال[1].

ويسوق البلاذري رواية عن إفريقيا رواها عبدالله بن الزبير، يقول ابن الزبير: «أغزانا عثمان بن عفان، وكان بها بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة، فسار عبدالله بن أبي السرح حتى حلَّ بعقوبة فقاتله أياماً فقتله الله وأنا كنت الذي قتلته، فهرب جيشه فتمزقوا، وبث ابن أبي سرح السرايا ففرقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة، واستاقوا من المواشي ما قدروا عليه، فلما رأى ذلك عظماء إفريقيا اجتمعوا فطلبوا من عبدالله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يكُفَّ عنهم، ويخرج من بلادهم فقبل ذلك[2].

وفي تفاصيل المعركة التي ساقها ابن الأثير في تاريخه: أن القتال بين الفريقين كان يبدأ من الصباح الباكر إلى أذان الظهر، فإذا أذّن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه، لحظ ذلك عبدالله بن الزبير فسأل عن عبدالله بن أبي سرح فلم يجده بين المسلمين، فلما سأل عنه، قيل له: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبدالله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوِّجه ابنتي، فخاف ابن أبي السرح من غدر هؤلاء. فذهب إليه ابن الزبير وقال له: تأمر منادياً ينادي: من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف، وزوجته ابنته، واستعملته على بلاده، ففعل عبدالله بن سعد ذلك، فصار جرجير خائفاً أشد من عبدالله![3].

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير ٨٩/٣.

(٢) البلاذري في فتوح البلدان ص ٢٢٨.

(٣) الكامل ٩٠/٣.

استغل عبدالله بن الزبير حالة القتال المعتادة، والتي تبدأ من الصباح حتى أذان الظهر، والتقى بابن أبي السرح وفي رأسه خطة تحسم الأمر للمسلمين فقال له: «إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في إمدادات متصلة، وبلادهم هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر حتى يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ممن لم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم»(١).

عُرضت الخطة المحكمة على أهل الشورى في جيش المسلمين فوافق عليها الجميع وتحمسوا لها كثيراً.

وعند صباح اليوم التالي التقى الجيشان، ولم يكن مع ابن الزبير إلا عامة المقاتلين، أما الشجعان والأبطال وأهل البلاء فقد استبقاهم عبدالله في خيامهم، ليستريحوا ويتأهبوا للقتال بعد انتهاء المعركة المعتادة كل يوم.

ودارت المعركة كشأنها المعتاد كل يوم، ولم يلحظ الروم أي اختلاف، وعند الظهر هم النّاس بالانصراف عن القتال إلا أن ابن الزبير ألح عليهم بالقتال حتى يجهدهم أكثر، فلما رأى أن الإجهاد والتعب قد أخذ منهم مأخذاً، تركهم يعودون إلى خيامهم، وعاد برجاله إلى خيامه، واستلقى جند جرجير في خيامهم بعد أن ألقوا سلاحهم، وقد اطمأنوا إلى أن القتال لن يعود إلاّ في صباح الغد، فاستسلموا للاسترخاء، وفيما هم على هذه الحال، خرج إليهم عبدالله بن الزبير بالرجال الأبطال، الذين لم يشتركوا في القتال منذ الصباح، وفاجأوا جند جرجير وهم مستلقون، فلم يمكنوهم حتى من لبس سلاحهم، عندما نهضوا للدفاع عن أنفسهم.

وفي ذلك يقول المؤرخون(٢): فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم

---

(١) المصدر السابق ٣/٩٠.

(٢) ابن الأثير في تاريخه الكامل ٣/٩٠.

حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير ـ قتله ابن الزبير ـ وانهزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وتحدث عبدالله بن الزبير عن قتله لجرجير فيقول: «نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف، وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان، فأمر بهم فحموا ظهري، وذهبت حتى خرقت الصفوف، وهم يظنونني أني في رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحسَّ مني الشر ففر على برذونه، فلحقته فطعنته برمحي، وذففت عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر تفرقوا وفروا كفرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فغنموا غنائم جمّةً وأموالاً كثيرة وسبياً عظيماً، وكان ذلك ببلد يقال له: سبيطلة على يومين من القيروان[1].

كان جيش جرجير قوامه مائة وعشرون ألفاً على أقل تقدير، وكان جيش المسلمين لا يزيد على عشرين ألفاً على أكثر تقدير، لكنهم أنزلوا به هزيمة ساحقة، استطاع المسلمون بعدها فتح إفريقيا، فقد زحفوا بقيادة عبدالله بن أبي سرح إلى سبيطلة عاصمة جرجير وحاصروها حصاراً شديداً حتى استسلمت، ودخلها جيش المسلمين، وقضى على من فيها من بقايا جيش الروم.

وواصل المسلمون زحفهم لمطاردة بقايا جيش العدو، والتي أسرعت للتحصن في حصن يقال له: «الأجم»، فأسرع المسلمون، وحاصروا الحصن، ومنعوا الجيش الفار من دخوله، واستولوا عليه، ودحروا ما بقي من جيش الروم[2].

وانتشرت سرايا المسلمين في شمال إفريقيا، فاستولت على سائر

---

(١) ابن كثير ١٥٢/٧ في البداية والنهاية.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩١/٣.

الحصون التي صادفتها، ولم يعد للروم مكان فيها، واضطر البربر أمام زحف المسلمين الكاسح والذي كاد يقضي على ما لهم من سلطان في هذه البلاد، اضطروا أن يعرضوا الصلح، فصالحهم المسلمون على ألفي ألفِ وخمسمائة ألف دينار.

وكانت ابنة جرجير من سبايا هذه المعارك، فنفلها عبدالله بن سعد لابن الزبير، وبعثه إلى عثمان كي يبشره بالفتح(١).

وعاد عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر دون أن يولي عليها أحداً.

فتح قبرص

طلب معاوية بن أبي سفيان أمير دمشق من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأذن له في غزو البحر، وكان عمر يتحفظ دائماً على ذلك، فلما ألحَّ عليه معاوية، كتب إلى عمرو بن العاص يقول له: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه.

فكتب إليه عمرو بن العاص: إني رأيت خَلْقاً كبيراً يركبُهُ خلقٌ صغير، إن ركُنَ خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّةً، والشَّكُّ كثرةً، هُمْ فيه كَدودٍ على عودٍ، إن مَالَ غَرِقَ، وإن نجا بَرِقَ(٢).

فلما قرأ عمر كتاب عمرو بن العاص رضي الله عنهما كتب إلى معاوية: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً.

وقيل: إن عمر كتب إلى معاوية: إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء على الأرض، يستأذن الله كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب، وتالله

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري ٢٥٤/٤.

لمسلم أحبُّ إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء مني، ولم أتقدم إليه في مثل ذلك.

وعاد معاوية يستأذن عثمان بعد وفاة عمر في غزو البحر، ولم يزل به حتى عزم عثمان على ذلك، واشترط عليه شروطاً جاء فيها:

لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهُمْ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل، واستعمل على البحر عبدالله بن قيس الحارثي، حليف بني فزارة.

وعبدالله بن قيس كان يدعى أمير البحر في صدر الإسلام، كان مقيماً بالشام، غزا خمسين غزوة في البحر بين شاتيه وصائفة، ولم يغرق فيها أحد ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده، خرج في قارب طليعةً، فانتهى إلى المرقى من أرض الروم، وعلى هذا المرقى فقراء يرتادون هذا المكان، فتصدّق عليهم، فرجعت امرأة من هؤلاء الفقراء إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبدالله بن قيس؟

قالوا: وأين هو؟

قالت: في المرفأ، وفي المرقى.

قالوا: أي عدوة الله، ومن أين تعرفين عبدالله بن قيس؟

فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبدالله على أحدٍ.

فثاروا إليه، فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه.

وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتيه؟

قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك، ولم يقبض قبض التجار.

نعود إلى معاوية، فقد غزا قبرص في سنة ثمان وعشرين، فأعدَّ المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي، واتخذ ميناء عكا مكاناً للإقلاع،

وكانت المراكب كثيرة، قيل: إنها صنعت له في مصر، وحمل معه زوجته قاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة[1].

وأم حرام هذه صحابية جليلة بشّرها الرسول ﷺ بفتح قبرص، وقصتها مشهورة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أُم حرام فتطعمه، وكانت أُم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فأطعمته، ثم جلست تفلي من رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك.

فقالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: **«ناس من أُمتي عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة أو مثل الملوك على الأسرّة»**.

قالت: فقلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها.

ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك.

قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: **«ناس من أُمتي عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله...»** وقال كما قال في المرة الأولى.

قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم.

قال: **«أنت من الأوّلين»**.

فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٥٣/٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

نعود إلى معاوية، فإنه عمل بوصية عثمان رضي الله عنه، ولم يجبر الناس على الخروج، ورغم ذلك فقد خرج معه جيش من المسلمين[1].

ولربما كان المسلمون قد اطّلعوا على حديث أم حرام مع رسول الله ﷺ، وها هي تخرج مع زوجها عبادة بن الصامت لتركب البحر، ولذلك تدافع أو لربما تدافع المسلمون وتسابقوا إلى الخروج للغزو في البحر.

وذكر البلاذري أن الخروج كان بعد انتهاء فصل الشتاء، في سنة ثمان وعشرين من الهجرة[2].

وسار المسلمون من الشام وركبوا السفن من ميناء عكا متوجهين إلى قبرص، وفي مقدمتهم سفينة معاوية، تتبعها بقية السفن، فلما وصلت السفن جزيرة قبرص، ونزل المسلمون إلى الساحل، تقدمت أُم حرام لتركب دابتها فنفرت الدابة، وألقت أم حرام على الأرض فاندقت عنقها فماتت[3]. ودفنت أم حرام في جزيرة قبرص، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[4].

وبعد الرسو على شاطىء قبرص تشاور معاوية مع أصحابه وكان على رأسهم: أبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وشداد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وجبير بن نفير الحضرمي[5].

واتفقوا على أن يرسلوا رسالة إلى أهل قبرص يخبرونهم فيها أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم، ولكنهم أرادوا تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام.

---

(١) البداية والنهاية ١٥٣/٧.
(٢) فتوح البلدان ص ١٥٨.
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩٧/٣.
(٤) فتوح البلدان ص ١٥٨.
(٥) المصدر السابق ص ١٥٩.

لكن سكان الجزيرة تحصنوا في العاصمة «قُسطنطينا» ولم يخرجوا معها لمحاربة المسلمين، ولم يردوا جواباً عليهم يفيد باستسلامهم.

لذلك فقد تقدم المسلمون نحو العاصمة «قسطنطينا» وحاصروها، وبعد ساعات طلب أهلها الصلح، فصالحهم المسلمون على أن يدفع سكان الجزيرة سبعة آلاف ومائتي دينار كل عام، وعلى إلا يساعدوا الروم ضد المسلمين، ويدلوهم على تحركاتهم، ولا يطلعوهم على أسرارهم.

وظل القبرصيون سنوات وهم ملتزمون بشروط الصلح ولم يحاولوا الإخلال به، وظل الأمر على هذه الحال حتى عام اثنتين وثلاثين هجرية، حيث ضغط الروم على سكان قبرص وأجبروهم على إمداد جيشهم بالسفن لغزو المسلمين، وبذلك أخلوا بشروط الصلح ونقضوه.

وعلم عبدالله بن أبي سرح والي مصر بنقض قبرص عهدها، وعلم أيضاً معاوية جهز جيشاً لغزوها في سنة ثلاث وثلاثين، وحمل جيشه على خمسمائة مركب(١)، وأمَّر عليهم عبدالله بن قيس حليف بني فزارة(٢) ـ الذي تحدثنا عنه آنفاً ـ، وتوجه عبدالله بن أبي سرح بجيش آخر من مصر، والتقيا في جزيرة قبرص(٣).

هاجم المسلمون جزيرة قبرص هجوماً عنيفاً، فقتلوا وأسروا وسلبوا، فقد هاجمها معاوية من جهة، وعبدالله بن أبي سرح من جهة أخرى، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبايا كثيرة، وغنموا مالاً جزيلاً جيداً(٤).

قال ابن كثير: ولما كثر السبي في أيدي المسلمين بكى أبو الدرداء رضي الله عنه.

فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟

---

(١) فتوح البلدان ص ١٥٨.
(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٦٠.
(٣) الكامل لابن الأثير ٣/٩٦.
(٤) البداية والنهاية ٧/١٥٣.

فقال أبو الدرداء: ويحك، إن هذه كانت أُمةٌ قاهرة، لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط الله على قوم السبي فليس لله فيهم حاجة، ثم قال: ما أهون الخلق على الله تعالى إذا تركوا أمره(١).

وتحت ضغط الهجوم الإسلامي، والقتل والأسر اضطر أركون قبرص ـ قائدها وحاكمها ـ أن يرفع يديه ويستسلم للفاتحين، ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول(٢).

وجعل عليهم معاوية جيشاً يحميهم يتكون من اثني عشر ألفاً من الجنود، ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجداً، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم، وأصبحت الجزيرة هادئة، آمنة مطمئنة، لا يطمع فيها طامع بيزنطي أو رومي وهي تحت ظل الإسلام.

معركة ذات الصواري

أراد قسطنطين بن هرقل الانتقام من المسلمين بعد أن أصابوا من الروم في إفريقيا ما أصابوا، فخرج سنة إحدى وثلاثين في جمع لم يسبق له مثيل، ولم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام.

فخرج إليهم أهل الشام وعليهم أميرهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى أهل البحر عبدالله بن سعد بن أبي سرح من مصر، وكان الروم قد خرجوا في خمسمائة مركبٍ، فالتقوا هُمْ وعبدالله بن سعد بالقرب من شواطىء «كيليكيا» جنوب بلاد الأناضول على مقربة من بلاد الشام، فأمن بعضهم بعضاً حتى قَرَنوا بين سفن المسلمين وسفن أهل الشرك بين صواريها.

ويتحدث أحد أبطال المسلمين وهو مالك بن أوس بن الحدثان عن ذات الصواري فيقول: كنت معهم، فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما

(١) المصدر السابق.

(٢) فتوح البلدان ص ١٥٨.

رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منا، وسكنت الريح عنّا، فقلنا: الأمن بيننا وبينكم.

قالوا: ذلك لكم ولنا منكم.

ثم قلنا: إن أحببتم فالساحل، حتى يموت الأعجل منا ومنكم!! وإن شئتم فالبحر.

قال مالك بن أوس: فنخروا نخرةً واحدة، وقالوا: الماء، فدنونا منهم، فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم، فقاتلنا أشد القتال، ووثب الرجال يضطربون بالسيوف على السفن، ويتواجؤونَ بالخناجر، حتى رجعت الدماءُ إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً[1].

ودارت المعركة بين الفريقين رهيبة ومفزعة، واستعمل الفريقان السيوف والخناجر كما ذكر «مالك بن أوس»، وقاتلا أشد القتال، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح يمر على المسلمين في نواحي السفن فيأمرهم بقراءة القرآن ويحثهم على الصبر.

ولما اشتد القتل في الروم أحسوا أنها النهاية، فوثبوا على صفوف المسلمين في سفنهم فنقضوها، وقاتل المسلمون على غير صفوف، وسالت الدماء حتى أصبح لون مياه البحر أحمراً قانياً، وأخذت الأمواج تضربها إلى الشاطىء فترتد، حتى بدا البحر وكأنه بحيرة من الدم، وقذفت الأمواج جثث القتلى على الشاطىء حتى رآها المقاتلون وكأنها ركام من الرمل[2].

في هذه اللحظات التي رجحت فيها كفة المسلمين فكر قنسطاتر ملك الروم في خدعة أراد بها أسر قائد المسلمين عبدالله بن أبي سرح، فأمر الجنود بخطف مركب أمير البحر عبدالله بن سعد، ونجح جنود «قنسطاتر» في سحب مركب القائد الإسلامي بخطاطيفهم، وأخذوا يجرونها إليهم،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٩٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩١.

ورغم الدهشة التي أخذت المسلمين من هذا الموقف الذي بدا وكأنه سيمضي من بين أيديهم، وها هو أميرهم يقاد إلى الروم ليقتلوه، وكيف يخلصونه وقد اقتربت مركبه منهم.

ولكنهم فوجئوا «بعلقمة بن يزيد» وكان مع الأمير في مركبه، يلقي بنفسه على السلسلة الضخمة التي يسحب العدو بها مركب قائده عبدالله بن أبي سرح، وأخذ يقطع السلسلة بسيفه، والروم يضربونه وهو صابر متحمل، وظل على هذه الحال حتى انقطعت السلسلة واستدار الملاح بالسفينة، ونجح في الإفلات من يد البيزنطيين، فوقفوا ينظرون إلى المركب وهي تنضم إلى الأسطول المظفر بعد أن كادت تكون غنيمة باردة لهم[١].

وهجم المسلمون على العدو، فهاجموا مركب الملك، وحاولوا اصطياده لكنه تخفى وهرب على ظهر أحد المراكب، وتمكن من الفرار إلى جزيرة صقلية[٢].

ودفع المسلمون كعادتهم ثمناً كبيراً، بل فاز عدد كبير منهم بالشهادة، فقتل منهم خلق كثير، وقتل من الكفار ما لا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام، وانهزم قسطنطين مدبراً... ولقد أصابه يومئذ جراحات كثيرة ظلت لوقت طويل[٣].

وفر الروم في هذا اليوم تاركين خلفهم عشرات الآلاف من القتلى، وأقام ابن أبي سرح بذات الصواري أياماً بعد هزيمة البيزنطيين، ليستجم الجيش ويقوى على وعثاء السفر، والعودة إلى الإسكندرية بعد هذه المعركة المرهقة.

ورجع عبدالله بن سعد إلى الإسكندرية مؤيداً منصوراً مظفراً[٤].

---

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ٢٥٧/١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تاريخ الطبري ٢٩١/٤.
(٤) البداية والنهاية ١٥٧/٧.

أما قسطنطين فقد غضب عليه أهل صقلية لهزيمته وفراره رغم ما أخبرهم به عن تفوق المسلمين، ولكنهم قالوا له: أهلكت النصرانية، وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن عندنا مَنْ يمنعهم، ثم سلطوا عليه من يقتله فقتلوه.

وسمحوا للمراكب التي قدمت به في الذهاب إلى القسطنطينية فعادت من غير ملك، وأمضى الله عز وجل النصر لجنده.

الفتنة ومقتل عثمان

لعل تأريخ هذه الحقبة الزمنية كان هو الأصعب على كل من كتب فيه، لأنه ما من مسلم كان يتوقع أن تفعل هذه الفتنة ما فعلته بالإسلام والمسلمين، ولكنها إرادة الله عز وجل.

لقد ظلت الحياة في المدينة، بل في بلاد الإسلام جميعها هادئة مطمئنة، تنعم بالانتصارات وبأخبار الفتوح العظيمة، ونصر الله الذي حالف جيوش المسلمين الفاتحة في كل مكان.

أما الخليفة عثمان رضي الله عنه فقد زاد في أعطيات المسلمين، ووسَّع عليهم في أرزاقهم وشملهم جميعاً ببرّه وحلمه، فعاشوا حياة لينة مترفة.

هكذا كان حال المسلمين على مدار ست سنوات من خلافة عثمان رضي الله عنه، فلم يسمع ناقماً عليه، ولم يعرف شيء يؤخذ على أمير المؤمنين، وكان عثمان أحب إلى الناس وإلى قريش من عمر بن الخطاب، وذلك لما اتصف به من اللين والرحمة في معاملة المسلمين، ولأنّه وسَّعَ عليهم ولم يتشدّد[١].

وخرج رجل يهودي حاقد هو عبدالله بن سبأ بأقوال هي بذور الفتنة، وبدأ ينثرها هنا وهناك، وأخذ يحرض المسلمين على عثمان ويقول: إن

---

(١) طبقات ابن سعد ٦٤/٣.

عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وإن المستحق للخلافة هو علي رضي الله عنه.

ويقول: هذا وصي رسول الله ﷺ، انهضوا إلى هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا النّاس، وادعوهم إلى هذا الأمر[1].

هذه هي أفكار ابن سبأ التي فتن بها الناس تحت شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولكنه في الحقيقة ما أراد أمراً بالمعروف ولا نهياً عن المنكر، بل أراد الشر بالمسلمين.

والأخطر من هذا وذاك أن عبدالله بن سبأ بدأ يتنقل في بلاد المسلمين ينشر أفكاره الضالة، ويفسد عقيدتهم، فخرج من صنعاء إلى الحجاز، ولكنه لم يجد آذاناً صاغية، وذهب إلى البصرة، ثم إلى الكوفة، وتوجه منها إلى بلاد الشام ولكنه كان يطارد من الأمراء في كل مكان ينزل فيه، واستقر أخيراً في مصر[2]. واستطاع هذا اليهودي الخبيث، أن يصنع له أتباعاً في الكوفة والبصرة ومصر.

أما في الشام فإنه وجد إعراضاً ونفوراً شديداً، فكان يثيرهم على أميرهم معاوية رضي الله عنه، ولقد اتصل في الشام ببعض الصحابة، فقد اتصل بأبي الدرداء رضي الله عنه وحرّضه على معاوية، ولكن أبا الدرداء رضي الله عنه رفض أفكاره وأمسك به قائلاً: من أنت؟ أظنك والله يهودياً، ولم يجد في أبي الدرداء أملاً يُرجى، فاتصل بعبادة بن الصامت رضي الله عنه، لكن عبادة كشف أمره فأمسك به وسار به إلى معاوية وقال له: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر[3].

ومما كان يلقيه هذا الملعون في سبيل إفساد العقيدة ـ عقيدة المسلمين ـ

(١) تاريخ الطبري ٣٤٠/٤.

(٢) المصدر السابق ٣٤١/٤.

(٣) الكامل في التاريخ ١١٤/٣، ١١٥.

قوله: «عجيب من يزعم أن عيسى يرجع، وَيُكذِّبُ بأن محمداً يرجع، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥] فمحمد أحق بالعودة والرجوع من عيسى».

وهكذا بدأ الخبيث في التشكيك بعقيدة المسلمين، وكان الناس على فطرتهم حديثي العهد في الأمصار، لا يعرفون الفلسفة والجدل، وهذا اليهودي ماكر خبيث، بغير تفسير الآيات، ويفتري الكذب[(١)].

واتخذ هذا اليهودي من عليٍّ بن أبي طالب دريئة له يقي نفسه بها، حتى لا يظهر على حقيقته فيقال: إنه يهدم، بل ليقال: إنّه يريد الخير، فهو يدعو لصحابي جليل لا شبهة فيه، فإذن لا شبهة بما يقول هذا الدَّعِيُّ[(٢)].

ثم يضيف الأستاذ محمود شاكر فيقول: ثم زاد بالكفر فعدَّ عليًّا هو الرسول الخاتم، ولكن الأمين جبريل قد تاه فنزل على محمد، وكان عليه أن ينزل على عليٍّ.

ثم تمادى في الكفر والضلال فجعل علياً فوق مستوى البشر.

هذه المغالات قد أفسدت عقيدة كل من وافق عليها أو أخذ بها، وأخرجت أصحابها من المِلّةِ، وفي الوقت نفسه فقد زرعت بذور الشقاق بين المسلمين ما دامت هذه الأفكار أو بعضها قائماً يقول به بعض الناس[(٣)].

ويبدو أن ابن سبأ قد يئس من الشام كما يئس من الحجاز، واكتفى بمن اتبعه من أهل الأمصار الأخرى كمصر والكوفة والبصرة، وبدأ الثوار يوجهون التهم إلى الخليفة، وهم بعد في أماكنهم، ليثيروا بذلك شكوك المسلمين، ويوغروا صدورهم على الخليفة.

---

(١) انظر: الأمين ذو النورين للأستاذ محمود شاكر ص ٢٢٤ طبعة المكتب الإسلامي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٥.

فلما وجدوا الفرصة سانحة تواعدوا أن يذهبوا إلى المدينة لمحاصرة الخليفة وإجباره على التنازل عن الخلافة، أو يقتلوه ويتخلصوا منه، إلى هذا الحد الماكر الخبيث كانوا يفكرون.

وجاؤوا إلى المدينة، فتظاهروا بأنهم يريدون الحج، حتى يخفى أمرهم عن المسلمين، فنزل أهل البصرة بذي خشب، ونزل أهل الكوفة ومصر بذي المرو، وكان ذلك في شهر شوال.

وكان كل منهم يهوى شخصاً للخلافة، فمتمردوا الكوفة يفضلوا الزبير بن العوام، ومتمردوا البصرة يريدون طلحة بن عبيد الله، ومتمردوا مصر لا يريدون غير علي بن أبي طالب.

كان ذلك في نفوسهم سرّاً لا يصارحون بعضهم البعض به، بل كان كل منهم يريد أن يبايع خليفته سرّاً!!

أتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت متقلداً سيفه، وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمعوا إليه، فسلموا عليه - أي سلم المصريون على عليٍّ - وعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وجيش ذي خشب والأعوص ملعونوا على لسان محمد، فانصرفوا عنه.

وأتى البصريون طلحة فقال لهم مثل الذي قاله علي، وكان طلحة قد أرسل ابنيه إلى عثمان.

وجاء الكوفيون إلى الزبير فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنه عبدالله بن الزبير إلى عثمان[1].

ورجعوا خائبين، لأن بيعة الخليفة في الإسلام لا تتم إلا أمام لناس جميعاً، ولا تكون بيعة إذا كانت سرّاً مكتوماً لا يعلمه إلا من بايعه.

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٥٩/٥.

وقد وجّه المتمردون إلى الخليفة تهماً حصرها المؤرخون في اثنتي عشرة[1]، ولكن الخليفة فندها كلها ولم يترك لهم مجالاً يستمسكون به.

ويسرد الطبري ردود عثمان على هؤلاء، فقد أرسل عثمان إلى الكوفيين والبصريين، ونادى: الصلاة جامعة! وهم عنده في أصل المنبر، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أحاطوا بهم، فحمد الله وأخبرهم خبر القوم، وكان قد أرسل إليهم رجلين: مخزومياً وزُهرياً[2]. فعرض عليهم ما يريدون فأجابوا جميعاً: اقتلهم يا أمير المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ قال: **«من دعا إلى نفسه أو أحد، وعلى الناس إمام فعليه لعنةُ الله، فاقتلوه»**.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أُحلُّ لكم إلاّ ما قتلتموه وأنا شريككم.

ولكن عثمان رضي الله عنه كان رجلاً عفواً كريماً، فيه رحمة ولين، فأجاب الناس قائلاً: بل نعفو، وَنَقْبَلُ، ونبصرهم بجهدنا، ولا نحادَّ أحداً حتى يَرْكَبَ حدًّا، أو يُبْدي كفراً، إن هؤلاء قد ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم، إلاَّ أنهم زَعَمُوا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها على عند من لا يعلم.

وبدأ عثمان يفند ردودهم واحداً واحداً فقال:

١ ـ قالوا: أَتمَّ الصلاةَ في السفر، وكانت لا تُتَمُّ، ألا وإنِّي قدِمتُ بلداً فيه أهلي، فأتممت لهذين الأمرين، أَو ـ كَذَلِك؟.

قالوا: اللهم نعم.

٢ ـ وقالوا: وحَمَيْتَ حِمَى، وإني والله ما حَمَيْتُ حِمَى قَبْلِي، والله ما

---

(١) الطبري جـ ٤.

(٢) ذهبا إليهم من قبل عثمان، ولما سألوهم قالوا: نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب، ثم نرجع إليهم فنزعم أنَّا قررناه بها، فلم يخرج منها، ولم يتب، ثم نخرج كأننا حجاج فنحيط به ونخلعه، فإن أبى قتلناه، وكانت إياها، فرجعا إلى عثمان بالخبر، ضحك وقال: اللهم سلم هؤلاء، فإنك إن لم تُسلِّمهم شقوا.

حموا شيئاً لأحد إلاً غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعية أحد واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحَدٍ تنازعٌ، ثم ما منعوا ولا نحُوا منها أحداً إلاّ من ساق درهماً وما لي من بعير غير راحلتين، وما لي ثاغبة ولا راغية، وإني وُلّيتُ، وإني أكثر العرب بعيراً وشاءً، فما لِي اليومَ شاةٌ ولا بعيرٌ غير بعيرينِ لِحَجِّي، أكذلك؟

قالوا: اللهم نعم.

٣ ـ وقالوا: كان القرآن كُتُباً، فتركتها إلا واحداً، ألا وإنَّ القرآن واحدٌ، جاء من عند واحدٍ، وإنّما أنا في ذلك تابع لهؤلاء، أكذلك؟

قالوا: اللهم نعم، وسألوه أن يقيلَهُمْ.

٤ ـ وقالوا: استعملت الأحداث[1] ولم أستعمل إلاّ مجتمِعاً محتلِماً مَرْضياً، وهؤلاء أهلُ عَملهم، فسلوهم عنه، وهؤلاءِ أَهْلُ بلدِهِ، وقد ولّى مَنْ قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ، أشدُّ مما قيل لي في استعماله أسامة بن زيد، أكذلك؟

قالوا: اللهم نعم، يعيبون للناس مما لا يفسرون.

٥ ـ وقالوا: إني أعطيت ابن أبي السرح ما أفاءَ الله عليه، وإني إنما نفلته خُمسَ ما أفاءَ الله عليه من الخمس، فكان مائة ألف، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك، فرددته عليهم، وليس ذاك لهم، أكذلك؟

قالوا: نعم.

٦ ـ وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأَمّا حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأمّا إعطاؤهم فإني ما أعطيهم إلا من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطيّة الكبيرة الرغيبة من صُلْب مالي أزمان رسول الله ﷺ،

---

(١) أي وليت صغار السن.

وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي، وفني عُمْرِي، وودَّعت الذي لي في أهلي، قال الملحدون ما قالوا! فإني والله ما حَمَلْتُ على مِصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددتهم عليهم، وما قَدِمَ عَلَيَّ إلاَّ الأَخماس، ولا يحل لي منها شَيْءٌ، فوَلِي المسلمون وضعها في أهلي دوني، ولا تبلغت من مال الله بفِلِسٍ فما فوقَهُ، وما أتبلغ منه، ما آكُلُ إلاّ مالي.

٧ ـ وقالوا: أعطيت الأَرْضَ رِجالاً، وإنَّ هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أُسوةُ أَهْلِهِ، ومن رجع إلى أَهلِهِ لم يذهب ذلك ما حوى الله له، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاءَ الله عليهم فَبِعْتُهُ لهم بأَمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب، فنقلت إليهم نصيبَهُمْ، فهو في أيديهم دوني.

وكان عثمان قد قسَّم مالَهُ وأَرْضَهُ في بني أُميَّةَ، وجعل ولده كبعض من يعطي، فبدأ ببني أبي العاص، فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك.

وقسَّم في بني العاص، وفي بني العيص، وفي بني حرب.

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف من المشاغبين، وأبى المسلمون إلاّ قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم، فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوه مع الحُجاج كالحجاج، فتكاتبوا وقالوا: موعدكم ضواحي المدينة في شوال، حتى إذا دخل شوال من السنة الثانية عشرة من خلافة عثمان ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة[1].

وبعد أن فنّد الخليفة عثمان رضي الله عنه تهمهم، ذهب إليهم الإمام علي بن أبي طالب فأقنعهم بالعودة وأرضاهم حتى رضوا وانصرفوا راجعين إلى بلادهم.

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٤.

وتظاهروا بالانصراف، ولكن رجلين منهم لم ينصرفا مع المنصرفين هما: الأشتر النخعي وحكيم بن جبلة[١].

وفي تأخرهما شبهة قوية بأن لهما دخلاً في افتعال الكتاب المزور على أمير المؤمنين، فقد تخلفا ليدبرا أمراً، فقد زورا كتاباً على لسان أمير المؤمنين، وحمله رجل مجهول لم يستطع أحد من المؤرخين أن يجزم بأنه فلان من الناس[٢].

والأدهى من ذلك أن حامل الخطاب لما مرَّ بالثوار المتمردين، أخذ يتعرض لهم ويختفي عنهم، ثم يظهر ويختفي، وكأنه بذلك يقول لهم: تعالوا فأنا أحمل إليكم نبأً[٣].

فلما رأوه على تلك الحال انتابهم الشك، وسألوه: ما لك؟ وما شأنك؟؟

فأجاب: إني رسول أمير المؤمنين إلى عامله في مصر.

ففتشوه فعثروا معه على كتاب من عثمان إلى عبدالله بن أبي سرح أن يقتلهم أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف[٤].

ونجح الأشتر وحكيم فيما أرادا، حيث أثار هذا الخطاب حفيظة العائدين وجعلهم يرجعون إلى المدينة ليخلعوا الخليفة أو يقتلوه، لأنه نقض العهد الذي أعطاهم.

دخل هؤلاء المدينة وجعلوا يكبرون بصوت يهز أرجاء المدينة، ونزل المتمردون حول بيت الخليفة، فحاصروه من كل جانب، وقالوا: من كف يده فهو آمن[٥].

---

(١) تاريخ الطبري ٣٧٥/٤.
(٢) الدكتور محمد السيد الوكيل في كتابه جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تاريخ الطبري.
(٥) المصدر السابق ٣٥١/٤.

وكانت مفاجأة روعت المسلمين في المدينة، فخرجوا إليهم يكلمونهم في أسباب رجعتهم، وكانوا قد ذهبوا في هدوء، وممن سألهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قال لهم: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟

فقالوا: أخذنا مع البريد كتاباً بقتلنا.

وتحدث طلحة رضي الله عنه مع البصريين، والزبير رضي الله عنه مع الكوفيين، فقالوا: نحن نمنع إخواننا وننصرهم.

فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟

ثم قال: هذا والله أمر أبرم بالمدينة.

قالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا[1].

وإذا نظرنا إلى الحوار بين علي وطلحة والزبير من جهة، وبين المتمردين المصريين والبصريين والكوفيين من جهة، لوجدنا ما يثير الشك في صحة هذا الكتاب الذي ادعوا أن أمير المؤمنين أرسله إلى واليه على مصر.

يقول المؤرخون[2]: إنه ليس هناك كتاب قط، لا مزور ولا صحيح، لأنه لو كان المصريون هم الذين أمسكوا الرسول، وعثروا معه على الكتاب، وعادوا على المدينة على أثر ذلك، فمن الذي بلغ البصريين والكوفيين أمر الكتاب حتى يرجعوا؟ وطريق المصريين غير طريق العراقيين؟؟!!

فهي إذن مؤامرة دبرت بليل كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥١.

(٢) جولة في عصر الخلفاء د محمد السيد الوكيل ص ٣٩٢.

والذي يفهم من ذلك أن هؤلاء المتمردين قد تظاهروا بالانصراف بعد أن تواعدوا جميعاً على الرجوع إلى المدينة في موعد حدّدوه، ويؤكد ذلك عودتهم من جهاتهم المختلفة في يوم واحد، حتى هزوا أرجاء المدينة بالتكبير وحاصروا بيت الخليفة في ليلة واحدة.

حاصر المتمردون بيت الخليفة عثمان مدة أربعين يوماً، والخليفة عثمان رضي الله عنه يخرج للصلاة، فيصلي وهم يصلون خلفه ثلاثين يوماً، ثم منعوه من الصلاة، وصلى بهم أميرهم الغافقي بن حرب بقية أيام الحصار، وعندئذ تفرّق أهل المدينة فلزموا بيوتهم وبساتينهم ولم يصلوا وراءه، ولبسوا سيوفهم ليدفعوا بها عن أنفسهم إن أرادهم أحد بسوء[1].

حاول الصحابة تجنيد أبنائهم وأنفسهم للدفاع عن خليفة رسول الله ﷺ، وأرسل علي ابنه الحسن بن علي، ولكن الخليفة أصر على أن ينصرفوا، وكان آخر من انصرف الحسن بن علي رضي الله عنهما.

ولم يرغب عثمان في مواجهة بين المسلمين، وفضل حقن الدماء، فقد كان بإمكانه أن يخرج من أهل المدينة جيشاً يدافع به عن نفسه، ولكن لينه ورحمته وحياؤه رضوان الله عليه وخُلقه الطيب حالت دون ذلك.

ولما قرب موسم الحج، واشتد الحصار على عثمان رضي الله عنه، أشرف على المسلمين من سطح داره، واستدعى ابن عباس رضي الله عنهما، فأمره أن يحج بالناس، وكان ممن وقفوا بالباب ليدافع عن أمير المؤمنين، ولما اختاره عثمان ليحج بالناس قال:

ـ جهاد هؤلاء أحبُّ إليّ من الحج.

فأقسم عثمان عليه فانطلق[2].

---

(١) الكامل في التاريخ ١٦١/٣.

(٢) المصدر السابق ١٧٤/٣.

هجم المتمردون على دار عثمان وأحرقوا بابها، وكانت لهم صيحة وضوضاء وجلبة، في هذه اللحظات كان عثمان يصلي، وبدأ في سورة طه، فأكمل صلاته خاشعاً، فلما فرغ من صلاته جلس إلى المصحف يقرأ فيه، حتى قرأ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ومنع المتمردون الماء عن أمير المؤمنين فاستغاث بعلي وطلحة والزبير وأزواج النبي ﷺ طالباً الماء، فكان أول من لبى علي وأم حبيبة رضي الله عنهما، وذهبا إليه يحملان الماء، فمنعوا عليًّا، وظلت أم حبيبة تحتال بأن وصايا بني أمية عنده وإنها تخاف أن يموت فيضيع حق اليتامى والأرامل، ولم تنفع حيلتها فضربوا البغلة التي كانت تحمل الماء وأم حبيبة فكادت تلقيها على الأرض.

وعلم طلحة والزبير بما جرى لعلي وأُم حبيبة فلزما بيتهما، وظل عثمان لا يصله الماء إلا عن طريق دار آل ابن حزم في غفلة من المتمردين(١).

عند ذلك أحس المدافعون عن الدار وعن الخليفة أن حياته في خطر وما كانوا ليظنوا ذلك من قبل، فخرجوا للمتمردين واحد تلو الآخر يريدون المبارزة والقتال، فخرج المغيرة بن الأخنس بن شريق، وكان قد تعجل من الحج، وحضر إلى المدينة ليدافع عن الخليفة. فارتجز وهو خارج إليهم بقوله:

قد علمت ذات القرون الميل   والحلي والأنامل الطفول
لتصدقن بيعتي خليلي   بصارم ذي رونق مصقول
لا أستقيل إذا قلت ميل

وخرج الحسن بن علي يقول:

لا دينهم ديني ولا أنا منهم   حتى أسير طمار شمام

(١) المصدر السابق.

وخرج في أثره محمد بن طلحة مرتجزاً:

أنا ابن من حامى عليه بأُحد ... وردّ أحزاباً على رغم معد

وتبعه سعيد بن العاص وهو ينشد:

صبرنا غداة الدار والموت واقب ... بأسيافنا دون ابن أروى تضارب
وكنا غداة الروع في الدار نصرة ... نشافههم بالضرب والموت نائب

وبرز مروان بن الحكم وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل ... والكف والأنامل الطفول
أني أروع الرعيل ... بغارة مثل القطا الشليل

وأقبل أبو هريرة والناس محجمون فقال: هذا يوم طاب فيه الضرب، ونادى في الناس: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

ونشب القتال عنيفاً بين المدافعين عن الخليفة والثائرين عليه(١)، واقتحم المتمردون دار عثمان من الدور المحيطة بها حتى ملؤوا دار عثمان بعد أن دخلوا عليه من دار عمرو بن حزم، ولكنهم هابوه ولم يجرؤ أحد على قتله، فاختاروا رجلاً ليقتله.

فدخل عليه رجل فقال له: اخلعها وندعك.

فقال عثمان رضي الله عنه: ويحك!! والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا غنيت، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت رسول الله، ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى، حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة.

فلما سمع الرجل ذلك الكلام خرج عنه ولم يقتله.

(١) الطبري ٣٨٢/٤.

فسأله من بالباب: ما صنعت؟

فقال: والله لا ينجينا من الناس إلا قتله، ولا يحل لنا قتله!!

فأدخلوا رجلاً من بني ليث إلى الخليفة ليقتله، ودخل الرجل، ولم يكد يراه أمير المؤمنين حتى ابتدره قائلاً: لست بصاحبي، لأن النبي ﷺ دعا لك أن تحفظ يوم كذا وكذا ولن تضيع، فرجع الرجل وفارق المتمردين.

وأرسلوا له ثالث من قريش، فرجع وفارق أصحابه.

وأقبل عبدالله بن سلام رضي الله عنه، ينهاهم ويقول: يا قوم لا تسلوا سيف الله فيكم، والله إن سللتموه لا تغمدوه.

ويلكم!! إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف.

ويلكم!! إن مدينتكم محفوفة بالملائكة فإن قتلتموه ليتركنها.

فقالوا: يا ابن اليهودية، ما أنت وهذا، فرجع عنهم[1].

وفي هذه الأثناء كان عثمان يجلس في بيته وقد وضع المصحف بين يديه.

وقد روي عن السيدة نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان قالت: أغفى عثمان، فلما استيقظ قال: إن القوم يقتلونني.

فقلت: كلا يا أمير المؤمنين.

قال: إني رأيت رسول الله وأبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فقالوا: أفطر عندنا الليلة، أو قالوا: إنَّكَ تفطر عندنا الليلة[2].

كان عثمان رضي الله عنه صائماً في هذا اليوم، وقد بلغ المتمردون أن

---

(١) تاريخ الطبري ٣٩٠/٤، ٣٩١.

(٢) ابن سعد ٧٥/٣.

المسلمين إذا فرغوا من الحج سيتوجهون إلى المدينة لنصرة عثمان، فتملك منهم الشيطان فقالوا: لن يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل عثمان، فيشتغل بذلك الناس عنا.

ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتل عثمان[١].

اندفع المتمردون نحو الباب، فردهم الحسن وعبدالله بن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان معهم من أبناء الصحابة، وأنشب القتال بينهم، وعثمان رضي الله عنه ينهى أصحابه عن القتال، ويقول لهم: أنتم في حل من نصرتي، الله الله، ولكنهم أبوا أن يكفوا، فتقدم هو، وفتح الباب ومعه ترسه وسيفه يريد أن يزجرهم، فلما رآه المصريون أدبروا وركبهم حرس الخليفة فتراجعوا[٢].

وظل الحال على ما هو عليه فلم يستطع أحدٌ من الفريقين حسم المعركة لصالحه.

ولما رأى كبار الصحابة أن الأمر قد خرج من أيديهم ولا يمكن أن يقتل الخليفة وهم بالمدينة، فرأى بعضهم أن يغادر المدينة، فغادر الزبير، وأقام على طريق مكة لئلا يشهد قتله، وذهب سعد بن أبي وقاص إلى حائط له يبتعد به عن الناس حتى لا يشهد قتله[٣].

وخرجت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وحاولت أن تبعد أخاها محمداً عما هو فيه فرفض، ولم يذهب معها إلى الحج.

وقال الطبري: وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج واستتبعت أخاها فأبى، فقالت: أما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله مما يحاولون لأفعلن[٤].

---

(١) الطبري ٣٨٨/٤.

(٢) الطبري ٣٨٨/٤.

(٣) المصدر السابق ٣٩٤/٤.

(٤) المصدر السابق ٣٨٦/٤.

أما محمد بن أبي بكر فقد تسور على عثمان من دار عمرو بن حزم وصحبه من الثوار الثلاثة نفر: كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي، وسودان بن حمران، وعمرو بن الحمق، فدخلوا على عثمان فوجدوه يقرأ القرآن في سورة البقرة.

وتوجه محمد بن أبي بكر للخليفة وأَخَذَ بلحيته.

فقال عثمان: يا ابن أخي دع عنك لحيتي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه.

قال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك، وما أُريد بك أشد من قبضتي على لحيتك.

قال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعن به، فتركه محمد وخرج[1].

مقتل عثمان

أخذ الحاضرون يعبثون بالخليفة، فمنهم من يضربه بقبضة سيفه، وآخر يلكزه، وجاء رجل بمشاقص معه، فوجأه في ترقوته، فسال الدم على المصحف، وهم في ذلك يهابون قتله[2].

ورفع كنانة بن بشر مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان، فمضت - المشاقص - حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف فقتله.

وضرب كنانة بن بشر رأسه بعمود حديد فخر لجبينه، فضربه سودان بن حمران المرادي بعد أن خر لجبينه فقتله.

أما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق،

---

(١) الكامل في التاريخ ١٧٨/٣.
(٢) الطبري ٣٩٣/٤.

فطعنه ست طعنات ثم قال: فأما ثلاث منهن فإني طعنتهن إياه لله! وأما ثلاث فإني طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه(١).

ويقول ابن كثير رحمه الله: وفي رواية أن الغافقي بن حرب تقدم إليه بعد محمد بن أبي بكر فضربه بحديدة في فِيه، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله، فاستدار المصحف ثم استقر بين يدي عثمان رضي الله عنه وسالت عليه الدماء، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف فمانعته نائلة بنت الفرافصة فقطع أصابعها، فولت، فضرب عجيزتها بيده... فجاء غلام لعثمان فضرب سودان فقتله، فضرب الغلام رجل يقال له: قترة فقتله(٢).

ونادى مناد من المتمردين، يا قوم أيحل لنا دمه ولا يحل لنا ماله، فانتهبوا ما في البيت ولم يتركوا شيئاً حتى ما كان على النساء، واستلب رجل يقال: كلثوم التجيبي ملاءة نائلة زوجة الخليفة رضي الله عنها، فضربه غلام لعثمان فقتله، ثم قُتل الغلام.

ثم نادى المجرمون بالاتجاه إلى بيت المال فأخذوا ما فيه بعد أن فرَّ حراسه أمام الخوارج(٣).

وماج الناس، فالمقيم يسترجع ويبكي، والطارىء يفرح، ولما علم الزبير بمقتل عثمان قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله عثمان، وانتصر له.

وقيل له: إن القوم نادمون.

فقال: ديروا ديروا: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾ [سبأ: ٥٤].

وأتى الخبر إلى طلحة، فقال: يرحم الله عثمان، وانتصر له وللإسلام.

وقيل له: إن القوم نادمون.

---

(١) ابن كثير ١٨٥/٧.

(٢) البداية والنهاية ١٨٨/٧.

(٣) المصدر السابق ١٨٩/٧.

فقال: تباً لهم وقرأ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠].

وأتى الخبر إلى عليٍّ فقال: رحم الله عثمان، وخلف علينا بخير.

وقيل له: ندم القوم.

فقرأ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦].

وطُلِبَ سعد، فإذا هو في حائطه، وقد قال: لا أشهد قتله، فلما جاءه الخبر قال: فَرَرْنا إلى المدينة تُدنينا، وقرأ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤][1].

ولما قتل عثمان خاف الناس من دفنه فبقي دون دفن، ثم خرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً فيهم: الزبير، وجبير بن مطعم، بين المغرب والعشاء، ودُفِنَ بالبقيع، وصلى عليه حكيم بن حزام، وقيل: جبير بن مطعم، وتبعتهم نائلة مع غلام له بسراج استسرجَتْهُ بالبقيع.

رحم الله عثمان بن عفان، فقد رحل الإسلام الكريم، ما ضره ما فعل بعد تبوك، ما ضره بعد يوم العسرة ما فعل، كما قال رسول الله ﷺ يومئذ لعثمان.

(١) تاريخ الطبري جـ ٤.

علي بن أبي طالب

من هو علي

نشأ علي بن أبي طالب في بيت فقير، تربى رضي الله عنه في حجر رسول الله ﷺ وقد سبقه رسول الله ﷺ عندما نشأ في بيت أبيه أبي طالب، وكانت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي وزوج أبي طالب بمثابة الأم لرسول الله ﷺ، فلطالما ناداها عليه الصلاة والسلام بقوله: **«يا أماه»**.

وفي تعريف علي فهو: علي بن أبي طالب، واسم أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب، واسم عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المغيرة بن قصي، واسمه زيد بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة.

كنيته أبو الحسن، وأبو تراب، كناه بهما رسول الله ﷺ. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، أول هاشمية ولدت هاشمياً، وقد أسلمت وهاجرت[(١)].

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٦٦، الرياضة النضرة ١٠٤/٣، طبقات ابن سعد ١٩/٣، وقد كناه الرسول ﷺ «أبو تراب» عندما ذهب ذات يوم غاضباً وقد غاضب فاطمة رضي الله عنها، فجاءه الرسول ﷺ فوجده نائماً في المسجد فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول: **«اجلس يا أبا تراب»** البخاري في الأدب المفرد.

صفته

كان علي رضي الله عنه أسمر اللون، أصلع الرأس، ليس في رأسه شعر إلا من خلفه، أبيض شعر الرأس واللحية، كثيف اللحية، أدعج العينين، ضخم البطن، شديد الساعد واليد، خشن الكفين، ربعة من الرجال؛ ليس بالطويل ولا القصير، حسن الوجه، ضحوك السن، إذا مشى تكفَّأ، وإذا أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس[١].

إسلامه

لم يعبد علي رضي الله عنه الأوثان لصغر سنه، وقد روي عنه قوله: بعث رسول الله ﷺ يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء، وكان عمرُهُ يوم أسلم عشر سنين، وقيل: تسع، وقيل: ثمان[٢].

وقد دخل علي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ومعه زوجه خديجة رضي الله عنها، فوجدهما يصليان، فقال: ما هذا؟

فقال رسول الله ﷺ: **«هذا دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته»**[٣].

مع الرسول ﷺ في مكة

ولما انتقل النبي محمد ﷺ بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً، صعد عليه السلام الصفا يوماً ونادى: **«يا معشر قريش»**.

قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألونه ما له؟؟

فتحدث الرسول ﷺ مع قريش وأشهر دينه، فتصدوا له وحاربوه، وآذوه، ولما كثر إيذاءهم للنبي ﷺ أراد عليه السلام الهجرة، كما أراد الله له ذلك.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٦/٣، ٢٧.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

(٣) السيرة الحلبية ٤٣٣/١.

وتآمرت قريش على قتله، وانتهوا إلى أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً قوياً، وأن يعطوا كل فتىً سيفاً بتاراً، فيضربونه جميعاً ضربة رجل واحد فيضيع بذلك دمه بين القبائل.

وقد بلغ النبي ﷺ نبأ ما بيتت له قريش مخافة هجرته وخروجه من بينهم، وكان النبي ﷺ قد أحاط نبأ هجرته بالكتمان، فلم يجعل لأحدٍ إلى سره سبيلاً، حتى أبو بكر رضي الله عنه ما علم إلا عند بدء الرحلة من وراء شجرة تقع إلى جوار بيته.

فأعد أبو بكر راحلتيه، ودفعهما إلى عبدالله بن أريقط يرعاهما لموعد الهجرة، فلما اعتزم الرسول ﷺ وصاحبه مغادرة مكة، أسر الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب أن يتسجّى بُرْدَهُ الحضرمي الأخضر، وأن ينام في فراشه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس[1].

وجُعل لهؤلاء الفتية الذين اختيروا لقتل النبي ﷺ مكاناً ينظرون منه إلى مكان نومه ﷺ، فيرون في الفراش رجلاً وهو الفدائي المخلص عليٌّ بن أبي طالب فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفر، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، فلما اقتحم الفتية المتآمرون البيت في السَّحر، وكادوا يضربون علياً، لولا أنهم رفعوا الغطاء فوجدوا علياً، فلما وجدوه أصابتهم خيبة شديدة، لم تكن في الحسبان، وسألوا علياً رضي الله عنه عن النبي ﷺ فقال: لا علم لي به، فعلموا عند ذلك أنه خرج، فركبوا كل وجه يطلبونه وبعثوا إلى أهل الصحراء ليلحقوا به، واستعد علي للحاق به ﷺ.

هجرته

ونترك علي بن أبي طالب رضي الله عنه يتحدث عن هجرته فيقول: لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة في الهجرة أمرني أن أقيم بعده حتى أُؤدي ودائع كانت عنده للناس، وكذا كان، ولذا كان يسمى الأمين، فأقمت

---

(١) سيرة ابن هشام ١٢٦/٢.

ثلاثاً، فكنت أظهرُ ما تغيبت يوماً واحداً، ثم خرجت فجعلت أتبع الطريق، طريق رسول الله ﷺ، حتى قدمت بني عمرو بن عوف ورسول الله ﷺ مقيم، فنزلت على كلثوم بن الهرمِ، وهنالك منزل رسول الله ﷺ[1].

لحق علي رضي الله عنه بالرسول ﷺ، فلما آخى النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار أخذ بيد علي رضي الله عنه وقال: **«هذا أخي»** فصار هو والرسول ﷺ أخوين في الله عز وجل.

وبدأت حياة الجهاد في المدينة التي كانت لعلي رضي الله عنه فيها مشاهد كثيرة.

يوم بدر والغزوات الأخرى

ففي يوم بدر مضى علي بين صفوف الشرك يذود عن الإسلام وعن دين الله بسيفه يضرب يميناً ويساراً، وينتصر لرسالة الإسلام.

وكذلك في أحد، وكذلك في الخندق الذي استطاع فيه علي قتل فارس معروف مشهود له في الفروسية من المشركين وهو عمرو بن ود، وقد سجل له التاريخ هذا المشهد العظيم، ويوم خيبر صارع علي بطل اليهود في خيبر وهو مرحب الذي أنشد يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب   شاكي السلاح بطل مجرب

فرد علي قائلاً:

أنا الذي سمتني أُمي حيدره   أكيلكم بالسيف كيل السَّندره
ليث بغاباتِ شديد قسورة

فاختلف هو ومرحب في قتال، فضرب علي هامة مرحب حتى عض السيف منها بأضراسه، وسمع الناس صوت ضربه، ثم انطلق ليفتح حصن خيبر.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد.

الزواج المبارك

تزوج علي فاطمة الزهراء ريحانة البيت النبوي الشريف، ولما جاء إلى النبي بخطبها قال له عليه السلام: «**هي لك يا علي، لست بدجّال**» ـ يعني لست بكذاب ـ وذلك أنه قد كان وعد عليًّا بها قبل أن يخطب إليه أبو بكر وعمر، ولما خطبها علي قال لها رسول الله ﷺ: «**إن علياً يذكرك**»، فسكتت[1]، فزوجها عليه الصلاة والسلام، وجهزها رسول الله بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف، ورحيين وسقاء وجرَّتين.

وعندما سأل رسول الله ﷺ علياً حين خطبها: «**ما تصدقها؟**».

قال علي: ما عندي ما أُصدقها.

قال عليه الصلاة والسلام: «**فأين درعك الحطمية التي كنت منحتك إياها؟**».

قال: عندي.

قال عليه الصلاة والسلام: «**أصدقها إيَاها**».

فأصدقها علي وتزوجها، وكان ثمن الدرع أربعة دراهم[2].

وتزوج علي فاطمة رضي الله عنها وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره.

واختار لهما الرسول ﷺ منزلاً بجوار حجراته، فكان جواراً سعيداً.

وقد أنجب عليٌّ من فاطمة الحسن والحسين، وزينب وأم كلثوم. وقد نالوا جميعاً حب رسول الله ﷺ، فها هو رسول الله ﷺ يدخل على عليّ وفاطمة وهما يضحكان، فلما رأيا النبي ﷺ سكتا.

---

(١) الطبقات ٨/١٩، ٢٠.

(٢) المصدر السابق ٨/٢٠.

فقال لهما النبي ﷺ: «**ما لكما؟ كنتما تضحكان، فلما رأيتماني سكتما!**».

فبادرت فاطمة فقالت: يا رسول الله، قال هذا (مشيرة إلى علي) أنا أَحبُّ إلى رسول الله منك، فقلت: بل أنا أحبُّ إلى رسول الله منك.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**يا بنية لك رقة الولد، وعلي أَعزُّ عليَّ منك**»[1].

مواقف لعلي

مع القرآن: كان الإمام قريباً من قلب رسول الله ﷺ وقريباً من مجلسه، فكلما نزلت آية من القرآن حفظها علي، وقد عبَّر عن هذا الشيء بقوله: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت، وعلى من نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً طلقاً.

وعليّ هو هادم الأصنام يوم الفتح.

وكان علي رضي الله عنه عالماً فقيهاً، يؤثر الحق رضي الله عنه وأرضاه.

مبايعته بالخلافة

كانت الظروف التي انتخب فيها علي بن أبي طالب تختلف تماماً عما كان عليه انتخاب غيره من الخليفتين عمر وأبي بكر، ففي انتخاب وبيعة أبي بكر كان أعلام الصحابة بالمدينة، واختلفوا قليلاً، وكانت سقيفة بني ساعدة التي انتخب فيها أبو بكر.

وعقب وفاة أبي بكر لم يكن هناك ثمّ مجال للخلاف لأن أبا بكر كان قد عهد إلى عمر، فرأى المسلمون وجوب الطاعة لأمير المؤمنين.

---

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.
طبقات ابن سعد ٣٣٨/٢.

ولما مات عمر كان أمر الشورى قد سُنّ لهم فانتخب عثمان بعد أن عهد عمر إلى واحد من ستة يعينونه هم، وحدد وقتاً لذلك ثلاثة أيام بعد وفاته.

أما عند مقتل عثمان فلم يكن الأمر كذلك لعدة أسباب أهمها:

١ ـ وجود الثوار بالمدينة وهم الذين قتلوا عثمان.

٢ ـ الثوار من أمصار مختلفة، لم يكن لهم ذكر إلا بهذه الثورة، ولم يكن عددهم يذكر أمام جنود الأمصار الذين لم يكن لهم يد في الجريمة.

٣ ـ خروج الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة، فمنهم من كان في الثغور، ومنهم من كان بالمدينة وخرج.

أما بالنسبة للمدينة فقد كانت الكلمة العليا لهؤلاء المتمردين العابثين الذين قتلوا الخليفة، ولم يكن في نظر جمهورهم أفضل من عليٍّ للخلافة، والحق يقال: إنهم كانوا يتخبطون، إنهم يريدون خليفة يرضي المسلمين، وقد فعلوا هم فعلاً شائناً بالخلافة والإسلام، فذهبوا إلى علي، فرفض وطردهم شر طردة، وذهبوا إلى طلحة وألحوا عليه فرفض هذا الأمر، وكذلك الزبير، وحاولوا أن يختاروا سعد بن أبي وقاص ويولونه، فبعثوا إليه وقالوا: إنّك من أهل الشورى، فرأينا فيك مجتمع، فاقدم نبايعك.

فبعث إليهم: إني وابن عمر خرجنا منها، فلا حاجة لي فيها على حال، وتمثل بقول الشاعر:

لا تخلطن خبيثات بطيبةٍ   واخلع ثيابك منها وانج عريانا

ثم أتوا ابن عمر (عبدالله بن عمر) فقالوا: أنت ابن عمر، فقم بهذا الأمر.

فقال ابن عمر: إن لهذا الأمر انتقاماً، والله لا أتعرض له، فالتمسوا غيري.

فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون، والأمر أمرهم[1].

حاروا في أمرهم، ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم، ولم نسلم، فرجعوا إلى علي وألحوا عليه[2].

وكان علي رضي الله عنه يهرب من إلحاحهم، ويختبىء في بساتين المدينة[3].

أصبح امتناع الناس عن الخلافة وعدم طاعتهم أمراً عسيراً على هؤلاء، فهددوا بالقتل إذا لم تتم البيعة بعد يومين.

قالوا: دونكم يا أهل المدينة، فقد أجلنا يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً عليًّا وطلحة والزبير وأناساً كثيرين.

فتكاثر الناس على عليّ وقالوا: نبايعك، فقد ترى ما نزل بالمسلمين وما ابتلينا به من ذوي القربى.

فقال علي: دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول.

فقالوا: ننشدك الله، ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله.

فقال علي: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمَعُكُمْ وأطوعكُم لمن وليْتموه أمركم، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد[4].

وقد كان علي رضي الله عنه متردداً في قبول الخلافة لا يدري الإقدام

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٢.
(٢) البداية والنهاية ٧/٢٢٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تاريخ الطبري ٤/٤٣٤.

عليها هو الصواب أم الخطأ، فقد روى الإمام أحمد رضي الله عنه: أن علياً رضي الله عنه قال: والله ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ عهداً إلا شيئاً عهده إلى النّاس، ولكن النّاس وقعوا على عثمان ـ رضي الله عنه ـ فقتلوه، فكان غيري فيه أسوأ حالاً وفعلاً مني، ثم إني رأيت أني أحقهم بهذا الأمر فوثبت عليه، فالله أعلم أصبنا أم أخطأنا[(١)].

وخشي الناس أنه إذا جرت البيعة ألا يبايع طلحة والزبير، وهما من أهل الشورى، وهما الندان اللذان ينافسان علي، وعدم بيعتهما يؤدي إلى إراقة الدماء وضعف البيعة، لذا كان الناس يقولون: إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت[(٢)].

أحس المتمردون بهذه المقالة، فخافوا أن يفسد طلحة والزبير عليهم الأمر الذي يحاولون الوصول إليه، وبذلوا في ذلك أقصى الجهد.

وذكر الطبري أن أهل البصرة أرسلوا حكيم بن جبلة العبدي، ومعه جماعة من أهل البصرة إلى الزبير بن العوام فأحضروه والسيف على رأسه، وأرسل أهل الكوفة الأشتر النخعي ومعه نفر من أهل الكوفة إلى طلحة بن عبيد الله فجاؤوا به يجدونه بالسيف[(٣)].

وقد ذكر ابن جرير أن علياً جاء إلى طلحة فقال: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك.

فقال طلحة: أنت أَحق، وأنت الأمير، أمير المؤمنين فابسط يدك، فبسط عليّ يده فبايعه[(٤)].

فلما كان يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين حضر علي إلى المسجد، فصعد المنبر وقال: أيها النّاس ـ

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، باب خلافة علي.
(٢) تاريخ الطبري ٤/٤٣٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تاريخ الطبري ٤/٤٣٤.

على ملأ وأذن - إن هذا أمركم وليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم، وقد افترقنا بالأمس، وكنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي دونكم إلاّ مفاتيح ما لكم معي، وليس لي أن آخذ درهماً دونكم، فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد.

وهتف الناس من جوانب المسجد قائلين: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس.

فقال علي: اللهم فاشهد[١].

وجيء بطلحة ليبايع أمام العامة، فقال طلحة للأشتر: دعني أنظر ما يصنع النّاس، فلم يدعه وجاء به يتلّه تلاً عنيفاً، وصعد المنبر فبايع، ثم جاء حكيم بن جبلة بالزبير حتى بايع، ثم جيء بقوم كانوا قد تخلفوا، فقالوا: نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد، والعزيز والذليل، فبايعهم، ثم قام العامة فبايعوا[٢].

وجيءَ بسعد بن أبي وقاص فقال: لا أبايع حتى يبايع الناس، والله ما عليك منّي بأس.

فقال علي: خلوا سبيله.

وجيءَ بعبدالله بن عمر ليبايع، فقال: لا أبايع حتى يبايع النّاس.

قال: أتيتني بحميل[٣].

قال: لا أرى حميلاً.

قال الأشتر: خل عني أضرب عنقه.

قال علي: دعوه، أنا حميله، إنّك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٩٤/٣.
(٢) تاريخ الطبري ٤٣٥/٤.
(٣) الحميل: الكفيل.

وتخلف من الأنصار جمع منهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيدة، وكعب بن عجرة، وهرب قوم من أهل المدينة ولم يبايعوا عليًا، ولم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبدالله بن سلام، والمغيرة بن شعبة، وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة إلا من فرَّ ولحق بالشام.

أول خطبه له

تم الأمر لعلي رضي الله عنه، ولما بايعه الناس في المدينة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً، بيّن فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر.

الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة.

إن الله حرّم حرماً غير مجهولة، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد للمسلمين.

والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب.

بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنما من خلفكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر النّاس أخراهم.

اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم.

أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشرَّ فدعوه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١) [الأنفال: ٢٦].

أنهى الخليفة خطبته، وعاد إلى بيته وقد شعر بثقل المسؤولية وعظم تبعاتها، وما إن استراح في داره حتى جاءه طلحة والزبير وجماعة من الصحابة.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٦.

المطالبة بدم عثمان

دخل طلحة والزبير ومن معهم من صحابة رسول الله ﷺ وقالوا لعلي: إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل؛ وأحلوا بأنفسهم.

فقال لهم علي: إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم، ها هم أولاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون[1]؟؟

قالوا: لا.

قال علي: فلا والله فلا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، وذلك أن الشيطان لم يُشرِّع شريعة قط، فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً.

إن الناس من هذا الأمر، إن حرك عليٌّ أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك حتى يهدأ النّاس، وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا[2].

وخرج الناس من عند علي بعدما سمعوا منه هذا القول وهم فريقان: فريق يرى ما رآه علي، وفريق يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره.

ولما فكر عليٌّ رضي الله عنه أن يرد الأعراب إلى أماكنهم التي خرجوا منها، قال: أيها الناس، أخرجوا عنكم الأعراب فليلحقوا بمياههم.

ولكنهم عصوا ذلك الأمر وحرضوا الأعراب على البقاء، فأطاعهم الأعراب وثبتوا في أماكنهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٧.

(٢) المصدر السابق.

وهنا توجس علي منهم خيفة، فكف عن طلب خروجهم، ودخل بيته، فجاءه طلحة والزبير وجماعة من الأصحاب، فنظر إليهم عليّ وقال:

ـ دونكم ثأركم فاقتلوه[1].

ولكنهم أظهروا عجزاً عن القيام بهذا، وأمامهم ثوار أقوياء يؤيدهم بعض الأعراب، وطاعة الناس لهم فيما يأمرون به.

لذلك طلب طلحة من أمير المؤمنين أن يوليه البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على هؤلاء الخوارج، وطلب منه الزبير أن يوليه الكوفة ليأتيه منها بالجنود أيضاً.

فقال علي: مهلاً علي حتى أنظر في هذا الأمر[2].

كان علي يعرف تماماً أن هذا الأمر غير مقدور عليه، وها هو أعطاهم الأمر بالأخذ بثأر عثمان فعجزوا، ولكنهم لم يكفوا عن ذلك.

علي والولايات

كان أول ما رآه علي من أعمال أن يعزل ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار، وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولاً وابن عباس ثانياً، فأبى ذلك إباءً تاماً، فقال للمغيرة: والله لا أُدهِنُ في ديني، ولا أُعطي الدينة في أمري.

فقال المغيرة: فإن كنت قد أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية، فإن لمعاوية جرأة، وهو في أهل الشام يسمع، ولك حجة في إثباته، وكان عمر بن الخطاب قد ولاّه الشام كلها.

فقال علي: لا والله لا أستعمل معاوية أبداً.

ولم ييأس المغيرة، فقد عاد في الغد، ودخل على عليٍّ فقال: إني أشرت عليك أول مرّة بالذي أشرت، وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك أن

---

(١) الكامل في التاريخ ١٩٦/٣.

(٢) البداية والنهاية ٢٢٨/٧، ٢٢٩.

تصنع الذي رأيت فتعزلهم، وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله، وهم أهون شوكة مما كان[1].

ودخل ابن عباس على أمير المؤمنين فوجد المغيرة بن شعبة خارجاً من عنده، فسأله: ما قال لك هذا؟؟

وأخبر علي بن أبي طالب ابن عباس بما دار بينه وبين المغيرة في اليومين.

فقال ابن عباس: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا من ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبوا عليك، فتنتفض عليك الشام وأهل العراق، مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك، وأنا أُشير عليك أن تُثَبِّتَ معاوية، فإن بايع لك فعليَّ أن أقلعه من منزله.

قال علي: والله لا أُعطيه إلا السيف ثم تمثل بقول الشاعر:

وما ميتة إن متها غير عاجز ... بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع، لست صاحب رأي في الحرب[2].

حاول المغيرة وابن عباس إعمال العقل في تثبيت الأمر، وتسكين الفتنة، فالخداع والمداهنة ليست واردة لديهما لإيذاء أحد من المسلمين، ولكنهما أرادا تجنب إراقة الدماء، وتجنيب المسلمين شر الفتنة، وفي ذلك تحقيق للمصلحة العامة للمسلمين.

أما عليٌّ فبالرغم من كل الحسابات والتقديرات الواضحة والدقيقة للموقف، ممن هم حوله من رجال المسلمين الذين لا يشك في صدق إيمانهم وإخلاصهم للإسلام، بالرغم من كل هذا فإنه كان يرى أنه أمير

---

(١) ابن الأثير ١٩٧/٣.

(٢) المصدر السابق.

المؤمنين، وطالما بويع بالخلافة فإن طاعته واجبة على جميع المسلمين، وأن له القوة التي يستطيع بها إرغام كل مخالف على الدخول في الطاعة، والتزام الجماعة، فلماذا يداهن؟؟ ولِمَ يلجأ إلى أسلوب الخداع؟ وإن كان هناك ضرورة لذلك، وهناك أمر آخر، فقد بدا من عمال عثمان مثل معاوية وبقيتهم ممن عزم عليّ على عزلهم، كان من أسباب خروج الثائرين. ومن ثم فإن بقاؤهم في أعمالهم فيه خطر على استقرار الأوضاع.

والأمر الأخير أن علياً رضي الله عنه أصبح في نظر عمال عثمان شريكاً في دمه ـ وإن كان هذا غير صحيح بالمرة ـ ولكنهم يضمرون في أنفسهم ذلك الأمر، إذن فليمض علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قراره، دون أن يعير لناصحيه في هذا الأمر شأناً، لأنّه رأى غير ما ينصحون.

علي ينفذ عماله للولايات

لم تمضِ على بيعة عليٍّ خمسة أيام حتى أخذ يوجّه عماله إلى الأقاليم، فوجه عبدالله بن عباس إلى الشام ليحل محل معاوية، لكن ابن عباس أبى واعتذر له، وأفهمه أن معاوية قد يقتله بابن عمه الخليفة المقتول، فإذا لم يفعل فلا أقل من أن يحبسه عنده، ويحمِّله كل ما يحمله لعلي.

عندئذ أمَّر عليّ بن أبي طالب سهل بن حنيف على الشام، وأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة، وعمارة بن شهاب إلى الكوفة، وعبيد اللّه بن عباس إلى اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر[1].

ـ فأما سهل بن حنيف الذي توجه إلى الشام بديلاً عن معاوية، فإنه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل، فسألوه: من أنت؟؟

فقال: أمير على الشام.

فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك، وإن كان غيره بعثك فارجع.

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠١/٣.

قال: أو ما سمعتم بالذي كان..

قالوا: بلى...

فرجع إلى عليّ دون أن يدخل الشام.

- وأما قيس بن سعد فإنه سار حتى أتى مصر، فافترق عليه أهلها فرقاً:

فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه.

ومنهم من قال: لا نبايع حتى يقتل قتلة عثمان، وإلا فنحن على عزيمة رأينا حتى يستثيرنا أحد أو نصيب حاجتنا.

ومنهم من قال: نحن مع علي ما لم يقتص من إخواننا، وأظهروا دخولهم في الطاعة.

فلم يتمكن الأمير من جمع الكلمة - كلمة المصريين - على أمير المؤمنين، ولم يستطع إجبارهم وإخضاعهم، فكتب لعلي بذلك.

- أما في البصرة، فكان الحال كما كان في مصر، فقد دخلها عثمان بن حنيف والي عليّ رضي الله عنه دون أن يعترضه أو يرده أحد، ولم يجد لعبدالله بن عامر أي أثر في توجيه أهلها، بل كانت خارج سيطرة أحد، ولكنه وجد الناس فرقاً ومذاهب:

فرقة دخلت في الطاعة، والتزمت الجماعة.

وفرقة تابعت المنشقين على الخليفة.

والثالثة توقفت حتى ترى ماذا يصنع أهل المدينة، فيصنعون كما صنعوا.

- أما عبيد اللّه بن عباس فقد انطلق إلى اليمن فدخلها بلا معارضة، ولكنه وجد أميرها السابق يعلى بن منبه قد جمع كل ما جباه، وخرج به إلى مكة فاستقر بها ومعه المال.

- وإلى الكوفة ذهب عمارة بن شهاب، فلما بلغ «زبالة» لقيه هناك

طليحة بن خويلد، وكان قد خرج مطالباً بثأر عثمان، وكان شديد الحزن لما فاته من عدم نصرته حتى كان يقول: لهفي على أمر لم يسبقني ولم أدركه، فلمّا لقي عمارة وعرف أنه من قبل علي قال: ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً، فإن أبيت ضربت عنقك.

فرجع عمارة إلى المدينة فأخبر علياً بما كان بينه وبين طليحة(١).

علم عليّ رضي الله عنه بكل هذه الأخبار، وعاد إليه عامله بالشام وعامله بالكوفة، فأدرك أنّ فتنة موشكة على الاشتعال، فدعا طلحة والزبير للتشاور، وأخبرهما بما حدث فقال: إن الذي كنت أحذركم فيه قد وقع، وإن الأمر الذي وقع لا يدرك إلا بأمانته، وإنها فتنة كالنّار، وكلّما سُعِّرت ازدادت واستنارت.

فقالا له: فأذن لنا أن نخرج من المدينة، فإما أن نكابر، وإما أن تدعنا.

فقال علي: سأمسك الأمر ما استمسك، فإن لم أجد بداً فآخر الدواء الكي(٢).

معاوية يظهر في الصورة

بدت صورة الأمصار مضطربة، وخاصة الكبرى فيها كالشام، ومصر، والبصرة، والكوفة، ففي الشام كان الأمير معاوية منذ عهد عمر وتلاه عهد عثمان رضي الله عنهما، وهذه الفترة الطويلة جعلته محبوباً من أهل الشام، فلما وقع مقتل عثمان واستخلاف عليٍّ لم يرضَ معاوية أن يدخل في بيعة عليٍّ.

وقد بنى معاوية رضي الله عنه عدم بيعته على أمور عدة هي:

١ ـ اتهامه لعلي بشيء من مقتل عثمان.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٤/٤٤٣.

٢ ـ اتهامه لعلي بأنه آوى قتلة عثمان في جيشه، مما أوحى إليه بأن علياً يقوم على حمايتهم والحيلولة دون الثأر لدم عثمان.

٣ ـ استعجال علي وإرساله والياً على الشام، مما أظهر عدم رغبة علي في ولاية معاوية على الشام ووجوب عزله(١).

على هذه القناعات التي أقنع نفسه بها معاوية امتنع عن البيعة لعلي، ولما أرسل علي إلى معاوية سبرة الجهني يطلب إليه أن يبايع، لم يجب معاوية، بل ظل صامتاً، فلم يرد بالإيجاب أو الرفض ثلاثة أشهر كاملة، ولربما أراد معاوية أو تعمد أن يهمل الرد، وأن يؤخره هذه المدة ـ ثلاثة أشهر ـ حتى يستبين له الأمر، ويعرف اتجاه الناس وميولهم، فإن وجدها مع علي سلم وأطاع، وإن وجدها غير ذلك، أصر على رفض البيعة ومعارضتها.

بعد هذه الفترة دعا معاوية رجلاً من بني عبس وقال له: إن دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، وارفعه حتى يراه الناس، فلما قدم العبسي إلى المدينة في غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية، وخرج النّاس ينظرون، فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض، ثم أكمل رسول معاوية مسيره حتى دخل على عليّ رضي الله عنه.

فض علي الكتاب، فلم يجد شيئاً إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال علي للعبسي: ما وراءك؟

قال العبسي: أيها الناس، هل فيكم أحدٌ من عبس؟

قالوا: نعم.

قال: فاسمعوا مني، وافهموا عني، إني قد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ، خضبوا لحاهم بدموعهم تحت قميص عثمان، رافعيه على أطراف الرماح، قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته، أو تلحق أرواحهم بالله.

---

(١) انظر: محاضرات الشيخ محمد الخضري في تاريخ الأمم الإسلامية.

فقام إليه رجل يقال له: خالد بن زفر، وهو من بني عبس أيضاً فقال: بئس لعمر الله وافد الشام أنت، أتخوف المهاجرين والأنصار بجنود أهل الشام وبكائهم على قميص عثمان؟؟ فوالله ما هو بقميص يوسف ولا بحزن يعقوب، ولئن بكوا عليه بالشام فقد خذلوه بالعراق[1].

أما علي فقد علّق قائلاً: أمني يطلبون دم عثمان؟! ألست موتوراً كترة عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، نجا والله قتلة عثمان، إلا أن يشاء الله فإنه إذا أراد شيئاً أصابه.

ثم التفت علي رضي الله عنه إلى رسول معاوية وقال له: اخرج.

فقال رسول معاوية العبسي: وأنا آمن؟

قال: وأنت آمن.

وحاول قتلة عثمان رضي الله عنه إيذاء رسول معاوية، إلا أنه خرج بعد أن أصابه الذل منهم[2].

ويقول الشيخ محمد الخضري في هذا الموقف: ومن الغريب أن علياً لما أمر الرجل بالرجوع منه فأراد السبيئة (المتمردين) أن يقتلوه فصاح الرجل: يا لمضر يا لقيس، الخيل والنبل، إني أحلف بالله ليردنّها عليكم أربعة آلاف خصي، فانظروا كم الفحولة والركاب، ولم يخلص الرجل إلا بشق الأنفس[3].

قرر علي مواجهة الموقف، فكتب إلى عماله في الأقاليم، كتب إلى قيس بن سعد في مصر، وإلى أبي موسى الأشعري في الكوفة، وإلى عثمان بن حنيف بالبصرة أن يستعدوا ويستنفروا الناس لحرب أهل الشام ونصرة الإمام.

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص ١٤١.
(٢) الكامل لابن الأثير ٢٠٣/٣.
(٣) محاضرات في تاريخ الأمم ص ٢٨٤.

وأخذ علي يتأهب للخروج، ووقف في أهل المدينة خطيباً يدعوهم إلى النهوض معه وقتال أهل الفرقة فقال:

إن الله عز وجل بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق، وأمر قائم واضح، لا يهلك عنه إلا هالك، وإن المبتدعات والشبهات هُنَّ المهلكات إلا من حفظ الله، وإن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها.

انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يفرقوا جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق، وتقضون الذي عليكم[١].

وبيَّن علي نيته في الخروج إلى الشام عندما دعا ابنه محمد فأعطاه لواءَه وعبأ جنده، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، وأقبل على التهيؤ والتجهز، وفيما هو في ذلك فجأَهُ أمر عائشة وطلحة والزبير.

ما قبل وقعة الجمل

كانت عائشة قد خرجت من المدينة وعثمان محصورٌ بها، وقصدت إلى مكَّة للحج، ولما عزمت على العودة إلى المدينة لقيها بسرف[٢] عَبْد بن أم كلاب، فقالت له: مَهْيم!

قال: قتلوا عثمان، ومكثوا ثمانياً.

قالت: ثم صنعوا ماذا؟؟

قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز، واجتمعوا على عليّ بن أبي طالب.

فقالت: ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ردّوني إلى مكة.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٤٥.

(٢) موضع من مكة على عشرة أميال.

وانصرفت وهي تقول: قتل عثمان والله مظلوماً، والله لأطلبن بدمه.

ثم انصرفت إلى مكة وهي لا تقول شيئاً حتى نزلت على باب المسجد، فقصدت للحِجرْ، وسُيرت فيه، واجتمع الناس حولها، فقالت:

ـ أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنُّه، وقد اسْتعمل أمثالهم من قبله، ومواضع من الحمى حَمَاها لهم، فتابعهم ونزع لهم عنها، فلمّا لم يجدوا حجَّةً ولا عذراً بادروا بالعدوان، فسفكوا الدَّم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام، والله لأصبعٌ من عثمان خيرٌ من طباق[1] الأرض أمثالهم، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه، أو الثوب من درنه، إذ ماصُوه كما يماص الثوب بالماء[2].

استجاب النّاس لنداء عائشة، وهموا بالخروج إلى المدينة ليطالبوا عليًا بتسليمهم قتلة عثمان.

وقال عبدالله بن عامر الحضرمي ـ وكان عامل عثمان على مكة ـ: أنا أول طالب.

فكان أول مجيب لعائشة، وتبعه بنو أُمية ممن هرب من المدينة إلى مكة بعد قتل عثمان، ثم تبعهم سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، وسائر بني أُميّة، وقدم عليهم عبدالله بن عامر من البصرة بمالٍ كثير، ويعلى بن أمية من اليمن، ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وأناخ بالأبطح[3].

وقدم طلحة والزبير من المدينة، فلقيا عائشة، فقالت: ما وراءكما؟

---

(١) طباق الأرض: ملء الأرض.
(٢) الطبري ٤٤٨/٤، ٤٤٩.
(٣) الأبطح مكان في مكة.

فقالا: إننا رحلنا هرباً من المدينة، من غوغاء وأعراب، وفارقنا قوماً حيارى، لا يعرفون حقًّا، ولا ينكرون باطلاً، ولا يمنعون أنفسهم.

فقالت: انهضوا إلى هذه الغوغاء(١).

ثم أخذوا يتداولون ويتشاورون أين يذهبون؟؟ قال بعضهم: نذهب إلى الشام.

فقال ابن عامر: قد كفاكم الشام معاوية، ائتوا البصرة، فإن لي بها صنائع، ولهم في طلحة هوى، ثم استقام الرأي على البصرة.

وكانت عائشة تنوي الذهاب إلى المدينة، وكان معها أزواج رسول الله ﷺ على هذا القصد.

ولكن أهل مكة قالوا لها: يا أُم المؤمنين، دعي المدينة، فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها، واشْخَصي معنا إلى البصرة، فإنا نأتي بلداً مُضَيَّعاً، وسيحتجون علينا فيه ببيعة علي بن أبي طالب، فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة، ثم تقعدين، فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين، وإلا احتسبنا ودَفَعنا عن هذا الأمر بجهدنا، حتى يقضي الله ما أراد.

فلما قالوا لها ذلك، ووجدت أن الأمر لا يكون مستقيماً إلا بها، قالت: نعم.

ولما رأى أزواج الرسول ﷺ ذلك تخلين عن عائشة وتركنها، إلا حفصة بنت عمر فإنها رأت السير معها، ولما علم عبدالله بن عمر بذلك طلب إلى حفصة أن تقعد فقعدت، وبعثت إلى عائشة أن عبدالله بن عمر حال بيني وبين الخروج، ودعوا عبدالله بن عمر ليسير معهم، فأبى وقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون.

فقالت عائشة: يغفر الله لعبد الله(٢).

---

(١) الطبري جـ ٤.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٨/٣.

وكان لبعض أمهات المؤمنين رأياً في عدم الخروج مع عائشة إلى البصرة، ومنهن أم سلمة التي عبرت عن هذا الرأي لتبرير عدم خروجها، فقد أرسلت رسالة إلى علي رضي الله عنه تقول فيها: يا أمير المؤمنين، لولا أني أعصي الله - عز وجل - وأنك لا تقبله مني لخرجت معك[١].

ثم أضافت: وهذا ابني عمر، والله لهو أعزُّ عليَّ من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك[٢].

وكان عمر ولدها ربيب رسول الله ﷺ وكان أعز عليها من نفسها.

أما أم الفضل بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب وأم عبدالله وعبيد الله وقثم أبناء العباس؛ فقد بعثت برجل من جهينة يقال له: «ظفر» واستأجرته على أن يأتي عليًّا بكتابها، ويخبره بأمر القوم.

ثم تهيأ الجمع للخروج، ونادى المنادي: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يريد إعزاز الإسلام، والطلب بثأر عثمان، ولم يكن عنده مركب، ولم يكن له جهاز فهذا جهاز، وهذه نفقة.

فجعلوا ستمائة جمل على ستمائة ناقة سوى من كان له مركب، وكانوا جميعاً ألفاً، ثم نادوا بالرحيل، ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل.

موقعة الجمل

وصل علي رضي الله عنه إلى الطريق التي تؤدي إلى البصرة وهو يتهيأ للشام، وحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة، فلما وصل الربذة، بلغه أنهم فاتوه، فبعث إلى أهل الكوفة يطلبُ إليهم أن ينفروا لمعاونته على المخالفين، وقال لهم في كتابه الذي أرسله مع محمد بن أبي بكر ومحمد بن

---

(١) الطبري ٤/٤٥١.

(٢) المصدر السابق.

جعفر: إني قد اخترتكم على الأمصار فرغبت إليكم، وفرغت لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وانهضوا إلينا، فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً[1].

ولعل هذا الحوار الذي ساقه ابن جرير بين علي وابن لرفاعة بن رافع الأنصاري ما يدل على أن أمير المؤمنين ما كان ليتوقع أن تصل الفتنة إلى ما وصلت إليه.

فقد كلم ابن رفاعة بن رافع الأنصاري أمير المؤمنين عليّ حين هم بالخروج فقال: يا أمير المؤمنين إلى شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟

فقال علي: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منا وأجابونا إليه.

قال: فإن لم يجيبوا إليه.

قال علي: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق، ونصبر.

قال: فإن لم يرضوا؟

قال علي: ندعهم ما تركونا!!

قال: فإن لم يتركونا؟

قال علي: امتنعنا منهم.

قال: نعم إذاً.

وقام الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: لأرضينّك بالقول كما أرضيتني بالقول، والله لأنصرنّ الله ـ عز وجل ـ كما سمانا أنصاراً.

نعود لأبي موسى الأشعري وأثر الرسالة التي أرسلها له علي، فقد قام في الناس خطيباً، وكان آخر خطبته: أما إذا كان ما كان، فإنها فتنة صماء،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٥/٧.

؟؟ الطبري في تاريخه ٤٧٩/٤.

النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنّة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.

فتكلمت رسل علي مع أبي موسى وأغلظت له.

ولما كان الحسن بن علي ممن أُرسل في هذه الوفادة، فقد قال لأهل الكوفة: يا أيها النّاس أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يأتيه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به[1].

فأجابه الناس، وقال لهم الحسن: أيها الناس إنني غادٍ، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر، ومن شاء في الماء[2].

فنفر من أهل الكوفة تسعة آلاف، أخذ بعضهم طريق البر، والآخر الماء، وقد قابلته الجنود البرية بذي قال، فقال لهم: قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلحوا داويناهم بالرفق، وبايعناهم حتى يبدأوا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلاّ آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

واختار علي بن أبي طالب القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة، فسار حتى جاء إلى عائشة فقال: أي أُمة!! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟

قالت: أي بني!! إصلاح بين النّاس.

فطلب القعقاع أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما، فلما جاءا أخبراه أن مقصدهما كمقصد عائشة.

فقال لهما القعقاع: ما هذا الإصلاح.

---

(١) انظر: ابن كثير ٢٣٧/٧، وابن الأثير ٢٣٠/٣ بتصرف.

(٢) ابن الأثير ٢٣١/٣.

قالا: قتلة عثمان، فإنَّ هذا إنْ تُرِكَ كان تركاً للقرآن، وإن عُمِلَ كان إحياءً للقرآن.

فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة عنكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل إلا رجلاً، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، طلبتم ذاك الذي أفلت ـ يقصد حرقوص بن زهير ـ فمنعه ستة آلاف، وهم على رجل، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم، نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير.

فقالت أم المؤمنين عائشة: فما تقول أنت؟

قال القعقاع: أقول: هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة، ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأُمة، وإن أنتم أبيتم إلاّ مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر، وبعثه الله في هذه الأمة هزهزها، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم.

وايم الله، إني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنّي لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأُمة التي قلّ متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يعذر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة الرجل.

قالوا: قد أصبت وأحسنت، فارجع، فإن قدم عليٌّ وهو على مثل ذلك صلح الأمر(1).

فرجع القعقاع إلى علي فأخبره، فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح.

---

(1) البداية والنهاية ٢٣٨/٧، وتاريخ الطبري ٤٨٩/٤.

ثم أمر علي بالرحيل، وقال في خطابه: ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء (ابن سبأ) وقال بعضهم لبعض: إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا، فليس الصلح إلا علينا.

فقال لهم عبدالله بن سبأ (ابن السوداء): إن عزكم في خلطة الناس، فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال، ولا تفرّغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجدُ بدّاً من أن يمتنع، ويشغل الله عليًّا وطلحة والزبير عما تكرهون.

اجتمع قتلة عثمان على ذلك والناس لا يشعرون.

ولما وصل علي إلى البصرة بعث إلى القوم: إن كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا، وأقرونا ننزل في هذا الأمر، فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح، ومشت السفراء بين الفريقين، وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل.

قام قتلة عثمان في جنح الظلام ووضعوا السلاح في معسكر أهل البصرة، فسأل طلحة والزبير: ما هذا؟

قالوا: أطرقنا أهل الكوفة ليلاً.

فقال: قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا.

وسأل علي عن الخبر، وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون، فقال له: ما فجئنا إلا وقوم منهم يبيتونا، فرددناهم من حيث جاؤوا، فوجدنا القوم على رجل، فركبونا وثار الناس.

فقال علي: قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يُطاوعانا.

ولم يجد الفريقان في ذلك الوقت بُدّاً من القتال، وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة، وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون.

قاتل المسلمون بعضهم بعضاً قتالاً شرساً، وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة ـ وكانت عائشة في هودجها، قد جللته بالحديد وهي بمكة، وجعلت فيه موضعاً لعينيها ـ وهي في عسكر أهل البصرة، وثار العسكران لبعضهما، وكان القتال في ذلك اليوم من أشد القتال هولاً، وصَدَق كل فريق الحملة على الآخر، وأهل البصرة وشجعانهم وذوو النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة، ويدافعون عنها حتى لا تُصابَ بشرٌ، فقتل حوله بشرٌ كثير، وقطعت على زمامه أيد كثيرة، ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم، وشاعر أهل البصرة يقول:

نحن بني ضبَّة أصحابُ الجمل   ننزِلُ بالموت إذا نزلْ
ننعي ابن عفان بأطراف الأسل   الموت أحلى عندنا من العسلْ
رُدّوا علينا شيخنا ثم بَجَلْ

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل، وأن الناس يستميتون دونه، ولا يُسْلمونَهُ أبداً وفيهم عَيْنٌ تطرف، نادى: اعقِروا الجمل، فجاء إلى الجمل رجلٌ من خلفه وضرب عرقوبه فعَقَره، وسقط وسقط الهودج، وكأنه قنفذ لكثرة ما رُمي به من النَّبل، فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر واحتملا الهودج، فنحياه عن القتلى، وخرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة. وظهر الضعف في الناس، فتركهم الزبير بن العوام، وولى وجهه شطر المدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافله وقتله.

وقتل في هذا اليوم عشرة آلاف، فيهم كثيرٌ من أعلام المسلمين وذوو النجدة، منهم طلحة وابنه محمد، وعبدالرحمن بن عتّاب، وكثير من رجال قريش.

ولما انتهت الموقعة مرَّ عليٌّ بين القتلى، فكُلّما رأى صرعى أهل

البصرة، وعرفهم قال: زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء، وهذا فلان وهذا فلان، ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً.

وبعد ذلك زار عائشة في البيت الذي نزلت فيه، فسلَّم عليها، وقعد عندها.

وشيع علي عائشة بعد أن جهزها بكل ما ينبغي من مركب وزاد حتى تعود إلى المدينة، واختار لها أربعين من نساء البصرة المعروفات، وسيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر، وأذن علي لمن نجا من الجيش ممن كان قدم معها أن يرجع معها، إلا مَنْ يحب المقام في البصرة.

فلما كان يوم الرحيل جاء عليٌّ فوقف بالباب، وحضر النّاس، وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس، ودعت لهم، وقالت: يا بَني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي من الأخيار.

فقال علي رضي الله عنه: صَدقت والله، ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وسار علي معها مشيعاً ومودعاً أميالاً، ثم سرح بنيه معها بقية اليوم، وكان ذلك يوم السبت غرة رجب سنة ست وثلاثين، واتجهت في مسيرها إلى مكّة فأقامت بها إلى أن حجت في ذلك العام، ثم رجعت إلى المدينة، رضي الله عنها وأرضاها[1].

موقعة صفين

رأى المسلمون في واقعة الجمل أهوالاً، ولكنها على شدة هولها وفظاعة ما كان فيها لم تكن إلا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وأفظع أمراً.

فلما عاد عليّ رضي الله عنه من البصرة بعد فراغِهِ من الجمل، قصد

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٢٤٦/٧، وابن الأثير ٢٥٦/٣ وما بعدها.

الكوفة، وأرسل إلى جرير بن عبدالله البجلي، وكان عاملاً على همذان ـ وهمذان أكبر مدن الجبال، فتحت سنة ٢٤هـ ـ استعمله عثمان، وأرسل إلى الأشعث بن قيس، وكان على أذربيجان ـ استعمله عثمان أيضاً ـ وأمرهما بأخذ البيعة والحضور.

فلما حضرا عنده، أراد علي أن يرسل رسولاً إلى معاوية، فقال جرير البجلي: أرسلني إليه فأدعوه إلى الدخول في طاعتك.

فقال الأشتر لعلي: لا تبعثه فوالله إني لأظن هواه معه.

فقال علي: دعه حتى ننظر ما الذي يرجع إلينا به.

فبعثه إليه، وكتب معه كتاباً يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير، وما كان من حربهم ومقتلهم، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته.

فقدم جرير على معاوية، فماطله واستنظره، ودعا عمرو بن العاص فاستشاره فيما كتب به عليٌّ إليه، فأشار عليه أن يُرسل إلى وجوه الشام، ويلزم عليًا دم عثمان ويقاتله بهم، ففعل ذلك معاوية.

وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان مدرجاً بدمه مع شيء من كَفّه وضعوا القميص على المنبر، كما أمرهم معاوية، واستثار الجنود، فبكوا على القميص، وآلى رجالهم ألاّ يمسوا الماء، ولا يناموا على الفُرش، حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض من دونهم بشيء، أو تفنى أرواحهم.

فعاد جرير إلى علي وأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله، وبكائهم على عثمان، واتهامهم عليًا بقتله وإيواء قتلته.

فقال الأشتر لعلي: قد كنت نهيتك أن ترسل جريراً، ولو كنت أرسلتني لكنت خيراً من هذا الذي أقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلاّ فتحه، ولا باباً يخاف منه إلا أغلقه.

فقال جرير: لو كنت ثَمّ لقتلوك، فقد ذكروا أنّك من قتلة عثمان.

فقال الأشتر: والله لو أتيتهم لم يُعيني جوابهم، ولحملت معاوية على خطة أُعجله فيها عن الفكر، ولو أطاعني أمير المؤمنين لحَبَسَكَ وأشباهك حتى يستقيم الأمر[1].

ثم خرج عليّ وعسكر بموضع قرب الكوفة على طريق الشام يسمى «النُّخَيلة»، وتخلف عنه نفرٌ من أهل الكوفة، وقدم عليه عبدالله بن عباس فيمن معه من أهل البصرة، وبلغ ذلك معاوية، فاستشار عمرو بن العاص، فقال: أما إذا سار عليٌّ فسر إليه بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك.

فتجهز معاوية، وتجهز الناس، وحضَّهم عمرو بن العاص، وضعَّف علياً وأصحابه، وقال: الله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلوه[2].

واستنهض معاوية أهل الشام، وعقد لواءً لعمرو، كما عقد لابنيه عبدالله ومحمد، ولواءً لغلامه وردان، وسار معاوية متأنياً في سيره.

وأخذ عليٌّ بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات، ومن هناك قدَّم طلائعه أمامه، حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية، فكان بين الفريقين مناوشات قليلة، ثم تحاجزوا.

وتلاحقت جنود علي ومعاوية، وعسكرت الطائفتان في سهل صفين، ووقف الجيشان الإسلاميان بعضهما أمام بعض.

وكان معاوية قد سبق علياً، فنزل منزلاً، اختاره واسعاً أفيَح، وأخذ شريعة الفرات، وليس في ذلك الصقع شريعة غيرها، وجعلها في حوزته، وبعث عليها أبا الأعور السُّلمي يحميها ويمنعها.

فطلب أصحابُ علي غيرها فلم يجدوا، فأتوا عليّاً، فأخبروه بفعلهم

(١) تاريخ الطبري.
(٢) تطلوه: تهدروه من غير ثأر.

وبعطش النّاس، فدعا صعصعة بن صوحان، وأرسله إلى معاوية يقول له: إنا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، فقدَّمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها، منعتم النّاس من الماء، والناس غير منتهين، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس والماء، وليكفوا، لننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له، فإن أردت أن نترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا[١].

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟

فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان، اقتلهم عطشاً قتلهم الله.

فقال عمرو بن العاص: خل بين القوم والماء، وإنهم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكن بغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم.

فأعاد الوليد بن عقبة مقالته، وقال عبدالله بن أبي سَرْح: امنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، ولو رجعوا كان رجوعهم هزيمة.

رجع صعصعة إلى علي فأخبره بما كان، وأن معاوية قال: سيأتيكم رأيي.

فلما سمع عليٌّ ذلك قال: قاتلوهم على الماء.

فقال الأشعث بن قيس الكندي: أنا أسير إليهم.

فقال له عليٌّ: فسر إليهم.

فسار وسار معه بعض أصحاب علّيّ، فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم فرموهم بالنَّبْل، فتراموا ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح، ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة، ثم توالت الأمداد للفريقين، وغالب أصحاب عليٍّ

---

(١) ابن الأثير ٣/٢٨٤.

حتى صارَ الماءُ في أيديهم، وقالوا: والله لا نسقيه أهل الشام.

فأرسل عليٌّ إلى أصحابه أن خذوا من الماء حاجتكم وخلُّوا عنهم، فإن الله نصركم ببغيهم وظلمهم.

ثم إنَّ عليًّا دعا ثلاثة من رجاله، وهم: بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشيث بن ربعي التميمي، فقال: ائتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة.

فقال له شيث: يا أمير المؤمنين، ألا تُطمِعُه في سلطان توليه إياه، أو منزلة يكون له بها أَثَرَة عندك إن هو بايعك؟

فقال علي: ائتوه مالقوه، واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه.

فسار الثلاثة حتى دخلوا عليه، ثم قام بشير بن عمرو الأنصاري، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله عز وجل محاسبك بعملك، ومجازيك بما قدّمَتْ يداك، وإني أنشدك الله عز وجل أن لا تُفَرّق جماعة هذه الأُمة، وأن لا تسفك دماءَها بينها.

فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك!

فقال بشير: إن صاحبي ليس مثلك، إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر، وفي الفضل والدين والسابقة في الإسلام، والقرابة من الرسول ﷺ.

قال معاوية: فيقول ماذا؟

قال: يأمرك بتقوى الله عز وجل، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك، وخيرٌ لك في عاقبة أمرك.

قال معاوية: ونطل دم عثمان، لا والله، لا أفعل ذلك أبداً.

فقام سعيد بن قيس ليتكلم، فبادره شيث بن ربعي، فتكلم وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا معاوية، إني قد فهمت ما رددت، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو

وما تطلب، إنك لن تجد شيئاً تستغوي به النّاس، وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم، إلا قولك: قتل إمامكم مظلوماً، فنحن نطلب دمه، فاستجاب لك سفهاء طغام(١). وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب، وربّ متمنٍ أمر وطالبه، يحول الله عز وجل دونه بقدرته، وربما أُوتي المتمني أمنيتَه وفوق أمنيته، والله ما لَكَ في واحدة منهما بخير؛ لئن أخطأت ما ترجو إنك لشرُّ العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تتمنى لا تصيبُه حتّى تستحل من ربك صَلاَ النار، فاتق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله.

فقام معاوية، وحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال:

أما بعد؛ فإن أول ما عرفت فيه سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه، ثم عُنيت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبت، ولَؤمْتَ أيها الأعرابي الحلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت، انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبَيْنكم إلا السيف(٢).

قال شيث: أفعلينا تهول السيوف، أقسم بالله لَيُعْجَلَنّ بها إليك!!

ثم أتوا عليًا فأخبروه الخبر.

ولقد هاب النّاس جميعاً الحرب خوفاً من الهلاك، فكانت تخرج فرقة من أهل الشام، فتخرج لها مثلها من جيش أهل العراق فيقتتلون، وعلى هذه الحال كان شأنُهم في ذي الحجة، فلما أهلَّ المحرم توادع الفريقان على ترك الحرب فيه إلى انقضائه طمعاً في الصلح، واختلف بينهما الرسل.

فبعث عليٌّ عدي بن حاتم، ويزيد بن قيس الأرجي، وشيث بن ربعي، وزياد بن حَصَفة، فلما دخلوا على معاوية حمد الله عدي بن حاتم، ثم قال: أما بعد، فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل كلمتنا

---

(١) الطغام: هم أوغاد الناس.

(٢) تاريخ الطبري ٥٧٣/٤، ٥٧٤.

وأُمّتنا، ويحقن به الدماء، وتأمن به السُّبل، وتُصْلِحُ ذات البين؛ إن ابن عمك سيد المسلمين، أفضلنا سابقة وأحسننا في الإسلام أثراً، وقد استجمع له النّاس، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا، فلم يبق أحدٌ غيركَ ومَن معك، فانتهِ يا معاوية، لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل الجمل.

فقال معاوية: كأنما جئت مهدِّداً ولم تأت مصلحاً! هيهات يا عدي! كلا والله إني لابن حرب، ما يقعقع لي بالشنان[1]، أما والله إنَّك لمن المجلبين على ابن عفان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به، هيهات يا عدي، قد حَلبت بالساعد الأشدّ.

فقال شيث بن ربعي وزياد بن حصفة: أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب الأمثال! دع ما لا ينتفع به من القول والفعل، وأجبنا فيما يعمُّنا وإياك نفعه.

وقال زيد بن قيس: إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك، ولنؤوي عنك ما سمعنا منك، ونحن على ذلك لن ندعك إلا بعد أن ننصح لك، ونذكر ما ظننا أن لنا به عليك حجة، وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة، إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك؛ إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي، ولن يُميِّلوا بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية، ولا تخالف عليًا، فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فقال معاوية: أمّا بعد، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرَّق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد عليه ذلك، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم، فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

---

(١) ما يقعقع لي بالشّنان: أي ما أخدع وما أُروع «وهو مثل».

فقال له شيث: أَيسرّك يا معاوية أنّك مُكِّنت من عمار تقتله؟

فقال: وما يمنعني من ذلك؟ والله لو أمكنت من ابن سُمية ما قتلته بعثمان، ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان.

فقال شيث: لا تصل إلى عمار تقطع الهام عن كواهل الأقوام، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها.

فقال له معاوية: إنَّه لو قد كان ذلك، كانت الأرض عليك أضيق.

ويقول الشيخ محمد الخضري في التعليق على سفراء عليّ رضي الله عنه وحوارهم مع معاوية رضي الله عنه: وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت إليه، لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين، يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً، أمّا هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها، مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها[(١)].

وأرسل معاوية إلى عليٍّ حبيب بن مسلمة الفهري، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد، والأخنس بن شريق، فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال لعلي:

أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً، يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمر الله، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنّك لم تقتله، نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم.

فقال له علي: ما أنت والعزل وهذا الأمر، اسكت فإنك لست هناك، ولا بأهل له.

---

(١) محاضرات في تاريخ الأمم ص ٢٩٤، طبعة العلمية بيروت.

فقال حبيب: والله لتريني بحيث تكره.

فقال علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك، لا أبقى الله عليك.

وظل الحوار بينهم وبين علي، ثم انصرفوا من غير نتيجة.

وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش.

بدء المعركة

بدأت المعركة في يوم الأربعاء أول صفر سنة سبع وثلاثين هجرية، من غير أن يقف الجمعين وجهاً لوجه، بل كان يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا، حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر: حتى متى لا نناهض هؤلاء بجمعنا، واتفق معهم على ذلك.

وفي الصباح زحف علي بجنود أهل العراق، وزحف له معاوية بجنود أهل الشام، وذلك يوم مشؤوم، لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن.

اقتتل الناس في هذا اليوم قتالاً شديداً، نهارهم كله، ثم انصرفوا في المساء وكل غير غالب، فلما كان يوم الخميس صلى علي بغلس، وخرج بالناس إلى أهل الشام، فزحف إليهم وزحفوا معه، ثم انتهى هذا اليوم، وقد انكشفت ميمنة أهل العراق، وانتهت هزيمتهم إلى علي فمشى نحو الميسرة، فانكشفت عنه مضر في الميسرة، وثبتت معه ربيعة، ودنا منه أهل الشام، فما زاده قربهم إلا إسراعاً، فقال له ابنه الحسن: ما ضرّك لو سعيت حتى تنتهي إلى هؤلاء القوم من أصحابك؟

فقال: يا بني، إنّ لأبيك يوماً لا يعدوه، ولا يبطىء به عنه السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إنّ أباك والله لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

وجاء الأشتر النَّخعي، فقال له علي: ائت هؤلاء القوم، فقل لهم: أين فراركم من الموت. فذهب إليهم الأشتر، وهيج الناس، فتابعوه وكروا

معه، فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة، وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب، ولم يزل الأشتر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية[1].

ولما أمسى المساءُ على الفريقين لم يفترقا، واستمر القتال حتى الصباح وسمّيت هذه الليلة الهرير، يشبّهونها بليلة القادسية، فتطاعنوا حتى تقصفت الرماح، وتراموا حتى نفذ النبل، وأخذوا السيوف، وعلي يسير فيما بين الميمنة والميسرة، ويأمر كل كتيبة أن تُقْدِم على التي تليها، والأشتر يقول: مَن يشتري نفسه، ويقاتل مع الأشتر يظهر أو يلحق بالله. فاجتمع إليه ناس كثير.

فقال لهم: شدّوا شَدَّةً ـ فِدى لكم خالي وعمي ـ ترضون بها الرَّب، وتغرون بها الدين، ثم ضرب وجه دابته، وقال لصاحب رايته: أقدم بها، وحمل على القوم، وحملوا معه، فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم، فقاتلوه قتالاً شديداً.

فلما رأى عمرو بن العاص أنَّ أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك، لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلاّ فرقة، قال: نعم، قال: نرفع المصاحف، ثم نقول: هذا حَكَم فيما بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم مَن يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فُرقة بينهم، وإن قبلوا فيها رفعنا القتال عنّا إلى أجل.

فوافق معاوية، وأشار على أصحابه بهذا الرأي، فرفعوا المصاحف على الرماح. وقالوا: هذا حكم كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم، مَنْ لثغور الشام بعد أهله! مَن لثغور العراق بعد أهله.

---

(١) وكان معاوية يقول: أردت أن أنهزم في هذا الوقت، فذكرت قول ابن الأطنابه:

أبت لي عفتي وأمي بلائي ... وإقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

انظر: تاريخ الطبري

فقال أهل الكوفة: نجيب إلى كتاب الله، وقالوا لعلي أجب إلى كتاب الله.

فقال لهم علي: يا عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فإنَّ معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي السرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين وقرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم إنما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون ما فيها وما رفعوا لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة.

فقالوا: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عزّ وجلّ فنأبى أن نقبله.

فقال لهم علي: فإني إنما أُقاتلهم ليدنوا لحكم الله، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده، ونبذوا كتابه. فقال له مسعد بن مذكر التميمي وزيد بن حصين الطائي من عصابة من القُرّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب ألله عزّ وجلّ إذ دُعيت إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفّان! قال: فاحفظوا عني نهي إياكم، واحفظوا مقالتكم، فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم.

قالوا ابعث إلى الأشتر فليأتك، فبعث عليٌّ يزيد بن هانيء يستدعيه. فقال الأشتر: ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك إن تُزيلني عن موقفي، إني قد رجوت أن يفتح الله لي.

ورجع يزيد بن هانيء إلى أمير المؤمنين، وأخبره بما قاله الأشتر، وتصميم الأشتر على القتال لانتهاز فرصة النصر وتراجع الشاميين وصاح القوم بعلي قائلين: والله ما نراكَ إلاّ أمرته بالقتال.

فقال علي: هل رأيتموني ساررته؟ ألم أبعث إليه جهرة وأنتم تسمعون. فقالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلا والله اعتزلناك.

ولكن أمير المؤمنين أراد أن يتصدى للفتنة، فأرسل للأشتر ليُقبل إليه.

فقال الأشتر مستاءً: ويحك ألا ترى ما نحن فيه من النصر ولم يبق

إلا القليل؟ فقال يزيد بن هانيء للأشتر: أيهما أحبُّ إليك أن تُقْبل أن يقتل أمير المؤمنين كما قتل عثمان.

فأقبل الأشتر وهو في غضب شديد، فلما وقف على القوم قال: يا أهل العراق يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحِف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وسنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم.

أمهلوني إني قد أحسست بالفتح.

قالوا: لا.

قال: أمهلوني عدوَ فرس فإني طمعت في النصر.

قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك[1].

ودخل الأشتر معهم في حوار، فقالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم لله، وندع قتالهم لله.

قال الأشتر: خدعتم وانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا، وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى مرادكم إلا قبحاً، يا أشباه النيب الجُلالة[2]!! ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبداً، فابعدوا كما بَعُدَ القوم الظالمون.

فسبُّوه وسبَّهم، وضربوا وجهه وضربوا وجه دابته بسياطهم، وضرب وجوه دوابِّهم بسوطه.

فصاح عليٌّ به وبهم، فكفوا، وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً.

فجاء الأشعث بن قيس إلى علي فقال: أرى الناس قد رضوا بما دعوهم إليه من حُكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية، فسألته ما يريد.

قال: ائته.

---

(١) البداية والنهاية ٧/٢٧٤.

(٢) النيب الجلالة: النياق المسنة.

فأتاه فقال لمعاوية: لأي شيء رفعتم المصاحف؟

قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه، تبعثون رجلاً ترضون به، ونبعث نحن رجلاً نرضى به، نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه.

قال له الأشعث: هذا الحق.

ثم عاد الأشعث إلى علي، وأخبره بما قال معاوية.

وتراضى الفريقان على هذا الرأي، وقال أهل الشام: قد رضينا عمرو بن العاص.

وقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج: إنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري!

فقال علي: قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصوني الآن، لا أرى أن أُوَلِّيَ أبا موسى.

فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فنكي: لا نرضى إلا بأبي موسى، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه!!

قال علي: فإنه ليس بثقة، قد فارقني وخذل الناس عنّي، ثم هرب مني حتى أمّنتهُ بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس، أوليه ذلك.

قالوا: والله ما نبالي أأنت كنت أم ابن عباس، لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء.

قال علي: فإني أجعل الأشتر.

قالوا: وهل سعَّر الأرض غير الأشتر.

فقال: قد أبيتم إلا أبا موسى؟

قالوا: نعم.

قال: فاصنعوا ما أردتم.

فبعثوا إلى أبي موسى، وقد اعتزل القتال، فدخل عليه مَوْلى له، فقال: إن الناس قد اصطلحوا.

فقال: الحمد لله.

قال: قد جعلوك حكماً.

فقال أبو موسى: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم جاء أبو موسى حتى دخل العسكر.

ولما علم الأشتر جاء إلى علي فقال: ألصقني بعمرو بن العاص، فوالله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه.

وجاء الأحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد رُميت بحجر الأرض، وإني قد عجمت أبا موسى وحلبت أشطره، فوجدته كليل الشَّفرة، قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم، يدنو في أكفّهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً أو ثالثاً فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها، ولا يحل عقدة أعقدها لك إلا عقدت أُخرى أَحكم منها.

فأبى الناس إلا أبا موسى الأشعري رضي الله عنه والرضا بالكتاب.

فقال الأحنف بن قيس: إن أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال.

واستعد الناس للتحكيم والصلح على يد عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري.

وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتب العهد بحضوره، فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين. . .

فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم، وأما أميرُنا فلا.

فقال الأحنف: لا تمحُ اسم أمير المؤمنين، فإني أخاف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً، لا تمحها، وإن قتل الناس بعضهم بعضاً.

فأبى ذلك عليّ مليًا من النهار، ثم إن الأشعث بن قيس قال للكاتب: امحُ هذا الاسم، فمحاه، فقال علي: الله أكبر سُنّة بسنَّة، وإني لكاتب

رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فكتبت: «محمد رسول الله»، فقالت قريش: لست برسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله ﷺ بمحوه، فقلت: لا أستطيع، فقال: أرنيه، فأريته، فمحاه بيده، وقال: «**إنك ستدعى بمثلها فتجيب**».

فقال عمرو: سبحان الله، أنُشَبَّهُ بالكفار ونحن مؤمنون!

وتبادل علي وعمرو عبارات شديدة، وكتب الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين: إننا ننزل عند حكم الله وكتابه، وألا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان ـ وهما: أبو موسى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص ـ في كتاب الله عزَّ وجل عملا به، وما لم يجداه في كتاب الله عز وجل؛ فالسُّنَّة العادِلة الجامعة غير المفرِّقة.

وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهدُ الله وميثاقهُ أنَّا على ما في هذه الصحيفة، وأنْ قد وَجَبتْ قضيتُهما على المؤمنين، فإن الأَمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم، أينما ساروا، على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم.

وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يَحْكما بين هذه الأُمة، ولا يردَّاها في حَرْب ولا فرقة حتى يعصيا الله، وأجلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبّا أن يؤخّرا ذلك أخّراه على تراضٍ منهما، وإن تُوُفِّيَ أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يألو مَن أهل العدل والقسط، وإنّ مكان القضية الذي يقضيان فيه مكانٌ عَدْل بين أهل الكوفة والشام، وإن رضيا وأحبا، فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا، ويأخذ الحكمان

مَنْ أرادا مِنَ الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة، وهم أنصارٌ على من ترك هذه الصحيفة، وأرادا إلحاداً أو ظلماً؛ اللهم إنَّا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة.

وتحدد مكان الاجتماع في الوثيقة في دومة الجندل، وذلك لأنها مكان وسط بين العراق والشام، وضمن أهل العراق الوفاء لأهل الشام، وكذلك ضمن أهل الشام الوفاء لأهل العراق، وشهد كل فريق على وثيقة الفريق الآخر[1].

فقد شهد من أصحاب علي: الأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمداني، وورقاء بن سمي البجلي.

وشهد من أصحاب معاوية: أبو الأعور السُّكميّ، وحبيب بن مَسْلَمة، وزَمْلُ بن عمرو العذري[2].

وبعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق، أما جند علي فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرأونه حتى مرَّ به على طائفة من بني تميم، فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبي بلال، فقرأهُ عليهم، فقال عروة: أتحكمون في أمر الله الرجال؟ لا حكم إلا لله.

ودعي الأشتر ليوقع على الصحيفة فرفض، لأنه لم يرض بالصلح والموادعة وقال: لا صحبتني يميني، ولا نفعتني بعدها شمالي إن خط لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة، أو لست على بينة من ربّي ومن ضلال عدوي؟ أو لستم قد رأيتم الظفر لو لم تجمعوا على الجور؟[3].

وكان علي رضي الله عنه، قد أسر عدداً كبيراً من أهل الشام، وكذلك

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٣٣/١.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٥٤/٥.

(٣) المصدر السابق ٥٥/٥.

كان لدى معاوية عدد من أهل العراق لا يقل عن عدد أسرى الشاميين، واستشار عمرو بن العاص في أمرهم، فأشار عليه عمرو بن العاص بقتلهم، ولكن معاوية تمهل في ذلك، ولما أطلق عليّ من كان عنده من الأسرى قبل انصرافه إلى الكوفة، قال معاوية لعمرو بن العاص: يا عمرو لو أطعناك في هؤلاء الأسرى وقعنا في قبيح من الأمر، ألا ترى قد خليّ سبيل أسرانا، فأمر معاوية بإطلاق من في يديه من أسرى[1].

علي وفتنة الخوارج

لما قرأ الأشعث الكتاب، وبدأ يطوف بها يقرؤها عليهم، خرج رجل من بين بني تميم هو عروة بن أُديّة ومعه الخوارج من جماعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأخذوا يصيحون بالأشعث قائلين: حكمت الرجال!! لا حكم إلا لله، وأول من قالها: رجل يقال له: عروة بن أدية كما ذكرنا.

ولم يكد أمير المؤمنين علي يصل إلى الكوفة حتى خرج عليه، واعتزل من جيشه اثنا عشر ألف رجل وهم الخوارج، وتركوا الكوفة، ونزلوا حروراء[2]، وأنكروا على أمير المؤمنين، ونادى مناديهم: إنَّ أمير القتال شيث بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبدالله بن الكوَّاء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجلّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فلما سمع علي بأمرهم - وهو خروج على طاعته ورجوع عن البيعة - لما سمع رضي الله عنه بذلك، بعث إليهم عبدالله بن عباس، وقال له: لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك.

فخرج إليهم، فأقبلوا يكلمونه، فلم يصبر حتى راجعهم وقال: ما نقمتم من الحكمين؟ وقد قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥]، فكيف بأُمة محمد ﷺ.

---

(١) المصدر السابق ٥/٦٥.

(٢) حروراء: موضع بظاهر الكوفة.

فقالوا: أَما جعل الله حكمه إلى النَّاس، وأمر بالنظر فيه والإصلاح له، فهو إليهم كما أمر به، وما حَكَم فأمضاه للعباد أن ينظروا في هذا.

قال ابن عباس: فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

فقالوا له: أو تجعل الحكم في الصيد، والحَدَث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين!.. ثم قالوا: إن هذه الآية بيننا، أَعَدْلٌ عندك ابن العاص وهو بالأَمس يقاتلنا ويسفك دماءَنا؟ فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حربة، وقد حكَّمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه: أن يُقْتَلوا أو يرجعوا، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتاباً، وجعلتم بينكم الموادعة، وقد قطع الله الموادعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة، إلاَّ مَنْ أَقرَّ بالجزية(١).

ثم جاء علي فوجَدَ ابن عباس يخاصمهم، فقال له: ألم أنهك عن كلامهم!

ثم تكلم فقال: اللهم هذا مقامٌ، من يفلح فيه كان أولى بالفلاح يوم القيامة.

ثم قال لهم: من زعيمكم؟

قالوا: ابن الكوّاء.

قال: فما أخرجكم علينا؟

قالوا: حكومتك يوم صفِّين.

قال علي: أنشدكم الله، أتعلمون أنهم حين رفعوا المصاحف، وقلتم: نجيبهم، قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين!

ثم قال لهم: قد اشترطت على الحكمين أن يُحْيِيَا ما أحيا القرآن،

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٥/٥٥.

ويميتا ما أَمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن، فليس لنا أن نخالف، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء.

قالوا: فخبِّرنا، أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟

فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال، إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خَطٌّ مسطور بين دفتين، لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال.

قالوا: فخبِّرنا عن الأَجل، لم جعلته فيما بينك وبينهم.

قال علي رضي الله عنه: ليعلم الجاهل، ويتثبَّت العالم، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة الأُمة، ادخلوا مِصركم رحمكم الله.

بعد هذه المناظرة بينهم وبين علي رجع كثير منهم، وتابوا وأنابوا، وأصرَّ الباقون على العناد والكفر، ولما ذكرهم علي بأنهم الذين ألحوا في قبول التحكيم في أول الأمر قالوا: لقد أخطأنا ثم تبنا إلى الله ورجعنا، فإما أن تتوب كما تبنا، وإلا قاتلناك حتى ترجع إلى حكم الله..!!

ويروي ابن كثير، فيقول: وكان الخوارج إذا مروا بعلي عرضوا به وشتموه، وقد مرَّ به رجل وهو يصلي فقرأ قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فقرأ علي رضي الله عنه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠](١).

وهذه الرواية يرويها الطبري من طريق آخر فيقول: إن هذه المقولة كانت وعلي يخطب، حيث مرَّ به حكيم بن عبدالرحمن البكائي، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فرد عليه علي بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢٨٢/٧.

وقال علي لهؤلاء: إن لكم عندي ثلاثاً: لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا(١).

وتكاتب الخوارج، وخرجوا إلى مكان يسمى النهروان، فقاتلهم علي بعد أن تنادوا وقالوا: الرواح الرواح إلى الجنة، واستطاع علي أن يهزمهم، ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة، بينما قتل منهم الكثير(٢).

اجتماع الحكمين

في شهر رمضان اجتمع الحكمان في دومة الجندل حسبما اتفق الناس، وأرسل الحكمان إلى جماعة من الصحابة يدعونهم لشهود الاجتماع وحضور ما سيتفق عليه، فكتبوا إلى عبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الحارث، وعبدالرحمن بن عبد يغوث، وجميعهم ممن اعتزل في هذه الحروب(٣).

وحضر معاوية حسب نص الوثيقة بوجوب حضوره وحضور علي، ولكن علياً رضي الله عنه لم يحضر، لأنه كان لا يرى التحكيم، ولم يرض به، وإنما غلبه عليه أصحابه فنزل على رغبتهم.

ورفض سعد بن أبي وقاص نصيحة ابنه عمر بحضور هذا الاجتماع، فرفض وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه تكون فتنة، خير الناس فيها الخفي التقي، والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً**»(٤).

وحاول معاوية التأثير على الحضور، ولكن الحكمان بدءا يتبادلان الأمر، وتكلم عمرو بن العاص محاولاً إثبات مخالفة على عليّ رضي الله

(١) الطبري ٧٤/٥.
(٢) المصدر السابق ٨٩/٥.
(٣) الطبري ٨٠/٥.
(٤) المصدر السابق ٦٧/٥.

عنه بأنه لم يحضر وحضر معاوية فقال: يا أبا موسى، رأيت أول ما نقضي به من الحق أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم.

قال أبو موسى: وما ذاك؟

قال عمرو: ألست تعلم أن أهل الشام ومعاوية قد وفوا، وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟

قال أبو موسى: بلى.

قال عمرو: اكتبها، فكتبها أبو موسى.

قال عمرو: يا أبا موسى!! أأنت على أن نسمي رجلاً يلي أمر هذه الأمة، فسمه لي، فإن أقدر على أن أتابعك فلك عَلَيّ أن أتابعك، وإلا فلا عليك أن تتابعني.

قال أبو موسى: أسمّي لك عبدالله بن عمر.

قال عمرو: إني أسمي لك معاوية بن أبي سفيان.

ورفض كل منهما ما سمى صاحبه، ورفعت الجلسة، ثم عادا.

فقال عمرو: يا أبا موسى، ألست تعلم أن عثمان رضي الله قتل مظلوماً؟

قال: أشهد.

قال عمرو: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟

قال: بلى.

قال عمرو: فإن الله عز وجل قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى، وبيته من قريش كما علمت.

وحاول عمرو بن العاص أن يأخذ بيعة أبي موسى الأشعري لمعاوية

لأنه: ولي عثمان، والحسن السياسة، الحسن التدبير، أخو أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وصاحبه، فهو أحد الصحابة.

ثم ساوم عمرو أبا موسى بالسلطان فقال: إن وُليَ معاوية أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة.

فرد أبو موسى قائلاً: يا عمرو!! اتق الله عز وجل، فأما ما ذكرت من شرف معاوية، فإن هذا الشرف يولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة من الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب.. واستطرد أبو موسى يرد على كل واحدة...[1].

وقال عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه.

قال أبو موسى: إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة.

وكان عبدالله بن عمرو بن العاص رجلاً صالحاً، فلم يخرج للقتال بل لطاعة أبيه، فلما قتل عمار بن ياسر قال لأبيه: قتلتم الرجل، وقد قال رسول الله ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»[2].

فلما بلغ معاوية ذلك قال له: فلم تقاتل معنا وأنت تقول ذلك؟؟

أراد عمرو بن العاص أن يحسم الأمر فقال: لقد عرضت علي فرفضت، وعرضت عليك فرفضت، فما رأيك؟

قال أبو موسى: رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختارون لأنفسهم من أحبوا.

فقال عمرو بذكاء وقد أحس أنه يوشك أن يحقق هدفه فقال: الرأي ما رأيت.

---

(١) الحوار في تاريخ الطبري ٥/٨٠ وما بعدها.

(٢) انظر: كتابنا العبادلة من سلسلة عصر الصحابة، طبعة دار ابن كثير دمشق.

فأقبلا على الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: يا أبا موسى، أعلمهم أن رأينا قد اتفق.

فتكلم أبو موسى فقال: إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة.

فقال عمرو: صدق وبرَّ، تقدم يا أبا موسى وتكلم.

فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس: ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك...

فقال أبو موسى: إنا قد اتفقنا...

ثم قال: أيها الناس: إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع عليّاً ومعاوية، ويولي الناس أمرهم من أحبوا، وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً... ثم تنحى جانباً.

وأقبل عمرو فقال: إن هذا قد قال الذي سمعتموه، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأُثبتُ صاحبي معاوية، فإنّه ولي عثمان بن عفان، والطالب بدمه، وأحقُّ الناس بمقامه.

فقال أبو موسى وقد فوجىء: ما أصنع؟ وافقني على أمر ثم نزع عنه!!!

فقال ابن عباس: لا ذنب لك يا أبا موسى، الذنب لمن قدّمك في هذا المقام.

قال أبو موسى: غدر.

فقال ابن عمر: انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأُمة، صار إلى رجل لا يبالي ما صنع، وإلى آخر ضعيف.

وقال عبدالرحمن بن أبي بكر: لو مات الأشعري قبل هذا اليوم لكان

خيراً، والتمس أهل الكوفة أبا موسى، فإذا هو قد خرج إلى مكة.

ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية، فسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح إلى علي وأبلغاه خبر الحكمين.

مقتل علي

تآمر الخوارج وانتدبوا ثلاثة نفر منهم، هم: عبدالرحمن بن ملجم المرادي، والبرك بن عبدالله التميمي، وعمرو بن بكير التميمي، فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة: علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص.

فقال ابن ملجم: أنا لكم بعلي.

وقال البُركُ: أنا لكم بمعاوية.

وقال عمرو بن بكير: أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

وتعاهدوا على أن يكون ذلك في ليلة واحدة، ليلة حادي عشر أو ليلة سابع عشر من رمضان.

ثم توجه كل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه، فقدم ابن ملجم الكوفة، فلقي أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما أراد إلى ليلة الجمعة سابع عشر من رمضان سنة أربعين، فاستيقظ عليّ سحراً ليصلي الفجر، وخرج من الباب ينادي: أيها الناس!! الصلاة الصلاة، فاعترضه ابن ملجم، فضربه بالسيف، فأصاب جبهته إلى قرنه، ووصل إلى دماغه، فشد عليه الناس من كل جانب فأُمسك به ووثُقَ، وأقام علي الجمعة والسبت، وغسَّله الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر، ودفن بالكوفة بدار الإمارة ليلاً، أما ابن ملجم فقد اقتص منه وقتل[1].

وكان لعلي حين توفي ثلاث وستون سنة، وقيل: أكثر من هذا.

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص ١٥٦، وطبقات ابن سعد.

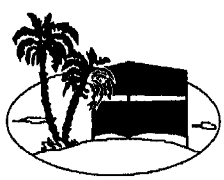
وقد تمثل عفو علي بن أبي طالب عمن أساء إليه في أحرج اللحظات، فعندما أصيب قبض الناس على ابن ملجم، وأدخلوه على عليّ رضي الله عنه، فقال لهم: النفس بالنفس، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت رأيي فيه، ثم ظل بعدها يومين حتى توفي رضي الله عنه سنة ٤٠ من الهجرة[١].

(١) انظر: العشرة المبشرون بالجنة لعبد المنعم الهاشمي، ط دار الوفاء مصر.

أهم المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.
٢ ـ **كتب الحديث الشريف**.
٣ ـ **الإمامة والسياسة**: لابن قتيبة.
٤ ـ **الأخبار الطوال**: للدينوري.
٥ ـ **الأوائل**: أبو الحسن العسكري.
٦ ـ **البداية والنهاية**: لابن كثير.
٧ ـ **تاريخ الطبري**.
٨ ـ **تاريخ الأمم الإسلامية**: للشيخ محمد الخضري.
٩ ـ **تاريخ الخلفاء**: للسيوطي.
١٠ ـ **تاريخ اليعقوبي**.
١١ ـ **الخراج**: لأبي يوسف.
١٢ ـ **عثمان**: لمحمد حسنين هيكل.
١٣ ـ **الفاروق عمر**: لمحمد حسنين هيكل.
١٤ ـ **سمط النجوم**: عبدالله بن حسن العاظمي.
١٥ ـ **السيرة الحلبية**: لبرهان الدين.
١٦ ـ **السيرة النبوية**: لابن هشام.
١٧ ـ **تاريخ الإسلام**: للذهبي.
١٨ ـ **سير أعلام النبلاء**: للذهبي.
١٩ ـ **الصديق أبو بكر**: لهيكل.
٢٠ ـ **العبقريات**: للعقاد، طبعة دار الكتاب العربي، مجلد واحد.

٢١ ـ **الطبقات**: لابن سعد.
٢٢ ـ **العواصم والقواصم**: أبو بكر بن العربي.
٢٣ ـ **فتوح البلدان**: للبلاذري.
٢٤ ـ **معجم البلدان**: لياقوت.
٢٥ ـ **فتوح الشام**: للواقدي.
٢٦ ـ **فتوح مصر والمغرب**: لابن عبد الحكم.
٢٧ ـ **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير.
٢٨ ـ **الخطط (المواعظ والاعتبار)**: للمقريزي.
٢٩ ـ **النجوم الزاهرة**: ليوسف بن تغري بردي.
٣٠ ـ **أيام العرب في الإسلام**: علي البجاوي.
٣١ ـ **جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين**: د. محمد السيد الوكيل.
٣٢ ـ **عصر الصحابة**: عبد المنعم الهاشمي، دار ابن كثير.
٣٣ ـ **الفتنة ووقعة الجمل**: تحقيق أحمد راتب عرموش.
٣٤ ـ **الوثائق السياسية**: لمحمد حميد الله.
٣٥ ـ **عصر التابعين**: عبد المنعم الهاشمي، دار ابن كثير.
٣٦ ـ **عزوات النبي**، عبد المنعم الهاشمي، دار النفائس بيروت.
٣٧ ـ **تاريخ ابن خلدون**.
٣٨ ـ **سيرة دحلان على هامش السيرة الحلبية**.
٣٩ ـ **العقد الفريد**: لابن عبد ربه.
٤٠ ـ **الفائق**: للزمخشري، مطبعة عيسى الحلبي.
٤١ ـ **لسان العرب**: لابن منظور.
٤٢ ـ **مروج الذهب**: للمسعودي.
٤٣ ـ **الإصابة**: لابن حجر العسقلاني.
٤٤ ـ **الاستيعاب**: لابن عبد البر.



المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة